القدس

من الإسراء إلى وعد الآخرة

سبع آيات تختزل التاريخ

فلسطين ومركزية الصراع الكوني



د. حسن الباش

دار قتيبة

القدس

من الإسراء إلى وعد الآخرة

سبع آيات تختزل التاريخ

فلسطين ومركزية الصراع الكوني

الطبعة الأولى

1425هـ - 2004م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف : 30 24 224 11 963+
فاكس : 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان
ص.ب : 14/6364
خليوي : 833 814 3 961+
فاكس : 171 377 1 961+

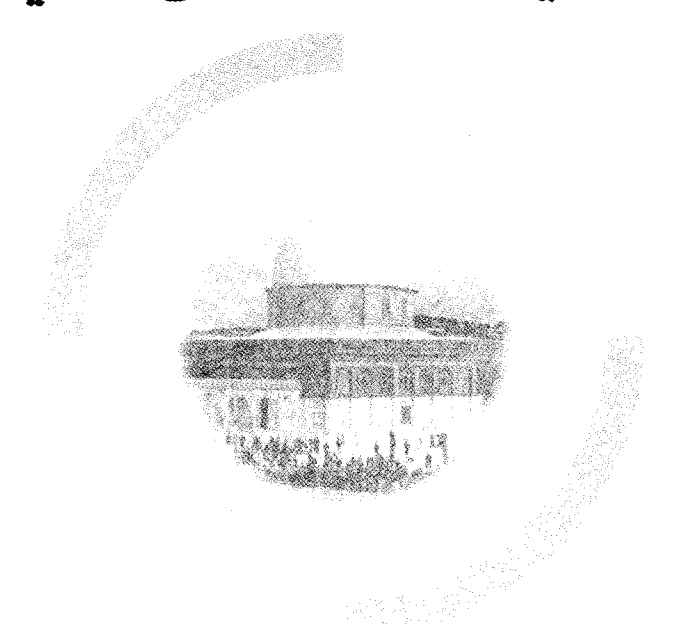
www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

القدس

من الإسراء إلى وعد الآخرة

سبع آيات تختزل التاريخ

فلسطين ومركزية الصراع الكوني



د. حسن الباش



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلـى روح الشـهيد القـائد فتحـي الشـقاقي

إلـى الاستشـهادي الـذي حمـل الرايـة

ليسـتمر الجـهاد حتـى تحريـر الأقصـى

وكـل الأرض الفلسـطينية المباركـة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

تستند الرؤية الصهيونية في احتلال فلسطين على إحدى المقولات التوراتية التي تدعي أن الرب منح أجداد اليهود أرض الميعاد فلسطين. فإضافة للمطامع الاستعمارية الغربية والصهيونية وجدوا في المقولة الدينية حجة لاستعمار هذا البلد العربي.

وبسبب من الإهمال وعدم دراسة نصوصهم الدينية من قبلنا - نحن أصحاب الحق - استطاعوا أن يضللوا العالم بأساليبهم الإعلامية والسياسية، واستطاعوا من ثَمّ غسل أدمغة أبناء الشعوب، حتى بات الكثيرون يدافعون عن وجهة نظرهم القائلة بأن فلسطين أرض لهم منذ آلاف السنين. ولـمّا كان تبيان الحق وإظهاره أحد أساليبنا في الدفاع عن حقوقنا العربية والإسلامية في هذه الأرض المباركة كان لابد لنا من مخاطبة العقل والمنطق؛ حتى نصل في النهاية إلى مسببات إدامة الصراع وحسْمِه مهما كان والانتصار لحقنا.

ولهذه الأسباب وأسباب أخرى كان بحثنا، فهو يتناول قضية القدس باعتبارها القضية المركزية اليوم للعرب والمسلمين، فهي قلب فلسطين، والمكان المقدس المرتبط بالبيت الحرام ارتباطاً قرآنياً مهماً. فهي قبلة المسلمين الأولى وثالث الحرمين الشريفين. ويقيننا يرى أن الصراع مع المحتل الصهيوني سيحتدم ولن يموت مادامت فلسطين والقدس المباركة محتلتين.

وقد اعتمدنا في هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. وتتناول المقدمة أهمية القدس وعلاقتها بالمنظور الصهيوني، وأهميتها وعلاقتها

بالرؤية العربية الإسلامية. وأشرنا فيها إلى أهمية العلاقة القدسية بالله، وأن المقدس الإلهي غير المقدس البشري. والرؤية القرآنية تؤكد على هذه القدسية بينما لا قدسية إلهية في التوراة لهذا المكان المقدس.

أما الفصل الأول فتناولنا فيه فلسطين والقدس في التاريخ القديم بدءاً من الهجرات العربية الأولى، وبيّنا أن الكنعانيين العرب أقاموا في فلسطين حضارة لها عقائدها وتراثها وتحركاتها التجارية والعمرانية، ثم كيف تعرضت هذه المنطقة لغزوات وصراعات بين القوى الكبرى آنذاك. فالفراعنة، والبابليون تصادموا وتصارعوا حتى تبقى أرض فلسطين الجدار الأول لحماية مناطق نفوذهم.

ثم تعرضت فلسطين لغزوات بحرية قام بها غزاةُ البحر القادمون من بحر إيجة، ولغزوات قدمت من الجنوب من قبل القبائل البدوية العبرانية. وقد ركزنا في هذا الفصل على معابد الكنعانيين وعقائدهم ومكانة القدس بالنسبة لهم. وقد بينا طبيعة تلك المعابد وأماكن وجودها والطقوس التي كانت تقام فيها. والمدن الكنعانية التي تنتشر في سائر أنحاء فلسطين. وباعتبار أن النبي إبراهيم عليه السلام شخصية تاريخية ودينية مهمة، فقد تحدثنا عن هجرته القسرية من العراق إلى فلسطين، وكيف استطاع أن يتواصل مع سكان المنطقة من خلال نشره عقيدة التوحيد، ومن ثَمَّ انتقاله إلى مكة وبنائه الكعبة الشريفة لتكون محجاً للناس جميعاً، تربطهم بعقيدة التوحيد، لقد امتنعت التوراة عن ذكر علاقة إبراهيم عليه السلام بمكة وبنائه الكعبة، وكان القصد من وراء ذلك تزييف حقيقة دينية كبرى. لكن القرآن الكريم فضح ألاعيبهم وتزييفهم الحقيقة. فما كان إبراهيم يهودياً إنما كان موحداً عالمياً. وربطت رحلته المستمرة بين فلسطين ومكة بين مُقَدَّسين إلهين. اختارهما الله وخصهما بالتقديس والمباركة. ثم جاء إسراء رسول الله ﷺ من مكة إلى القدس ليؤكد اكتمال دائرة التوحيد التي بدأها إبراهيم عليه السلام بين مكة والأرض المباركة، وقد تعرضنا لمدينة القدس عبر التاريخ والتسميات التي سميت بها، وأسوارها وسكانها ومعابدها ومكانتها بالنسبة لأهلها الكنعانيين الذين سوروها وحافظوا عليها طوال تاريخها.

أما الفصل الثاني وهو من أهم فصول الكتاب فقد تناولنا مفهوم المقدس في التوراة. وبينا أن أسفار التوراة الخمسة الأولى لا تغير أي اهتمام ببيت المقدس ولا تأتي على ذكره مطلقاً، بل تركز على الوعد الإلهي المزعوم بمنح أرض فلسطين لهؤلاء الغزاة.

وحتى حين بدأ الغزو العبراني والتسرب السرِّي إلى فلسطين لم تهتم نصوص التوراة بالقدس؛ لأنها بقيت بيد أهلها الكنعانيين محصنة قوية. وتركز التوراة على أهمية القدس منذ تولي داود عليه السلام الملك، وصارت تعتبر حصن صهيون أو قصر داود الذي يقع خارج أسوار القدس، مدينة داود والمركز الإداري والسياسي لتلك المملكة المحدودة. وحتى هذه الفترة لا نعثر في التوراة على أهمية القدس لدى أتباع دواد عليه السلام، فهي مركز سياسي ليس أكثر. وحين يتسلم سليمان عليه السلام الملك تبدأ قصة بناء الهيكل تأخذ أبعادها. فالذين دونوا التوراة في العهد البابلي أثناء سبيهم من قبل البابليين، ركزوا على أهمية هذا الهيكل وأنه صار بيتاً للرب. وعلى الرغم من ذلك فالتوراة تقول إن سليمان الذي كان قد تزوج ألف امرأة وضع لنسائه أصناماً وآلهة وثنية في هذا الهيكل يعبدنها كلٌ على طريقتها ومعتقدها. ولم يكن هذا الهيكل معبد توحيد بل كان معبداً وثنياً ليس أكثر.

ولقد أثبتت الكشوف الأثرية عدم وجود أي أثر لهذا الهيكل؛ لأنه أساساً بني من خشب الأرز، وتعرض حسب نص التوراة لعدة عمليات تدمير حتى أبيد عن الوجود في العصر الروماني، وحرثت أرضه ولم يعد أي أثر لأي بناء في المنطقة، ومع انقسام دويلة اليهود إلى قسمين أقام بعض المتهودّين معبداً في منطقة نابلس على أنقاض معبد كنعاني أطلقوا عليه معبد زربابل، وصار أهم معبد في ذلك الوقت، وهذا ما يدل على عدم وجود أي ارتباط بين قدسية القدس وبين القبائل البدوية اليهودية.

ومع السبي البابلي راح أنبياء التوراة بدءاً من إرميا ومروراً بحزقيال ودانيال وغيرهم يركزون على القدس باعتبارها المجد التاريخي التليد لهم. لكن هؤلاء الأنبياء

جميعاً هاجموا معبد الرب الـذي كـان في القـدس؛ لأنـه صـار، حسـب مـا شـاهدوه، معبد أوثان وماخور زناة ولصوص. وقـد بشـروا جميعـاً بخرابـه خرابـاً أبديـاً. وذلـك بسبب انحراف اليهود الكلي عن تعاليم رب التوراة.

لكن بدء العـهد الفارسـي وسـقوط الدولـة البابليـة جعـل اليـهود يتحركـون باتجـاه فلسطين. وقد استفادوا من الوضع السياسي الجديد، وعـاونوا الفرس في القضـاء علـى الدولة البابلية، فكافأهم ملك الفرس كورش بعد أن زوجوه اليهودية إستير، بـأن أوعـز لهم بالذهاب إلى فلسطين. وعلى الرغم من ذلك فقد ذهب بعضهم إلى فلسطين وظـل الكثيرون منهم في المنطقة لما تمتعوا به من نفوذ مالي واقتصادي في ظـل الحكـم الفارسـي. وحاول بعض من ذهب منهم إلى فلسطين أن يشـيدوا معبـداً علـى غـرار هيكلـهم الـذي جاءت على ذكـره التـوراة، لكـن سـكان الأرض الأصليـين منعوهـم، وبعـد محـاولات دامت عشرين عاماً تمكنوا من بناء معبد صغير وتحت حماية الفرس. ولم يسـتقر الوضـع الديني لهم حتى جاءت الحملات اليونانية بقيادة الإسكندر فحاولوا اسـترضاءه والتملـق له. نفضوا أيديهم من الفرس ليتعاونوا مع الحملة اليونانية الجديدة. وهكذا هـو سـبيلهم طوال تاريخهم المتنقل وغير المستقر. وعندما جاء الرومان الوثنيـون هدمـوا معبـد اليـهود الجديد وطرد أكثرهم حتى جاءت بعثة السيد المسيح فعادوا وحاربوه وحاولوا قتله، لكـن انتشار المسـيحية حتـى أوروبـا في القرن الثـالث الميـلادي أدى إلـى تدمير مـا بقـي لديـهم وشتتوا مرة أخرى. وهكذا حتى جاء الفتح الإسلامي. فلم يكن في القـدس إلـى القليـل من اليهود، فطلب أهل البلاد الأصليـون طـرد اليـهود مـن بلادهـم، وطـردوا نـهائياً مـن المنطقة طيلة ألف وثلاثمائة سنة.

وتأتي الصهيونية اليهودية لتركب موجة التوراة، وتدعي أن فلسـطين أرض بـلا شعب، حتى حان الوقت المناسب فتحالفت الصهيونية مع الغرب الصليبي منذ الحرب العالمية الأولى حتى عام 1948، حين انقض الغزاة الغربيون والمتـهودون وأعلنـوا قيـام

الكيان الصهيوني. ومع حرب حزيران 1967 تصبح القدس بأيديهم ويعلنون أنها عاصمة كيانهم الأبدية. وهذا ما سنجده في الفصل الثالث من هذا الكتاب. وتساندهم الصهيونية غير اليهودية التي عمادها البروتستانت وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وتلتقي المصالح، وتصبح القدس بنظر الصهيونيتين: اليهودية والبروتستانتية مركز التوجه ضد العرب والمسلمين، ومركز الانطلاق للانقضاض على الشعب العربي وأرضه واستعمارها من جديد، أما الفصل الرابع فقد خصصناه لدراسة مفهوم القدس والمقدس في الرؤية الإسلامية استناداً على آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وحاولنا إلقاء الضوء على سورة الإسراء وما الذي يعنيه ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى، وما الإرهاصات التي تبشر المسلمين الموحدين بالنصر على المحتلين الصهاينة، معتمدين في ذلك التفسير اللغوي والتاريخي على ضوء ما درسناه أيضاً في التفاسير وفي المراجع التاريخية الأساسية التي تتحدث عن تاريخ المنطقة العربية، وخاصة القدس، وكذلك المراجع في علم الآثار وما يقوله العلماء الآثاريون حول ذلك.

أما الفصل الخامس فقد حاولنا فيه إلقاء الضوء على بيت المقدس وأهمية المسجد الأقصى للمسلمين عبر أكثر من ألف وثلاثمائة عام، بيّنا الأهمية البالغة التي أولاها الخلفاء والولاة والقادة من المسلمين عرباً وغير عرب لمدينة القدس وقدسيتها. وما أنشيء حول المسجد الأقصى من مدارس تعد بالعشرات، ومن أماكن الاستراحة والسكن لطالبي العلم القادمين من كل أقطار العالم الإسلامي.

وأخيراً نرى أن الصراع حول القدس وفلسطين هو صراع مرير وطويل؛ لأن القدس هي مركز الصراع القديم بين قوى الشر والبغي وقوى التوحيد والخير، وكذلك ستكون مركز الصراع القادم بين القوى نفسها وفي القدس سوف يكون الصراع الدموي على أشده، لأن الله سبحانه بشر عباده الموحدين بالنصر ولو بعد

حين ، فإنه مهما طال أمد الصراع سيحسم بالنهاية لصالح أصحاب الحق الشرعيين من العرب والمسلمين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ .

صدق الله العظيم

والحمد لله رب العالمين

الدكتور حسن الباش

2003

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

شكلت القدس ومازالت تشكل في المنحى العقيدي أهم منطقة في العالم، وذلك حسب العقائد الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. وعلى مدى التاريخ سجلت هذه المنطقة حوادث وصراعات دامية ومستمرة كانت أسبابها متعددة كما هي نتائجها.

ولاشك في أن الشعوب التي غزتها أو طمعت باحتلالها كان لها أسبابها العسكرية والاقتصادية والتوسعية، وما إلى ذلك من تنافس الإمبراطوريات القديمة، وتصادمها حضارياً وعسكرياً. وقد أولى الباحثون هذا الجانب كثيراً من اهتماماتهم، فخرجوا بنتائج وأسباب وأوضحوا ما كان غامضاً من التاريخ وجغرافية التاريخ.

وقد تجمع لدى القارئ عشرات الكتب التاريخية التي تتجه في أسلوبها ومعالجتها نحو توضيح أهمية ما أطلقوا عليه الديار المقدسة في فلسطين، وعلاقتها بالشعوب التي سكنت أرضها، وبالشعوب التي تعيش ضمن هذا الحوض العربي الكبير، وبالشعوب الطارئة التي قدمت من مناطق غير عربية واستوطنت فيها.

قالت معطيات التأريخ - في غالبيتها غربية - إن فلسطين أو أرض كنعان تعرضت لغزوات كبيرة. كغزو الفلسطينيين لساحل فلسطين، اللذين يطلق عليهم سكان الجزر اليونانية، أو كغزو الآشوريين والبابليين ومن ثم الفرس والمقدونيين ثم الرومان. هذا فيما قبل ميلاد السيد المسيح. ثم تحدثت المعطيات عن غزوات الصليبيين والتتار في القرون الوسطى.

ولئن كانت غزوات الصليبيين أقرب إلينا من حيث وصول الحقائق والحوادث من أكثر من طرف مؤرخ، فإن غموضاً كبيراً يكتنف فترات ما قبل التاريخ الأمر الذي جعل الباحثين يتناقضون أحياناً ويتفقون في بعض الأحيان.

ولا شك في أن الباحثين المتأخرين أصبحوا أكثر عرضة للهوى القومي أو العقيدي أو المصلحي مما مسح بحوثهم بمسحة عدم الموضوعية أو تزييف الحقائق، واللعب بالمادة التاريخية حسب ما يمليه عليهم حسهم القومي أو الديني، أو حسب ما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية الصرفة. ولعل مسألة القدس من أكثر المسائل التي تعرضت في التاريخ لهذه الإملاءات، ولاسيما من الباحثين الأوروبيين والمستشرقين الذين دأبوا منذ القرون الوسطى على تزييف التاريخ وقلب الحقائق، يدفعهم في ذلك عداؤهم للعقيدة الإسلامية، وسيطرة الأساطير التوراتية على عقولهم ونفوسهم، ودفع شعوبهم لاستعمار هذه الأرض والسيطرة عليها.

ومن الجدير ذكره أن القارئ ما يزال تحت سيطرة المقولة الغربية، بأن البحوث الصادرة عن الغرب هي البحوث الأكاديمية الموضوعية التي لا تُجارى، وأنها هي المصادر الموثوقة التي يجب العودة إليها للحصول على المعلومة الصحيحة الحقيقية، وهذا ما أفقد الباحثين العرب وغير العرب من المنصفين ثقتهم بأنفسهم وبأبحاثهم، وكذلك الأمر بالنسبة للمثقف العربي، فقد بات وقد سيطرت عليه هذه المقولات الغربية، حتى أصبحت لدى الكثيرين منزَّلة من الأعلى، ما أدى إلى تسليم الإنسان العربي لكل ما يقوله الغرب عن الأرض الفلسطينية وعن السلام، وحسن الجوار والوعود بالجنة الأرضية.

ولعل العمل الجاد للحركة الصهيونية والإعلام الغربي أثمر ثمره في المجتمعات العربية والإسلامية، وبات العقل العربي مهيّأ للغسل الثقافي، كما هو مهيأ للغسل السياسي والاقتصادي والتاريخي.

هل أصبحت القدس أرضاً لليهود؟ وهل بات العقل العربي مقتنعاً بأن فلسطين ليست للعرب وحدهم؟ هل هذا هو الأمر الواقع؟.

هل تقف حدود الصراع عند الجانب الوطني أو القومي؟ أو أن هناك صراعاً عقيدياً بدأ ولن ينتهي؟ أو أن الصراع العقيدي بات من الشمول النظري والعملي يضم في قلبه الجانب الوطني والقومي؟.

ثمة تساؤلات كثيرة من حق أي مخلوق عاقل أن يسألها، وذلك يفرضه الإحساس الداخلي لهذا المخلوق، وكذلك الإحساس العقلي بالمستقبل، إن صحّ التعبير.

منظرو الحركة الصهيونية يرون في القدس عاصمة (إسرائيل) الأبدية، وكذلك كُلّ اليهود الذين يستمدون هذه المقولة من مستندات تاريخية وإيديولوجية خاصة بهم. واليهود مستعدون أن يشنوا الحرب تلو الحرب ولو أدى ذلك إلى تدمير المنطقة كلياً في سبيل بقاء القدس عاصمة لدولة اسمها (إسرائيل).

واقتضت المصلحة الغربية الأميركية الموافقة كلياً على هذه المقولة، يدفعهم في ذلك فكر بروتستانتي يستند على مقولة (التوراة هي الأساس) ويجب العودة إلى نصيّة الحرف التوراتي، وإحياء التراث اليهودي المتميز.

والمسلمون المتنورون الملتصقون بالقدس روحياً وجغرافياً وتاريخياً يرون أن القدس أرض عربية وإسلامية، علاقتها وطيدة بالقرآن الكريم، ولا يمكن التفريط بها ولو أدى ذلك إلى حروب تستمر الزمن كله.

إذاً كيف تحل المعادلة؟.

وفي هذا الإطار لابد إذاً من العودة إلى التاريخ. لابد إذاً من العودة إلى المستند العقيدي الذي يستند عليه كل من اليهود والمسلمين.

وإذا كان التأريخ لعب لعبته وزيّف الحقائق، فإن المستند الحقيقي ولاسيما القرآني يقف أمامنا شاهداً وموضحاً بشكل دقيق وموضوعي بعيد عن التزييف والخداع.

ونحن إذ نقف أمام التوراة تسعفنا نصوصه بشكل جيد لتوضح لنا الأمور بما لا يدع مجالاً للالتباس أو الشك، وإذ يرى المسلمون أن التوراة التي بين أيدينا اليوم هي مزوّرة ومحرفة فإن اليهود يرفضون هذه المقولة رفضاً قاطعاً، ويرون أن هذه التوراة قد كتبت بإصبع الله كما ورد في سفر الخروج.

وإذ يناطح اليهود لتثبيت رؤيتهم فنحن لن نكون على خلاف معهم. ونحن أمامنا هذا النص التوراتي نقرؤه سفراً سفراً وصفحة صفحة وسطراً سطراً، لنرى الحقائق ونرى التاريخ، ونرى كل شيء ينطق ويفصح عن نفسه.

وكذلك الأمر عندما نضع آيات القرآن الكريم بين أيدينا تحاورنا ناطقة وتفتح لنا الأفق لترينا الحقائق والتاريخ وكل شيء ينطق ويفصح عن نفسه.

وإذا كان النص القرآني وكذلك النص التوراتي قد مضى على تدوينهما أكثر من ألف سنة فإنهما ما يزالان في عقولنا وبين أيدينا. وعلى أقل تقدير فإن التوراة ظلت على حالها منذ ألف سنة إن لم نقل ظلت على حالها مع انتهاء الفترة الرومانية في فلسطين، أي حوالي 1500 عام تقريباً.

وفي هذا الإطار لابد من التوقف طويلاً عند علاقة القدس بالتوراة. متى ظهرت؟ كيف تطورت؟ وما هي سماتها الجغرافية والروحية، وحتى سماتها الرومانسية. ما هي سماتها القدسية المرتبطة بالمقدس الإلهي أو البشري؟.

وكذلك الأمر بالنسبة للعلاقة بين القرآن الكريم والقدس. كيف ظهرت وكيف فُسرت، ثم ما هو شأنها في العلاقة بين ماضيها ومستقبلها؟.

وهل تصبح القدس مركز الصراع الكوني العقيدي، كيف ولماذا وما هي القوى التي ستكون على طرفي الصراع؟.

لقد أسست الصهيونية المعاصرة نظريتها على أسس مختلطة تجمع بين المستند التوراتي والمستندات السياسية والاقتصادية. وإن كان كثير من الباحثين يرون أن قيام (إسرائيل) وتركيزها في المنطقة ما هو إلا زرع لرأس حربة إمبريالية تمثل الرأسمالية

الغربية، فإن ذلك صحيح، ولكنه ليس الهدف الوحيد أو الأساسي. إنها ليست قاعدة متقدمة للإمبريالية الأميركية فحسب بل هي في المنظور الأساسي البؤرة الأكثر تحدياً للتاريخ الإسلامي والفكرة الأكثر عداءً للعقيدة الإسلامية. وهذا العداء لا يأتي بسبب الخلاف العقيدي بين عقيدتين بل هو تناقض واسع بين منظورين سياسيين ومستقبلين مختلفين في الرؤية ومختلفين في الأسلوب ومختلفين في المنهج والسبيل.

لقد استفاد التنظير الصهيوني من معطيات التوراة دون أي اعتبار للتفسيرات التاريخية غير الصهيونية، ودون أي اعتبار لكثير من الحقائق التي تناقض تماماً تلك المقولات.

وقد استطاع التنظير الصهيوني أن يثبت مقولة أن التوراة كُتبت بيد الله، وهي كلام الله، وعلى الرغم من أن التوراة بما تضمه من أسفار وهي تسعة وثلاثون سفراً، كتبت على مدى سبعة قرون، إلا أن النظرة اليهودية، بشكل عام، ترى أن كل ما جُمع فيما يسمى العهد القديم هو ما يطلق عليه التوراة، وهو كتاب مقدس يرتبط بالله ارتباطاً وثيقاً.

وحتى يلجأ كل الباحثين إلى المصادر الأساسية في التدوين التاريخي فقد ركز منظرو الصهيونية على فكرة أن التوراة هي الكتاب المدوّن الوحيد الذي وصلنا قبل أي كتاب آخر ولا سيما أنه يتحدث عن التاريخ القديم مرتبطاً بالقدس.

وهنا يكمن إصرار اليهود على ارتباط التوراة بما يسمى الأراضي المقدسة - القدس وما حولها - وهذا الارتباط قائم أساساً على التأسيس الكهنوتي اليهودي لتعاليم التوراة، وحديثها عن مجريات التاريخ، ومعالم الجغرافيا التي استند عليها التاريخ مكانياً.

والواقع أن الحركة الصهيونية، وخاصة بعد قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، وجدت أنَّ تمثّل الجانب التوراتي في تثبيت الكيان هو الأهم بين كل الجوانب. فقيام الكيان نفسه مستنداً على مقولة الاستيطان الاستعماري أو مقولة القواعد العسكرية

المتقدمة، لم يعد يحتمل المبررات الدولية، ولم يعد مقبولاً عالمياً بعد أن تغيرت أساليب الاستعمار وتغيرت وجوهه. فجنوب إفريقيا، وعلى الرغم من حركة الاستيطان الغربية التي استمرت مئات السنين، استطاعت أخيراً أن تعيد لنفسها وجهها الإفريقي؛ لأن المستوطن الغربي لم يجد ما يبرر بقاءه تاريخياً أو تراثياً أو دينياً.

من هنا فإن المستند العقيدي لليهود المرتبط بشكل ما بالمستند التاريخي هو الذي يبقى في أسس الصراع، إلى حين يتصدى له النقيض المستند على المعطيات العقيدية.

لقد تراوحت رؤية الصراع بين العرب واليهود من الجانب الوطني، أو القومي إلى الجانب الديني العاطفي، البعيد عن الرؤية الفكرية ذات المنهجية القرآنية التي تربط بين المعطيات العقيدية والتاريخية والجغرافية، ولكثير من الأسباب غابت هذه الرؤية أو غيّبت. وهذا ما منح اليهود فرصة كبيرة لتثبيت مقولاتهم العقيدية والتاريخية المرتبطة بالقدس، والرابطة بين التوراة والقدس وفلسطين، ولاشك في أن الرؤية العقيدية الإسلامية للصراع حول القدس وفلسطين لم تظهر بشكل جلي وواضح إلا من خلال ما طرحته الأفكار الفردية لبعض المفكرين المسلمين، ثُمَّ من خلال ما طرحته بعض الحركات الإسلامية في فلسطين.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن النص التوراتي والنص القرآني أُخضِعا في كثير من الأحيان لتفسيرات وتأويلات قد لا يحتملانها. ففي النص التوراتي يستطيع المتابع لمسلسل الأسفار أن يقرأ بوضوح ما إذا وُجدت موافقات أو متناقضات أو ثغرات.

وفي ذلك ليس للتأويل مكان. أما في النص القرآني فيحاول ـ المحاولات المستمرة لا تتوقف ـ أصحاب الرؤية الإسلامية إيجاد روابط نصيّة من القرآن الكريم تدعم مقولات الصراع والإيمان المطلق بانتهاء هذا الصراع لصالح الطرف الإسلامي.

ويستمر الاجتهاد الإسلامي في تفسير النص القرآني، الذي يتجاوز أحياناً ما قدمه المفسرون المسلمون على مر القرون، وذلك على اعتبار أن هذا النص مفتوح وليس مغلقاً، ومن حق المسلمين أن يجتهدوا في كثير من قضاياه التي تحتمل التفسير والتأويل.

وهذا ليس معناه أن النص القرآني المكشوف والمتعلق بالقدس وفلسطين يبتعد أو يوغل في الغرابة، بحيث يجعل الباحث في مأزق التفسير والتأويل، ليفتش عما يدعم وجهة نظره، لكن النص القرآني في صورته الأساسية كما جاءت في كتاب الله الكريم تمنح القارئ أو الباحث اطمئناناً واضحاً لمعرفة الاتجاه المبدئي في الصراع بين الرؤية الإسلامية والرؤية اليهودية. ولكن استمرار الخلاف في التفسير والتأويل والاسقاطات بين المسلمين أنفسهم، دفعهم أكثر وأكثر باتجاه إيجاد هوامش إضافية تفسيرية تسند المقولة الأساسية وتدعّم موقفها. وقد نجد أن هذا الاتجاه أو ذاك حمّل النص القرآني أكثر مما يحتمل، أو أنهم أباحوا لأنفسهم رسم الصورة الكلية للصراع من خلال تفسير المفردات والتركيبات القرآنية تفسيراً يخدم الهدف الأساسي لرؤية الصراع.

وعلى مدى الخمسين عاماً الماضية شهدت فلسطين جولات من الصراع كان الطرف اليهودي فيها أو في غالبيتها المنتصر والأقوى.

ولاشك في أن أدوات الانتصار والخسارة كانت في المنظور المادي وفي الميزان البشري تشير دوماً إلى تفوق القدرة اليهودية على القدرة العربية مجتمعة. وقد اعتبرت أسباب الصراع أسباباً جغرافية يحكمها المنظور القومي حيناً والمنظور الوطني حيناً آخر، والمدقق في دوافع الصراع العربي اليهودي يجد اختلالاً واضحاً في الرؤية بين الطرفين؛ فالجانب العربي غيّب الرؤية القرآنية واعتبرها أمراً غير واقعي لا يتماشى مع معطيات الصراع المادي العسكري وغيره. وفي هذا المنظار لم تشكل القدس أية أهمية خاصة أو استثنائية، بل اعتبرت أرضاً احتل جزء منها، وهي تراب وحدود ووجود سكاني عربي. أرض عربية احتلت وتشبث المحتل بها، وطرد أهلها وسكانها، وهدم بعضاً من معالمها، وإذا ما زيد في هذه الرؤية أضاف أصحاب الرؤية القومية أو الوطنية مقولة أن القدس ترتبط بتراثنا الديني فهي مهد المسيح ومسرى محمد ﷺ.

أما الجانب اليهودي، فإضافة لكل مقولاته المادية التي طرحها مبررات للاحتلال فإنه أولى الجانب العقيدي الأهمية الأكبر. فالقدس أرض وعد الله بها شعب يهود ولم تعرف القدس في التاريخ القديم عقيدة أخرى سوى العقيدة اليهودية. وهي أول أرض أقام فيها أبرز ملوك بني (إسرائيل) وأنبيائهم، ولذلك فإن معطيات الصراع مهما بلغ من عنف، لا يمكن إغفالها أو التنازل عنها، لأنها أساساً تستند على علاقة الله بالأرض وعلاقة الله بشعب إسرائيل. وبهذا المعنى فإن الارتباط العضوي الذي صنعه منظرو الصهيونية بين اليهود والقدس يستند على مُسلَّمة إلهية قدرية، ينفذها على الأرض الشعب المختار بأمر إلهي لا مردّ له ولا انحياز عن خطه.

ولعل هذا التركيز اليهودي على هذه المقولة هو الذي منح اليهود قيمة التشبث بأرض القدس. ويصبح لدى اليهودي اقتناع راسخ أن لا قيمة لكيان إسرائيل بدون القدس ولا قيمة للقدس بدون الشعب اليهودي.

وبهذا استطاع بناة الكيان الصهيوني خلق جيل من اليهود الذين لا تفارقهم الرؤية العقيدية للقدس. وبهذا استطاعوا أن يرجحوا كفة الميزان لصالحهم، إن كان ذلك على المستوى النظري التنظيري أو الإعلامي والتربوي الداخلي والخارجي، وعلى مستوى الثقافة الخاصة التي فرضوها حتى في أوساط المجتمعات الغربية جميعها.

والجانب اليهودي يرى من خلال هذه الرؤية أن لليهود حقاً إنسانياً لتحقيق حلمٍ ظل ملتصقاً بهم على مدى ألفي عام، وأن المطلب ببقاء الأرض بين أيديهم هو مطلب شرعي ونبيل.

ولاشك في أن هذا الجانب المستند على المقولات التوراتية يصبح في حالة من الحالات حساً رومانسياً يتلبسه الحب والوجدان، تماماً مثلما يتلبسه الجانب التاريخي والعقيدي. ولاشك في أن هذه الحالة اليهودية تستدعي السؤال عن مدى وجود هذا الحس في الطرف الآخر من الصراع وهو الجانب الإسلامي.

صحيح أن هناك مستنداً قرآنياً دينياً ولكن أيضاً في تجليات الوجدان الإسلامي، تشكل القدس مكاناً جغرافياً رومانسياً، فالجانب العقيدي نفسه منح الجانب الإسلامي ارتباطاً روحياً وجدانياً تختلط معالمه بمعالم الجانب القرآني العقيدي.

ومن الواقعي في هذه الحال أن يصبح الصراع المحتدم الذي سيكبر احتدامه مستقبلاً مأسوراً كلياً لعملية فناء طرف من طرفي الصراع، لأنه لا يمكن أن تحلّ المسائل الصراعية بهذه السهولة؛ لكون المتصارعين يتمسكان بمشروعية الحق المستند على أسباب هي نفسها لدى كل طرف، وهذا ما يحتم الصراع حتى فناء أحدهما، وليس هناك بدائل أو غيرها، لأن المسألة ليست فقط مسألة تراب جغرافي مجرد. إنها مسألة المقدس الإلهي العقيدي، ومسألة المقدس النفسي الوجداني، ومسألة المقدس التاريخي المتواصل والمترسخ في العقل والوعي.

إن خمسة آلاف عام من الوجود الفلسطيني في الأرض العربية الفلسطينية، وكذلك إن أربعة آلاف عام من التجليات التوحيدية في أرض فلسطين، وكذلك إن ألفاً وأربعمائة عام من إرهاصات النص القرآني بشأن القدس، إن هذا كله يختزن في العقل العربي الإسلامي اختزاناً ليس قابلاً للمسح أو البتر أو التغيير.

وما ينطبق على الجانب الإسلامي ينطبق على الجانب اليهودي. فهناك الوجود اليهودي على أرض فلسطين، وهناك مقولات النص التوراتي، وهناك التلبّس للعقل اليهودي من قبل الذكريات الممتدة مئات السنين، التي لا تنفصل عن هذا الحلم الذي يسمى القدس وأرض الميعاد.

إن أية حلول لقضية القدس لا تخرج عن دائرة الإصرار اليهودي ببقائها عاصمة أبدية لدولة (إسرائيل). وهذا ما سينفي قطعياً أبدياً مجرد تفكير العرب بتنازل اليهود عن القدس، مهما تم من اتفاقات، ومهما ابتدعوا من أساليب الترويض العقلي أو النفسي. وما من شك في أن الطرف العربي، خاصة ذلك الذي وَقّع الاتفاقات مع الكيان الصهيوني على الصلح والتطبيع، لن يكون جدياً بالمطالبة بعودة القدس إلى ما كانت عليه قبل عام 1967؛ لأن ذلك لا يعنيه على المستوى العقيدي إلا بقدر هامشي

ضعيف. ولعله تحت مظلة العناد الصهيوني والتوجه الغربي الأميركي الضاغط، سيتنازل حتى عن الحديث النظري بشأن القدس. فهو محكوم لاتفاقات صلح، تقيده أو يقيّد نفسه بها، ما دام أن الاتفاقات بين هذا الطرف والطرف الصهيوني أملتها الإرادة الصهيونية ووضعت بنودها وشروطها، وطبيعي أن توقيع هذه الاتفاقات استثنى موضوع القدس، أو أُجل البحث فيها لأجلٍ غير مسمى، وفي كل الحالات فإن توقيع هذه الاتفاقات يعني التنازل عن القدس تنازلاً كلياً دون أي اعتبار لمعطيات النص القرآني، أو لمعطيات التاريخ والجغرافيا. وواقع الأمر أن التنازل عن القدس عملياً قد تم منذ زمن بعيد، وذلك بسبب تهميش البعد العقيدي للصراع إن لم نقل نفيه. والجانب الصهيوني يدرك هذه المسألة تماماً، ويعرف أن تغييب الجانب العقيدي الإسلامي المرتبط بالقدس، هو الحل الأمثل لديمومة بقاء الكيان في القدس بقاءً لا تحده أية حدود زمنية.

لعل أكثر ما يقلق الكيان الصهيوني الآن هو بروز التيارات الإسلامية الجهادية التي ترى أن الصراع على القدس وفلسطين هو صراع عقيدي بالدرجة الأولى، ولهذا يحاول الصهاينة على كل المستويات المحلية والعربية والدولية حشد القوى البشرية والإعلامية والثقافية وغيرها؛ للقضاء على التوجه الإسلامي الجهادي المستند في صراعه على البعد القرآني العقيدي.

وإذا كان أصحاب هذه الرؤية قد تعرضوا لضربات ميدانية على أيدي قوات الكيان الصهيوني، والأنظمة التي وقعت اتفاقات الصلح معه، وسلطة الحكم الذاتي الفلسطيني، فإنهم على المستوى التنظيري استطاعوا الانتشار فكرياً، وأصبح الإيمان بالحل العقيدي للصراع هو السائد لديهم. وبسبب ظروف كثيرة أدت كلها إلى نكسات على المستوى القومي العربي والوطني، فإن التوجه نحو الحل العقيدي للصراع يصبح الملاذ الأهم لكلّ من تضرروا من أبناء الفلسطينيين والعرب ولاسيما الذين استثنت اتفاقات الصلح عودتهم إلى أراضيهم، ووضعتها في زاوية هامشية أطلق عليها مشكلة اللاجئين. إن بوادر الصراع العقيدي ظهرت منذ أكثر من عشر سنوات، وهي مهيّأة للامتداد والانتشار والصدام، تمهيداً لاستنهاض المسلمين وفصل المعركة النهائية.

الفصل الأول
القدس في التاريخ القديم

القدس جزء من أرض فلسطين. ودراسة أرض فلسطين كلّها استندت ومازالت تستند على منهجين متباينين في الأهداف والغايات وفي الوسائل والأدوات.

المنهج الأول يقوم أساساً على معطيات علم الآثار بمعزل عن مدونات التوراة. وفي هذا المنهج يستند الباحثون على مكتشفات تل العمارنة بمصر واللوحات البابلية والآشورية في العراق، والآثار والمكتشفات في رأس شمرا وإيبلا في سوريا وبعض المكتشفات الأثرية في فلسطين.

ويقوم المنهج الثاني على إخضاع كل المكتشفات لمقولات التوراة. وهذا المنهج اتبعه غالبية المستشرقين والجمعيات الأوروبية المتخصصة بشؤون الأراضي المقدسة (فلسطين) ومما يُستدل، أن المنهج الاستشراقي سبق المنهج الآخر بسنوات طويلة، وهذا ما جعل الباحثين كافة يقعون تحت تأثيره وترديد ما يقوله. إلى أن بدأت المكتشفات الأثرية تعطي ثمارها وتدحض المزاعم الاستشراقية. وكان لمكتشفات رأس شمرا - أوغاريت - في شمال سورية الأثر الكبير في إلقاء الضوء على الشعب العربي الكنعاني، عاداته ومعتقداته وطبيعة حكمه، وما إلى ذلك من مكونات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لديه.

وأضافت مكتشفات تل العمارنة في مصر أضواءً جديدة على العلاقة بين فلسطين والفراعنة في مصر.

وقد اكتشفت أيضاً ألواح في بابل ونينوى وغيرها من مناطق ما بين النهرين وأعالي الفرات، أظهرت العلاقات بين الإمبراطوريات المتعاقبة هناك مع فلسطين وشعبها.

ولما كانت فلسطين تقع وسطاً أو طريقاً بين حضارة الرافدين وسوريا، وبين حضارة وادي النيل، كان لابد لهذه المنطقة من التأثير المباشر في الصراع العسكري والتوسعي والنفوذي الدائر بين الإمبراطوريات القديمة.

وكون فلسطين تقع على ساحل المتوسط المفتوح أمام الشعوب الأوروبية القديمة كاليونان والرومان كان لابد من تعرضها أيضاً للتأثر والتأثير.

وبمعنى آخر فالناظر إلى مكان فلسطين جغرافياً يرى أنها تصبح مركز التقاء المتصادمين من أبناء الشعوب القديمة، وهكذا كان شأنها فعلاً حسب ما منحتنا إياه المدونات الأثرية في كثير من مناطق الشرق القديم. وهذا أيضاً ما يدلل عليه تاريخ الصراع المتأخر، أي بعد الميلاد وصولاً إلى العصر الحديث.

وقد دلت معطيات التاريخ وعلم الآثار أن الكنعانيين العرب اعتمدوا في توسعهم العمراني ونظامهم الاجتماعي السكني على بناء المدن الممالك. فكل مدينة كانت تشكل مملكة صغيرة. وفي بعض الحالات يقوم تحالف بين هذه الممالك برئاسة أحد الملوك، وهذا ما أشارت إليه مدونات أوغاريت التي تحدثت عن تحالف للممالك الكنعانية حوالي 1200 قبل الميلاد.

وقد انتشرت المدن الكنعانية الكبيرة والصغيرة في أنحاء فلسطين، ولاسيما وسطها وشمالها، ويرى بعض الباحثين أن المدن الكنعانية كانت عبارة عن مستوطنات منقسمة إلى دويلات صغيرة محصنة على غرار دويلات المدن في جنوب العراق.

وكانت هذه الدويلات في نزاع وحروب فيما بينها في الغالب، فاضطر بعضها إلى التمركز في سفوح جبال لبنان للاحتماء بها. وهكذا نشأت أهم المدن الكنعانية في سفوح الجبال على السواحل. وقد أطلق اليونانيون على سكان الجبال من الكنعانيين الفينيقيين، وكانوا يمارسون التجارة والصناعة في حين أن المدن الداخلية

كانت تحترف الزراعة، وخاصة زراعة الأشجار في الغالب. وكان الفينيقيون يتسمّون بالكنعانيين، وظلوا على هذه التسمية حتى عهد الرومان[1].

وجاء في مخطوطات تل العمارنة أن الأمير المصري الفرعوني سنوحي زار أرض كنعان عام 2000 ق.م، ووصف أرضها بقوله: «فيها العنب والتين وفيها الخمرة الغزيرة كالماء، وفيها العسل المتدفق والزيتون الكثيف، وعلى أشجارها تنبت كل أنواع الثمار»[2].

وإشارة الأمير (سنوحي) تدل على أن فلسطين أرض مزدهرة بالزراعة وتدل على أن سكانها كانوا مزارعين ومربين للماشية وتجاراً. فالتنقيبات الأثرية التي اكتشفت في هذه الأرض تدل على وجود أسلحة من البرونز والنحاس المجلوب من بلاد الأناضول.

وقد وردت أسماء كثير من المدن الكنعانية القديمة في كتابات تل العمارنة والكتابات الآشورية.

ومن هذه المدن عكّو ـ عكا الحالية. وأكزيب. الزيب الحالية. وقانة وصور وصرفند وصيدون (صيدا).

وقد وردت أسماء فلسطينية قديمة في مكتشفات تل العمارنة المصرية...

فمدينة نابلس الحالية حرف اسمها على اسم يوناني (نيابوليس) الذي يعني المدينة الجديدة. ويُذكر أن الكنعانيين اختاروها عاصمة لهم في وقت من الأوقات؛ بسبب وقوعها في وسط فلسطين، وكان سكانها يتألفون من الحويّين وهم قبيلة من القبائل العربية الكنعانية، وقد أطلق عليها اسم شكيم[3].

أما عسقلان فهي أهم مدينة بناها الفلسطينيون القدماء، وقد حصنوها أمام غزوات اليهود عشرات السنين. وتقول بعض المصادر المقربة من التوراة إنها وقعت

---

(1) Universal. Encyclopedia. Vol. 11, p651 نقلاً عن كتاب العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ص19.

(2) روجيه غارودي. فلسطين أرض الرسالات السماوية، ص41.

(3) عبد الحكيم ذا النون. تاريخ فلسطين القديم، ص42.

بعد ثلاثمائة سنة من إنشائها في يد النبي داود عليه السلام. وتقول بعض الدراسات استناداً على ما جاء في التوراة أن داود هاجمها بأسلوب الخداع والحيلة واستولى عليها، لكن الفلسطينيين أعادوها وحرروها مرة أخرى.

وإلى جانب عسقلان أسس الفلسطينيون أربع مدن كبيرة وهي غزة وجت وأسدود وعقرون، وقد كانت كلها على الساحل عدا مدينة (جت) فقد كانت داخلية قياساً بالمدن الساحلية.

وقد انتشرت المدن والقرى الزراعية الصغيرة في كل أنحاء فلسطين. وعندما كان يداهمها الغزاة كان السكان يلجأون إلى المدن المسوّرة والحصون حيث يصعب على الغزاة اقتحامها والفتك بسكانها.

ومدينة (جازر) يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف عام وتعني - نصيب - وقد عجز الغزاة العبرانيون عن احتلالها بسبب قوة تحصينها ودفاع أهلها الكنعانيين عنها.

جت: وتعني معصرة، وتقع في الداخل، وقد سكنها العناقيون، ويُقال إن جوليات الفلسطيني الجبار قد ولد فيها. وكانت حصناً من حصون الفلسطينيين، وموقعها الحالي هو تل يدعى عراق المنشية على بعد 10 كم غرب بيت جبرين، وكان ملكها يدعى أخيش وهو ابن (معوك) الذي حكمها قبله. والتوراة تأتي على ذكرها مراراً وتقول إن داود هرب إليها مرتين، ففي المرة الأولى تظاهر داود بالجنون لخوفه على نفسه من القتل، وفي المرة الثانية لجأ داود إلى أخيش فرحب به بسبب العداوة بينه وبين شاؤول ملك العبرانيين. وتقول مصادر التوراة إنه لما اجتمع الفلسطينيون للحرب ضد شاؤول أراد أخيش أن يصطحب معه داود للحرب ضد شاؤول لكن رؤساء الفلسطينيين عارضوا ذلك، لكون داود ينتمي إلى الإسرائيليين ويخافون من غدره.

غزة: وهي أبعد مدينة فلسطينية إلى الجنوب وواحدة من أقدم عشر مدن في العالم. سكنها الكنعانيون بعد أن بنوها. وكان الإسكندر المقدوني قد نكّل بأهلها، لأنهم رفضوا الاستسلام إلا بعد حصار طويل، وقد هدم أسوارها.

يافا: وهو اسم كنعاني معناه ـ جمال ـ وهي مدينة قديمة تقع على المتوسط وعلى بعد 35 ميلاً إلى الغرب الشمالي من القدس، وتقع على رأس عُلوّه 116 قدماً. يشرف من قمته على منظر بهيج من شاطيء البحر. وتعد يافا من أقدم المدن في العالم. وقد احتلها تحوتمس الثالث فرعون مصر، وذكرت في لوحات تل العمارنة، وكانت مركزاً إدارياً محلياً من عام 1550 إلى 1250 ق. م ولم تخضع المدينة للغزو العبراني حتى جاء داود فاحتلها حسب قول التوراة.

أريحا: وفي الكنعانية يريحو وتعني مدينة القمر. وهي من أقدم المدن في العالم باقية إلى هذا الوقت. ومن المعلوم أن أحد آلهة الكنعانيين يدعى ياريح أو ياريخ وهو إله القمر.

شوتم: وهي مدينة كنعانية تقع مقابل جبل جلبوع وهي قرية سولم الحالية.

صفاة: ومعنى صفاة (برج حارس). وهي مدينة كنعانية تقع في جنوب فلسطين عند حدود آدوم.

عكا: وفي الكنعانية عكو. ومعناها رمل ساخن وهي إحدى أقدم مدن الكنعانيين، وقد اتخذوها قاعدة عسكرية لهم واستفادوا من خليجها.

عمورة: ومعناها غرق. وهي بلدة كنعانية تقع في غور الأردن.

عناثوث: وهي جمع عناث وهي مدينة كنعانية على بعد ميلين ونصف من القدس واسمها الآن عناتا.

قرية أربع: تعني كنعاني اسم مدينة أربع واسمها المشهور حبرون. وسميت كذلك لأنها تألفت من أربعة أحياء. وقد استخدم الصهاينة الاسم نفسه ـ كريات أربع.

قرية سنة: ومعناها مدينة النخل وهي مدينة كنعانية قديمة.

بعاريم: ومعناها مدينة الغابات وهي مدينة كنعانية احتلها الجبعونيون.

قطرون: وهي مدينة كنعانية بقي فيها الكنعانيون على الرغم من الغزو العبراني، وهي الآن قرية تل الغار، وتقع جنوب حيفا بسبعة أميال.

لُوَز: وهي مدينة كنعانية معناها لُوز ثم دعيت بعد ذلك بيت إيل وهي قرب القدس.

مادون: وهي مدينة كنعانية ومعناها خصومة وكان يحكمها ملك، ويرجح أنها قرية مادين.

مجدو أو مجدون: وهي مدينة كنعانية يدعى ملكها سيسرا، وهذا الملك ذكر في التوراة ومكانها اليوم هو تل المتسلم. وأثبتت الكشوفات أن آثارها تعود إلى أربعة آلاف عام ق. م، وتدل نقوش المدينة على الثقافة العالية والتحضر الراقي اللذين تميز بهما الكنعانيون.

بعشترة: مدينة كنعانية تعني بيت عشتاروت وهي مدينة في منطقة بيسان.

بيت عناة: وهي مدينة كنعانية تعني بيت الإلهة عناة، وهي اليوم قرية تبعد ثلاثة عشر ميلاً شرق عكا.

عنوت: ومعناها بيت الإلهة عناة، وهي اليوم تبعد حوالي اثني عشر ميلاً شرق الجليل واسمها اليوم بيت عانون وهي غير بيت عناة.

جبعون: وكانت المدينة الرئيسة للحوّيين من أهل كنعان.

جرار: وهي مدينة فلسطينية في الجنوب تقع على بعد ثمانية أميال جنوب شرق غزة، سكانها الفلسطينيون، وأتى إليها النبي إبراهيم مع ابنه إسحاق بسبب الجوع، وكان ملكها أبيمالك حسب ما تقوله التوراة. وموقعها الآن على بعد 19 ميلاً إلى الجنوب الغربي من بيت جبرين.

حاصور: وهي عاصمة مملكة الكنعانيين في شمال فلسطين. وكان يحكمها ملك يدعى يابين ثم حكمها ملك آخر بالاسم نفسه، وربما كانت اليوم تل القدح على بعد أربعة أميال غرب جسر بنات يعقوب، وقد اكتشفت بقايا المدينة من العصور الكنعانية.

حبرون: وسبق ان تحدثنا عنها وهي مدينة الخليل، كان أحد ملوكها الكنعانيين يدعى هدهان، وقد تحالف مع أربعة ملوك ومع أدوني صادق ضد الغزاة الذين كان يقودهم يوشع بن نون وذلك حسب نص التوراة.

دُور: وهي مدينة كنعانية ومعناها مسكن، وهي على ساحل المتوسط تبعد مسافة ثمانية أميال شمال بلدة الطنطورة الساحلية قرب حيفا.

أسدود: ومعناها القوة أو الشدة أو الحصن. وهي إحدى مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية. وكان الإله الرئيس فيها هو (داجون) إله الحبوب والمحاصيل. ظل العناقيون فيها حتى بعد الغزو العبراني لجنوب فلسطين. وقد انتصر الفلسطينيون على الغزاة في إحدى المعارك وحملوا معهم ما يسمى تابوت العهد أو تابوت الرب إلى أسدود ووضعوه في هيكل معبد داجون. وتقع المدينة في منتصف الطريق بين غزة ويافا.

القدس أو أورشاليم:

إن أول اسم أطلق على القدس هو يبوس نسبة إلى اليبوسيين الكنعانيين الذين نشأوا في الأساس في قلب الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع مَن نزح حوالي 3000 - 2500 ق. م، ويقال إن الملك سالم اليبوسي بناها وأقام تحصيناتها. وقد كان أول من اختطها من ملوك اليبوسيين (ملكي صادق) الذي عرف عنه أنه كان محباً للسلام حتى أُطلق عليه ملك السلام ومن هنا جاء اسم أور سالم. وعرفت المدينة باسمها الكنعاني أور سالم. ويشير الأستاذ أولمستر الخبير بتاريخ فلسطين القديم أن الكنعانيين وضعوا أول شريعة في شكيم (نابلس) ثم نقلت إلى القدس ونقل إليها تشريعها.

وقد ورد اسم أورشليم (بأور سالم) في الكتابات الكنعانية التي تعرف برسائل تل العمارنة. وهذه ترجع إلى القرن الخامس عشر ق. م أي ما قبل ظهور مدونات التوراة بأكثر من ألف عام. كما ورد اسم (يابيثي) في الكتابات المصرية الهيروغليفية. وهو تحريف لاسم يبوس، الاسم الذي كانت تعرف به أورشليم نسبة إلى سكانها اليبوسيين قبل عهد النبي موسى عليه السلام بعدة قرون، فتسمية أورشاليم التي

يحاول الصهاينة اليوم عدّها من الأسماء العبرية (بمعنى اليهودية) هي في الحقيقة كلمة كنعانية آرامية أصيلة، وردت بهذا الاسم في النصوص الكنعانية التي وجدت في مصر قبل ظهور النبي موسى عليه السلام، ثم بعد أن ظهر اليهود وتكونت لديهم اللهجة العبرية المقتبسة من الآرامية صار اليهود يسمونها بالعبرية (يروشلايم)، لذلك يرى بعض الباحثين أن الدعوى بأن اسم أورشليم عبري الأصل (بمعنى يهودي) دعوى باطلة لا تستند إلى مصدر تاريخي، بدليل ورود الكلمة في الكتابات الكنعانية قبل أن تتكون اللهجة العبرية والمدونات العبرية بأكثر من ألف عام كما تقدم، وقد ذكرها العرب في أشعارهم بهذه التسمية فقالوا (أروشاليم).

وقد جاء علماء الآثار ليثبتوا أن يبوس ـ القدس قد بنيت قبل عام 1800 ق. م.

تقول كاثلين م. كينون عالمة الآثار البريطانية (وقد أقام اليبوسيون على المنحدر الشرقي عدة مصاطب مدعّمة بأسس حجرية ضخمة. وهذه المصاطب تلفت النظر وتشكل عملية بناء ضخمة، ولكنها لم تكن مستقرة، لأن أي انهيار في الجدار الداعم يؤدي إلى انهيار البناء الذي خلفه)[1].

وفي نحو 2000 ق. م بنى أهلها اليبوسيون نفقاً تحت الأرض في الصخر يصل بين المدينة وعين أم الدرج، ليسهل وصول السقاة إليها، ويفيدهم أيضاً في أوقات الحصار، والنفق المذكور أقدم ذكر عثر عليه حول الحصول على المياه من العيون والآبار المجاورة لمدينة القدس.

ومنازل مدينة السلام بنيت من الحجارة وكانت كغيرها من منازل الكنعانيين صغيرة، تتألف من طبقة واحدة، لها في وسطها باحة وحولها الغرف، والمدخل في صدر الباحة وأحياناً يكون في وسطها بئر تتجمع فيه مياه الأمطار.

وكان السكان يأخذون حجارة البناء من الأحجار الكلسية البيضاء لليونتها وسهولة نحتها ولوجود هذه الحجارة في أعماق الصخور، تمكن اليبوسيون من حفر

(1) د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص: ب ب.

الأحواض الكثيرة والأنفاق مما كان له شأن في تاريخ بلدهم، وقدرت مساحة البلدة بين 16 ـ 18 فداناً، وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن أشهر ملك حكم يبوس أو مدينة السلام هو المدعو ملكي صادق. ويقال إنه وجماعته كانوا من المعتقدين بالتوحيد، وقد قال في ذلك المؤرخ ابن العبري صاحب كتاب الأنس الجليل بتاريخ بيت المقدس والخليل: (وأما مدينة القدس فكانت أرضها في ابتداء الزمان صحراء بين أودية وجبال وهي خالية لا أبنية فيها ولا عمران، ومما حكي في تواريخ الأمم السالفة أن ملكي صادق نزل بأرض بيت المقدس وقطن بكهف في جبالها يتعبد فيه، واشتهر أمره حتى بلغ ملوك الأرض الذين هم بالقرب من أرض بيت المقدس بالشام وسدوم وغيرهما، وعدتهم اثنا عشر ملكاً فحضروا إليه، فلما رأوه وسمعوا كلامه اعتقدوه وأحبوه حباً شديداً ودفعوا له مالاً ليعمر به مدينة القدس، فاختطها وعمرها، وسميت بيت السلام، فلما انتهت عمارتها اتفق الملوك كلهم أن يكون ملكي صادق ملكاً عليهم، وكنوه بأبي الملوك فكانوا تحت طاعته واستمر حتى مات بها).

وقد أشار مؤلفو قاموس الكتاب المقدس 2/ 922: (والظاهر أن ملكي صادق كان محافظاً على سنة الله بين شعب وثني، ولذلك كان له الأسبقية على إبراهيم وعلى الكهنة الذين تسلسلوا منه).

وقد أشار كتاب التوراة إلى أن إبراهيم عليه السلام التقى ملكي صادق فجاء في سفر التكوين الإصحاح 14 ـ الآية 18 (وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه. وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض).

ويقال: اتخذ ملكي صادق لخليلِ الله إبراهيمَ بقعةَ الحرم الشريف معبداً له. فكان يقدم ذبائحه على موضع الصخرة المشرفة. وبذلك يكون العرب الكنعانيون أقدم من قدس وتعبد في هذه البقعة، صلوا فيها ودعوا ربهم عندها وذلك قبل أن يقوم سليمان بن داود ببناء ما يسمى هيكل الرب بما يقرب من ألف سنة.

وقد بنيت مدينة القدس القديمة على تلاك الضهور المطلة على قرية سلوان إلى الجنوب الشرقي من الحرم الشريف، محاطة بثلاثة أودية حيث يسهل الدفاع عنها. وفي أسفل الضهور تقع عين أم الدرج النبع الوحيد الذي يقع في القدس القديمة، ويرى العلماء أن البشر سكنوا هذه المدينة القديمة منذ العصر الحجري القديم، العصر الذي ينتهي في نحو عام 1200ق. م.

والوديان الثلاثة التي تحيط بالمدينة من جهاتها الشرقية والغربية والجنوبية هي:

1 - وادي جهنم: اسمه القديم قدرون. كلمة ربما كان معناها أسود وأما العرب فيسمونه وادي سلوان ووادي ستي مريم. ووادي النار. يبتدىء وادي جهنم على بعد 2500 متر إلى الشمال الغربي من القدس بالقرب من الشيخ جراح، ويسير إلى الجنوب الشرقي إلى أن يصل إلى زاوية السور الشمالية الشرقية. عرضه نحو 200 ياردة، ثم ينحدر بين جبل الطور والمدينة، ويستمر في انحداره إلى مار سابا حيث يسمى وادي الراهب، وأخيراً ينتهي في البحر الميت، وهناك يعرف بوادي النار، وتجري المياه في وادي سلوان هذا في الشتاء والربيع. ولكنه يجف في الصيف ويتصل عند طرفه الجنوبي بوادي الربابة.

وهناك وادي الربابة: ووادي الوادي - أو الواد. وهذه الأودية الثلاثة التي تحيط بالمدينة القديمة من جهاتها الثلاث، كانت تؤلف خطوطاً دفاعية طبيعية تجعل اقتحامها أمراً صعباً جداً في الأيام القديمة. أما من الشمال فكانت مكشوفة الأمر الذي جعل الغزاة على مر العصور يأتونها من الشمال.

وقد أجرى علماء الآثار حفريات خارج السور الجنوبي الشرقي من الحرم الشريف للبحث عن قلعة اليبوسيين. وكانوا على التوالي (وارن) عام 1860 و(بلس وديكي) عام 1890، وبعد ذلك بثلاثين عاماً قام (مكلستر) بتنقيبات ثالثة. وواضح من هذه الحفريات أن السفح الذي ينحدر إلى وادي سلوان حتى عين أم الدرج كان

موقعاً للسور الروماني الذي قام على أسس يونانية لا تتجاوز القرن الثالث ق. م كما عثر على الآبار والصهاريج التي تعود إلى العهد الروماني سنة 135م.

وفي عام 1960 بدأت الآنسة كاثلين كينون حفرياتها في الموقع الذي سبق أن أجرى الحفريات فيها ملكستر ومن سبقه من علماء. توسعت كينون في الحفر نحو الشمال إلى أن وصلت إلى سور يمكن إرجاعه إلى سنة 1800 ق. م وهو السور اليبوسي الذي وقف في وجه الغزو اليهودي فيما بعد.

وقد حرفت الأمم القديمة اسم مدينة السلام في نقوشهم التاريخية؛ فذكرها الأكاديون أورسالم. وفي نقش مصري قديم يرجع إلى القرن التاسع عشر ق. م ورد اسمها فيه أورشاميم. وذكرها اليونان والرومان هيروساليم، والغرب بـ جيروزاليم.

وقد تحدثت بعض المكتشفات الأثرية في مصر عن أرض كنعان وعن علاقات متعددة بين المصريين القدماء وسكان فلسطين. وأقدم ما وصلنا من أخبار الفراعنة عن هذه العلاقات تلك الكتابة التي عثر عليها منذ عهد الفرعون (سنيفرو) أول ملوك السلالة الرابعة حوالي 2700 ق. م التي تشير إلى شحن أربعين سفينة من خشب الأرز اللبناني إلى مصر.

وأقدم ذكر لحملات المصريين على بلاد كنعان ورد في كتابة عثر عليها من عهد الفرعون (بيبي) الأول ثالث ملوك السلالة السادسة حوالي 2350 ق. م، وهي منقوشة على قبر قائد إحدى هذه الحملات، وهو يدعى (أوني) فدوّن هذا القائد انتصاراته على جماعات البدو التي كانت تهاجم الكنعانيين. وهناك ما يدل على أن مصر تمكنت من بسط نفوذها على جميع بلاد كنعان في القرن التاسع عشر ق. م.

وجاء في الكتابات المصرية القديمة أيضاً أن الملك سيزوستريس الثالث صعد على أرض كنعان في حوالي 1850 ق. م واستولى على المدينة المسماة (سكمن) وقد رجح بعضهم أن المقصود بها مدينة شكيم (نابلس) حالياً.

ومن أهم ما تركه فراعنة مصر القدماء من الأوصاف لبلاد كنعان أيضاً كتابات الفاتح المصري الشهير تحوتمس الثالث (1503 ـ 1449) ق. م وذلك في أعقاب طرد المصريين الهكسوس من بلادهم. فورد في مدوناته أنه قام بسبع عشرة حملة على سورية وفلسطين، فامتدت تخوم فتوحاته في الشرق إلى جبال الأمانوس شمالاً. ومما ورد في كتاباته جدول بأسماء 118 مدينة وقرية يعتقد أنها المدن التي فتحها في بلاد كنعان.

ويرى بعض الباحثين أن الكنعانيين والأموريين يشكلون محوراً رئيسياً في المنطقة. ويرون أن تاريخ استقرار كنعان هو عام 2500 ق. م على الساحل، بينما استقر الأموريون في الداخل، وبدأ وجودهم يعرقل سير القوافل المصرية، ما أشعل الحرب بين مصر وفلسطين مدة طويلة، وحسمت في عهد سرجون الأكادي بتحرير الفلسطينيين. ومع ضعف الدولة الأكادية عادت مصر لتسيطر عليها واشتغلت الثورات فيها على عهد نارام سن.

ويرون أن الكنعانيين والأموريين ظلوا يتصارعون مع الوجود المصري، وكانوا يقفون دوماً مع الدولة القوية في الشرق ضد الأسر الفرعونية التي كانت تمد يدها على فلسطين.

وترى بعض الدراسات التاريخية أن القدس خضعت للنفوذ المصري في عهد تحوتمس، وقد ترك فيها حامية من الخيالة والعجلات الحربية أقامت في المنطقة الواقعة شرقي المسجد الأقصى التي تسمى إسطبل سليمان. ويقول الباحثون: (إننا نجد اسمها في القائمة المصرية على أنها قادش أي قدس. وقادش الكنعانية التي تقع شمال سوريا. وتظل المصادر المصرية لا تذكر المدينة إلا بهذا الاسم. إلا أننا نجد ملوك الكنعانيين عندما كانوا يكتبون إلى ملوك مصر بعد عصر تحوتمس يسمونها أور شاليم. وفي خطابات ملك القدس إلى الملك أخناتون ورد اسم بلاده على أنها (مات أورسالم) أي أرض السلام.

وقد اصطحب تحوتمس الثالث معه عند ذهابه إلى القدس التابوت الذي وضع فيه تمثالاً (لآمون) ذلك أن التقاليد المصرية كانت تقتضي بأن يقوم الملك ببعض الطقوس الدينية كل صباح. ومن الطبيعي أن يترك الملك التابوت فوق الأرض التي كان يعتبرها أهل البلاد مقدسة، وهذا ما فعله في العديد من المدن السورية.

ونحن نعلم أن المصريين بنوا معابد مصرية في كل مدينة كنعانية وسورية كانت لهم فيها حامية عسكرية مثل القدس ومجدو وبيسان. وعلى ذلك يكون أول معبد بُنِي في تلك المدينة شيّده المصريون. وحتى تسمية الأرض المقدسة بجبل صهيون إنما كانت بناء على المصادر المصرية ولا علاقة لها باللغة العبرية، ذلك أن المصريين كانوا يطلقون كلمة (أون) أو (عيون) على المدينة المقدسة[1].

القدس وإبراهيم الخليل عليه السلام:

هل ثمة علاقة بين المدينة المقدسة وإبراهيم النبي عليه السلام؟

يتفق أكثر الباحثين والمؤرخين على أن إبراهيم عليه السلام هاجر بأمر ربه من بلده الكلداني إلى منطقة فلسطين في القرن التاسع عشر ق.م، وبعضهم قرّب هذا التاريخ إلى القرن السابع عشر. والواقع أن الأدلة الأثرية على هجرته تكاد تكون مفقودة. ويعتمد الباحثون في تقديراتهم على تحليلات واستنتاجات تقع في باب الافتراضات ليس أكثر.

ويبقى أمام الكثيرين ما جاء في نصوص التوراة وتقديراتها حول زمن إبراهيم وهجرته، إضافة لذلك فإن القرآن الكريم لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى زمن هجرة هذا النبي، بل تحدث عن الهجرة في سياقها الديني وغاياتها العقيدية، والصراع الذي قام بين عقيدة التوحيد الإبراهيمية وبين الوثنية التي كانت قائمة آنذاك في أكثر الحضارات العربية.

---

(1) أحمد عثمان. مقال صحيفة الحياة 4/ 2/ 1994.

وباعتبار أن شخصية إبراهيم أكثر وضوحاً لدى العقائد أو الرسالات السماوية فإن الحديث عنه يمكن أن يوضح كثيراً من الحيثيات المتعلقة بأرض فلسطين والقدس بالذات.

يتفق الخبراء على أن إبراهيم الخليل عليه السلام سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور إلى حرّان، وهي الطريق التي تسلكها القوافل، وكانت مع إبراهيم جماعته وممتلكاته من قطعان الأغنام والمعزى والحمير والجمال، فيكون قد قطع في هذه الرحلة 560 ميلاً (900 ك . م) بين أور وحران. فمر أولاً بمدينة ماري العربية وهي عاصمة العموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي الشهير. ثم ذهب إلى حاران (حران الحالية) وبعد ذلك غادر حران متوجهاً إلى دمشق بطريق (تدمر)، ومنها إلى فلسطين قاطعاً مسافة 600 ميل (960 ك . م) أخرى بين حران وكنعان[1].

وقد ذهب الأستاذ لورد في كتاب (قصة الكتاب المقدس) إلى أن الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل كانت بمحاذاة الجانب الأيسر من نهر الفرات. وهذا غير محتمل لكثرة العوارض، فضلاً عن أن جميع المدونات القديمة تشير إلى أن الطريق العام طريق القوافل كان يسير بمحاذاة الجانب الأيمن من الفرات ماراً بمدينتي (هيث وعانة)، ثم ببلدة (ماري) عاصمة العموريين الشهيرة، وبعد أن يمر بأبي كمال والميادين ودير الزور يعبر عند الرقة، ثم يصعد شمالاً من نهر البليخ حتى يصل إلى حران[2].

وبذلك يكون إبراهيم الخليل عليه السلام قد قطع مسافات طويلة عبر البوادي متنقلاً بين القبائل العربية من منطقة إلى أخرى في متاهات شاسعة من الجزيرة العربية محتكاً بمدنها وقراها وسكانها ورؤساء عشائرها.

---

(1) أحمد سوسة ـ العرب واليهود في التاريخ ص 256 ـ 257.

(2) المصدر السابق ص 257.

ومن الواضح أن إبراهيم لم يدخل أرض كنعان غازياً أو محارباً، بل جاء متنقلاً بين العراق مسقط رأسه وبين المستوطنات العربية السامية على ضفاف وادي الفرات.

وحين ندرس علاقة النبي إبراهيم بالقدس وبأرض فلسطين نجد أمامنا ثلاثة مصادر تتحدث عنه: المصدر الأول هو كتاب التوراة؛ والمصدر الثاني المدونات التاريخية والأثرية، والمصدر الثالث هو القرآن الكريم.

ويمكن في هذا الإطار أن نبحث عن أسباب الهجرة، وأسباب اختياره أرض كنعان. والأوضاع الدينية والفكرية التي كانت سائدة في عصره، خاصة في منطقة أور بلده الأصلي، ومنطقة فلسطين باعتبارها المنطقة التي استقر فيها ثم انطلق إلى ما حولها حتى وصل إلى مكة.

إبراهيم يبدأ رحلة المهاجرة من بلده (أور) باتجاه أرض كنعان بعد صراع عقيدي بينه وبين قومه الوثنيين. ويتضح من خلال نص التوراة أن الرب أمر إبراهيم بالذهاب من بلده وبلد أبيه إلى أرض أخرى دون أن يتحدث عن الصراع الذي دار بينه وبين قومه.

(وقال الرب لأبرام أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة..) ثم تقول التوراة واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة ممراً. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض، فظهر الرب لأبرام وقال: لنَسْلِك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له) التكوين.

أما في القرآن الكريم فيرد قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الآية 26.

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ فإبراهيم يصل إلى شكيم (نابلس) ويقيم فيها مذبحاً للرب الذي ظهر له حسب نص التوراة.

وعلى هذا فإن أول إقامة إبراهيم في فلسطين كانت في نابلس وليس في سواها . وليس للقدس أية علاقة بذلك، وهذا ما افترضته التوراة، ولكن حتى هذا الافتراض يلغي أية صلة بين إبراهيم والقدس بوصفها مكاناً مقدّساً . ولم يرد ذكر أورشليم في هذا السياق إلا بعد فترة مكوث إبراهيم مدةً لا ندري كم دامت، وذكرها جاء في سياق الحديث عن لقاء إبراهيم بـ ملكي صادق ملك أورشليم الذي كان موحداً، وقد بارك إبراهيمَ باسم الرب الواحد، ومضى إبراهيم في حال سبيله دون أية إشارة لمكانة القدس بالنسبة له .

وترى التوراة أن إبراهيم تنقل كثيراً في المنطقة فزار مدينة جرار، ثم سافر إلى مصر، وعاد منها إلى أرض كنعان واستقر في منطقة الخليل، وتورد التوراة أن سارة زوجة النبي إبراهيم عندما ماتت جاء إبراهيم يبكي لملك الخليل الحثي كي يبيعه قطعة أرض يدفن فيها زوجته، وتورد أنه اشترى حقلاً فيه مغارة المكفيلة حيث دفن فيها سارة وصارت ملكاً له . وعندما مات دفن فيها .

وفي القرآن الكريم يتضح أن إبراهيم سار من الأرض المباركة باتجاه الجنوب حتى وصل مكة فبنى الكعبة هو وابنه إسماعيل .

يستوقفنا في هذا السياق عدة نقاط تحتاج إلى توقف وتوضيح :

1 ـ ما هي الأرض المباركة؟ وأين حدودها؟

2 ـ لماذا أُمر إبراهيم ببناء الكعبة ولم يؤمر ببناء معبد شبيه بها في القدس؟

3 ـ ما موقف التوراة من بناء إبراهيم للكعبة وكيف تربط بين القدس وإبراهيم؟

لقد نجى الله إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين .

فهذه الإشارة إلى الأرض المباركة تجعلنا نتساءل : أين هي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين؟ أهي فلسطين أم مكة؟ أو كلاهما معاً باعتبارهما مسرح الأحداث القادمة مع النبي إبراهيم عليه السلام .

تشير التوراة إلى أن هجرة إبراهيم كانت إلى أرض كنعان، وإلى أن الكنعانيين كانوا موجودين في الأرض، أما القرآن فيشير إلى أن الله نجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

فاختيار أرض كنعان داراً لهجرة إبراهيم ليس اختياراً بشرياً تم من قبل إبراهيم، بل هو اختيار رباني تُكشف جوانبه ويلقي مزيداً من الضوء على أسبابه:

1 - الأرض التي بارك الله فيها للعالمين كانت ممهدة لتلقي تعاليم إبراهيم الداعية إلى التوحيد، ولهذا السبب لن يجد إبراهيم أعداءً لعقيدته في هذه الأرض المباركة.

2 - إبراهيم عليه السلام نادى بديانة التوحيد، وهو مكلف من الله سبحانه بتبليغ رسالته أينما ذهب وأينما حل، ولن تتوقف دعوته بمجرد عناد قومه ورفضهم لها.

3 - اختيار الله سبحانه وتعالى مكة المكرمة منذ الأزل لتكون محجاً للناس، ولذلك كلف إبراهيم ببناء الكعبة، ولا يتم بناؤها دون هجرة النبي الكريم من بلده إلى مكة.

4 - إن اختيار الله يأتي ضمن ترتيب رباني للتاريخ القادم الذي سيشهد صراعاً مريراً بين التوراتيين الذين يدعون نسبهم إلى إبراهيم، وبين المسلمين الذين اتبعوا ملة إبراهيم ودينه، وهم أصحاب الأرض التي سيحصل الصراع بسببها. وهذا الترتيب يأتي ضمن سياق الصراع الدائم بين تمام الحق وتمام الباطل.

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الأنبياء كافة حاربهم أقوامهم فهاجروا يحملون دعوتهم لا يتوانون عن نشرها، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، هاجر من بلده مكة إلى يثرب يبشر بدعوته إلى أن عمّت. وموسى عليه السلام، هرب من مصر إلى سيناء وإلى مديَن ثم عاد إلى فرعون ثم رجع إلى سيناء، وكل تنقلاته كانت في سبيل الدعوة للإيمان بالإله الواحد، وكذا الأنبياء وكذا منهج دعوتهم.

وعودة إلى مصطلح الأرض المباركة لنرى أن الحديث القرآني عنها جاء عاماً لم يحدد ملامحها ولا حدودها.

والواقع أن ذهاب إبراهيم من الخليل إلى مكة بأمر من ربه يشير إلى أن الأرض المباركة هي أوسع جغرافياً من فلسطين، فهي تمتد على قدر ما سافر إبراهيم وعلى قدر ما عمل من أعمال في خدمة عقيدة التوحيد. فمكة جزء من هذه الأرض المباركة، ولو لم تكن كذلك لما أمر إبراهيم ببناء الكعبة فيها، أو لكان أمر الله يتعلق ببناء معبد آخر يرمز لديانة التوحيد.

وتورد كتب الأخبار أن إبراهيم سار إلى مكة، فلما وصلها وجد ابنه إسماعيل يصلح نبلاً له وراء زمزم، فقال لإسماعيل: إن الله قد أمرني أن أبني بيتاً له، فقال إسماعيل: فأطع ربك، فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعينني على بنائه، فقال: إذن أَفعل فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة. ثم قال إبراهيم لإسماعيل: إيتني بحجر حسن أضعه في الركن فيكون للناس علماً فأخبره جبرائيل بالحجر الأسود فأخذه ووضعه موضعه[1].

وهذا هو الثابت في كل المصادر والمراجع العربية والإسلامية وكتب التفاسير.

أما قصة بناء الكعبة على يد إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام، فإنها تبدأ بأمر رباني يصدر من الله لإبراهيم. إبراهيم يترك منطقة سكنه ويتوجه نحو الجنوب أي إلى مكة حيث ترك هاجر وولدها إسماعيل أول مرة عندما كان إسماعيل طفلاً.

ومباركة الله للبيت الحرام ترد في الآيات القرآنية الكريمة. فيقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ آل عمران 96.

فهجرة إبراهيم الأولى من أور الكلدانيين كانت إلى الأرض المباركة التي تضم الخليل أو فلسطين ومكة وما بينهما.

التوراة لا تعترف برحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة وبناء الكعبة:

ورد في سفر التكوين التوراتي أن إبراهيم قد أمر هاجر وابنه إسماعيل بالمغادرة، وباختصار، تورد أنهما وصلا إلى بئر السبع، واختفت معالم رحلتهما عند

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ المجلد الأول ص 105 ـ 106.

هذا الحد ولا تأتي بأي خبر عن مكة وبناء الكعبة فتقول: (وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي القوس وسكن في برية فاران) سفر التكوين الإصحاح 21/ 21 وفاران حسب بعض المصادر تقع في جنوب فلسطين قريباً من خليج العقبة. ولا تتحدث التوراة بعد ذلك عما جرى مع إسماعيل وأين استقر بعد ذلك.

والواقع أن التوراة تنكر أي صلة بين إسماعيل ومكة، فتقطع بذلك من الأساس صلة أبيه بالكعبة. ومن المعروف أن الكعبة أقدم بيت مبارك، بني لعقيدة التوحيد، وليس هناك أي مكان آخر يماثل في قدسيته البيت الحرام.

ولا شك في أن بناء إبراهيم الكعبة برفقة ابنه إسماعيل سيتناقض مع الرؤية العقيدية لليهود، بعد أن حرفوا التوراة وانحرفوا عن عقيدة التوحيد.

وقد دلّت كل الدراسات أنّ التوراة قد دوّنت بعد موسى بـ حوالي 500 عام أي حوالي 700 ق. م وفي هذا الوقت نعر ف أن اليهود قد تعرضوا للعقاب الجماعي والسبي على يد البابليين والآشوريين، وأخذ الشعور بالعزلة والعنصرية يسيطر على عقول اليهود ونفوسهم. وحتى ينفوا أية صلة بالمنطقة العربية وشعبها ومقدساتها حاولوا، جاهدين، ربط قبائلهم بإبراهيم دون أن يدركوا أن بناء الكعبة مكاناً مقدساً هو أكثر الرموز والحقائق المادية المشيرة لشخصية إبراهيم ووجوده وعلاقته بديانة التوحيد.

ولو كان اليهود يتبعون فعلاً عقيدة إبراهيم لقاموا بزيارة الكعبة وتقديسها قبل غيرهم. والحقيقة أن إبراهيم في التوراة لا يصنع ما يثير العجب في فلسطين ـ الخليل ـ ولم يرتبط اسمه بأي مقدس في أرض كنعان ـ بل كان ارتباطه جغرافياً واجتماعياً بعد أن حل ضيفاً على أهل تلك الأرض. أو بعد أنْ أمر بنشر عقيدة التوحيد في مساحات واسعة من وسط الوطن العربي، بدءاً من أرض بلاد الرافدين وأرض كنعان، ثم قلْب الجزيرة العربية.

ومن خلال رحلة إبراهيم وتجواله نستطيع أن نقول: إن المناطق التي تجوّل فيها النبي لم تكن غريبة بالنسبة له؛ فهو ابن المنطقة ومهمته النبوية كانت أوسع من مكان

صغير محدد. لقد تجاوزت دعوته قطراً محدوداً وكانت فلسطين وسوريا والعراق والجزيرة حتى مصر مجالاً جغرافياً لنشر دعوته وعقيدته. وبناؤه الكعبة كان يقصد من ورائه ربط الموحدين برمز ديني يجمع أبناء المنطقة كافة ويمهد لانتشار الدعوة عالمياً. والذي يلفت النظر أن إبراهيم عليه السلام، تجول كل هذه التجوّلات دون أن يجد من الأقوام من يرفض دعوته، أو يلاحقه أو يصطدم معه. ويستنتج أن اللهجات العربية آنذاك لم تكن قد تباعدت بعضها عن بعض، فكان إبراهيم الخليل يفهم لسان أهل البلاد التي توجه إليها؛ إذ كانت كلها تتكلم بلغة واحدة[1].

وقد أظهر القرآن الكريم طبيعة الديانة التوحيدية التي كلف إبراهيم عليه السلام، بتبليغها، وقد بقيت آثار هذه الديانة منتشرة في قلب الجزيرة العربية حتى بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان ورقة بن نوفل أحد هؤلاء الحنيفيين الذين ابتعدوا عن عبادة الأصنام وتبعوا ملة إبراهيم. ولم تشر أيُّ الدراسات إلى وجود حنيفيين في غير الجزيرة العربية، وقد ارتبط هؤلاء الحنيفيين بالكعبة بوصفها مكاناً مقدساً ولم يرتبطوا بأي مكان مقدس آخر.

وقد كوّن الحنفاء في مجتمعهم حالة رفض وتمرد على كل ما يحيط بهم من طقوس، ولما عجزوا عن تغيير حالة قومهم، واصطدموا بمحيطهم عزلوا أنفسهم على الرغم من أنهم عُزِلوا عن مكة، فكونوا خارجها ما يشبه ندوة فكرية في مكان يدعى حراء، كانوا يتجمعون فيه فيتناقشون ويقرأون الكتب ويتعبدون.

(لقد كان أمام أولئك الأحناف طريقان للإيمان بديلاً عن الوثنية، فإما النصرانية وإما دين إبراهيم بعد ما كانت اليهودية قد أغلقت أبوابها وأبواب دعوتها بوجه الطامحين للدخول فيها. كانت النصرانية بالنسبة لأكثرهم معقدة بجدليتها وفلسفتها مع ما كان يبدو على بعض طقوسها من شبهة وثنية أبعدت الكثير منهم عنها، بينما كانت ميزة دين إبراهيم بالنسبة لبعضهم بأنه لم يكن ديناً غريباً عن أذهانهم. فإبراهيم

---

(1) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص 255 ـ 256.

ليس غريباً عن العرب عامة وقريش خاصة، ودين إبراهيم دين بسيط التعاليم، قوامه التوحيد بعيداً عن التعقيد الفلسفي، ولذلك كان طبيعياً جداً أن يكون معظمهم قد انتهى حنيفياً)[1].

وعقيدة الأحناف كما أجمع عليها الإخباريون تستند إلى حج البيت الحرام. واتباع الحق واتباع إبراهيم فيما أتى من الشريعة، الإخلاص وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية.

يقول ول. ديورانت: (كانت في البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنيفية أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة، وقامت تنادي بإله واحد يجب أن يكون البشر عبيداً له وأن يعبدوه راضين)[2].

أما البروفسور بلياييف فقال: نشأت الحنيفية عقيدة خلقية ودينية في اليمامة، وانتشرت في غربي الجزيرة العربية حيث وقع الكثير من سكانها تحت تأثير التوحيد والزهد والتقشف[3].

الكنعانيون.. عقائدهم.. معابدهم..:

ارتبط الإنسان بالمعبود منذ الأزل، وحتى لا يبقى هذا المعبود محصوراً في العقل أو في الوجدان أو الوعي، أراد الإنسان أن يجعل في الأرض رموزاً مادية يضفي عليها نوعاً من القداسة المرتبطة بمعبوده.

ومنذ فجر التاريخ أوجد الإنسان معابد صغيرة وكبيرة وملأها بالرموز الحجرية أو الطينية أو الخشبية، وجسّد معبوده حسب تصوره في أشكال عدة.

ومع التطور الاجتماعي والاستقرار البشري أصبح لكل شعب أو لكل أمة معابدها ومقدساتها ورموزها التعبدية المادية والمعنوية.

---

(1) شريف محمد هاشم ـ الإسلام والمسيحية في الميزان ص 39.

(2) قصة الحضارة الجزء 3 ص 24.

(3) شريف محمد هاشم ـ الإسلام والمسيحية في الميزان ص 46.

والشعب الكنعاني الذي حمل معه من جنوب الجزيرة العربية معتقدات وعقائد، عمل من فجر التاريخ على ترسيخ عقائده من خلال إقامة المعابد في قراه ومدنه الفلسطينية.

وتسعفنا الميثولوجيا الكنعانية بمقولات وإشارات كثيرة تدلنا على ما كانوا يعتقدون وعلى طريقة تفكيرهم الديني، وطبيعة بناء معابدهم والطقوس التعبدية التي كانت ترافق احتفالاتهم الدينية وصلواتهم وقرابينهم.

وتكثر المعابد والهياكل في أرض كنعان حتى إنها انتشرت تقريباً في كل القرى والمدن والجبال، ووجدت تماثيل في كل معبد ترمز للآلهة التي عبدوها. وظهر أن لكل إله معبداً سواءٌ أكان هذا الإله يمثل الأنوثة أم يمثل الذكورة. وجميع هؤلاء الآلهة كانوا أبناء (عشيرة)، ومن المعتقدات الكنعانية أن حرق المعبد خطيئة كبيرة، وكانت معابد أولاد الإلهة (عناة) تقام في الساحات العامة من المدينة أو البلدة.

ويعتقد أن قصر الملك معبد تقام فيه الشعائر. فقد ورد في النصوص الكنعانية أن القصر الملكي يعج بالتماثيل التي ترمز لأفراد الآلهة، وهناك إشارات لوجود تمثال للإله (إيل) وتمثال يشير إلى الإلهة (عناة)، وكذلك بقية الآلهة وجميعها داخل القصر[1]، وكان للإله بعل معبد كبير في نابلس. حتى إن الغزاة العبرانيين عبدوه وصلوا له في ذلك المعبد وذلك في زمن القضاة.

ومن أهم معابد الكنعانيين معبد في بيسان. وقد ورد أن الفلسطينيين عندما انتصروا على الغزاة اليهود وردوهم قتلوا ملكهم شاؤول وعلقوا رأسه في المعبد[2]. وكان معبد للإله بعل في عقرون شمال فلسطين.

أما عن بناء المعابد فقد ورد في نصوص أوغاريت أن المعبد يحاط بأعمدة كبيرة الحجم، وهي غالباً من الحجارة الكلسية، وقد بني معبد لبعل في مدينة المجدل الواقعة

---

(1) مفيد عرنوق - اللآليء نصوص من الكنعانية ص 87.

(2) ورد ذلك في التوراة في سفر صموئيل الأول.

قرب غزة في جنوب فلسطين، وكذلك بني معبد آخر لبعل في وادي جبعون وأقيم فيه عدد من الطقوس، ويعتقد أن مكانه اليوم رأس السناة[1]، وورد أن الفلسطينيين كانوا يمارسون طقوس إقامة الأصنام والنصب في الغابات، وهي تقتضي على ما يبدو إقامة نصب تذكارية للملوك المتوفين.

وقد ورد في نصوص أوغاريت أن معبداً أقيم للإله إيل بين نابلس والقدس. لكنه كان يغص بالتماثيل والأصنام التي تمثل الآلهة المعاونة للإله الأكبر. كما عثر على معبد آخر للإله بعل في جبل الكرمل وبعض مناطق الساحل الشمالي لفلسطين، إضافة للمعبد الكبير الذي أقيم للإله بعل في أوغاريت زمن الملك الكبير.

وتشير النصوص إلى أن هذه المعابد كانت تغص بالكهنة والنساء المقدسات، وقد أدخلت التوراة أحاديث عن هؤلاء النسوة حيث وصفتهن بأنهنّ يقدمن أنفسهن للرجال إكراماً لبعل. ومن أهم الكهنة الذين ورد ذكرهم في لوحات أوغاريت الكاهن الأكبر (إيلو ملكو) وهو كاهن أوغاريت، وهو الذي دوّن اللوحات الكنعانية، وفيها تاريخ الكنعانيين وأساطيرهم. أما القدس فلم يرد في الأساطير الكنعانية أو في المكتشفات الأثرية أن معبداً مهماً كان موجوداً فيها.

والاستنتاج الوحيد الذي يمكن أن نقدمه في هذا الإطار أن الملك ـ ملكي صادق الذي تحدثت عنه التوراة وتحدث عنه أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ، قديساً صالحاً موحِّداً، والتقى النبي إبراهيم وباركه الله العلي القدير قد يكون بنى معبداً خاصاً في القدس باعتباره كان ملكاً عليها. ولا شك في أن كل ملك أو حاكم يربط نفسه بمقدَّس رمزي أو مادي مهما كان نوعه توحيدياً أو وثنياً، ويمكن أن يكون ملكي صادق على صلة بهذا المعبد الذي أقيمت طقوس عبادته فيه. وحول القدس وجدت مناطق أو قرى أقيمت فيها معابد للآلهة الكنعانية كقرية

---

(1) قاموس الكتاب المقدس.

عناتا وقرية بيت إيل . . وهذه الأسماء تدل على الآلهة التي عبدها الشعب الكنعاني في وقت من الأوقات .

وقد عرف الكنعانيون ما يسمى بالمحرقات ، وهي أماكن يختارها الكنعاني في مرتفعات الجبال والتلال ليذبح عندها قرابينه ويقدم أعطياته للآلهة ، وقد أوردت التوراة أن إبراهيم وغيره قدموا القرابين عند هذه المحرقات غير أن المصادر جميعها حتى التوراة لم تورد شيئاً عن معبد معين في القدس يتميز عن غيره . والراجح أن مرتفعات الجبال المحيطة بالقدس استخدمت محرقات غير ثابتة .

الفصل الثاني
القدس والنص التوراتي

يرى التاريخ اليهودي أن القدس كانت زمن داود وسليمان عاصمة لمملكة إسرائيلية دام وجودها ثمانين عاماً، واستمرت بعدهما بضع عشرات من السنين. وتدّعي الأدبيات اليهودية أن القدس لم ينازعهم في سيادتهم عليها أحد، وترى هذه الأدبيات أن الأرض الفلسطينية بما فيها القدس هي عطاء إلهي لا يجوز المس به، وأن المعبد الأول الذي شيّد في القدس هو هيكل سليمان الذي هو رمز الوجود اليهودي؛ ولهذا فإن نظرية الوجود الصهيوني تقوم على الرابط بين هذه المعطيات وبين تثبيت كون القدس عاصمة أبدية للكيان الصهيوني، مع الأخذ في الحسبان الأطماع الاستعمارية الاستيطانية لرواد الفكر الاستعماري الصهيوني الحديث.

والمدقق في النص التوراتي يرى أن كتّاب التوراة ركزوا على الوعد الإلهي المزعوم بمنح أرض كنعان لإبراهيم ونسلِهِ من بعده، دون إعطاء القدس أية أهمية تذكر.

ولم تعتبر القدس مكاناً مقدساً حتى جاء سليمان وبنى ما يسمى الهيكل. وكانت القدس حسب النصوص الموجودة في أسفار التوراة الأولى كبقية بقع الأرض التي هاجمتها من قبل القبائل البدوية الإسرائيلية، وبعد أن استتب الوضع لداود وسليمان نظر اليهود للقدس بالدرجة الأولى على أنها عاصمة سياسية لمملكة داود، ولم تُحط بهالة القدسية الإلهية؛ وهذا يعني أن التقديس جاء لرمز الكيان الاستيطاني وليس لرمز العلاقة بين الإله والإنسان.

وبعد أن بنى سليمان هيكله، حسب نص التوراة، أصبحت القدس ذات معنى مزدوج لديهم؛ فإضافة لكونها رمزاً لمركز الاحتلال اليهودي صارت مركزاً للقدسية التعبدية، على اعتبار أن الهيكل هو بيت سكن للرب بعد أن كان يسكن في الغيوم، حسب زعم التوراة.

فإذا عدنا إلى حقيقة التقديس اليهودي نرى أن المسألة لا تعدو كونها مسألة ارتباط جغرافي استيطاني بين اليهود والقدس، التي زُعِم أن هيكل سليمان أقيم فيها. أما أنّ هناك تقديساً إلهياً سبق التصور البشري للارتباط، فهذا لم يأت عليه كُتَّاب التوراة، ولم تنص عليه النصوص الأولى في العقيدة اليهودية.

لقد جاء في التوراة (وذهب الملك داود ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين، سكان الأرض، فكلموا داود قائلين: لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. وأخذ داود حصن صهيون، وهي مدينة داود) سفر الملوك الأول.

ويأتي في المصادر الإسلامية واليهودية أن داود عندما أراد أن يعدّ مكاناً للعبادة اشترى بيدر أحد اليبوسيين، وقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سِفْر أخبار الأيام الأول، أن النبي جاد أمر داود بأمر الرب أن يقيم مذبحاً في بيدر شخص اسمه أرونه اليبوسي فاشترى البيدر وبنى المذبح).

وهذه النصوص التوراتية هي الأولى التي تشير إلى علاقة ما بين داود والقدس. ونحن نسأل منذ البداية أين المقدس الإلهي الذي تمتزج فيه الإرادة الإلهية بالاختيار الجغرافي؟ هل هناك تصور إلهي لجغرافية المكان الذي قصد إليه داود ليكون ذا علاقة مهمة به؟.

هذه النصوص، كما قلنا، هي الأولى التي تشير إلى علاقة ما بين داود والقدس. وتؤكد النصوص أن سكان الأرض الأصليين هم اليبوسيون، وقد تكلم داود معهم لأجل إقامة ما في المدينة فرفض سكان القدس، فذهب داود وبنى قصراً له على جبل سمّته التوراة جبل صهيون.

إننا نلاحظ إقحام كلمة صهيون على النص، وهذه الكلمة غير موجودة لا في الجغرافية ولا في التاريخ. هناك مدينة اسمها القدس أو مدينة السلام والجبال المحيطة بها معروفة أسماؤها لدى أصحابها الأصليين. وليس لكلمة صهيون أية علاقة بأي جبل في ظاهر المدينة. فهو اسم مصطنع مخترع أطلقه كتبة التوراة على جبل الزيتون، وهو يخص اليبوسيين ولا يخص أحداً سواهم.

وعلى الرغم من ذلك فإن النص التوراتي يختصر الزمن الطويل ببضع كلمات يقول: (أخذ داود جبل صهيون وهي مدينة داود) فكيف أصبح جبل صهيون مدينة داود؟ لا ندري.

والمعروف، حسب نص التوراة، أن داود أصبح ملكاً على بني إسرائيل وكان عمره لا يزيد على ثلاثين عاماً. ومعنى هذا أنه تملك قبل أن يوحى إليه، وقبل أن يبعث نبياً، فلما بلغ من العمر أربعين سنة آتاه الله النبوة، وأرسله إلى بني إسرائيل وأنزل عليه الزبور.

والمعروف أنه جعل قاعدة ملكه في أول تمليكه في جهات الخليل، ثم دخل بعض جبال القدس بعد حوالي سبع سنوات 990 ق.م، وتكون نبوته بعد دخوله القدس ولا نعلم متى جاءه الأمر ببناء المعبد، ويظهر أن ذلك كان خاصاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ سورة ص. فالمحراب قد يكون للعبادة وقد يكون صدر المجلس. فإن كان للعبادة فمعنى هذا أنه معبد خاص، بدليل قوله تعالى: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ أي تصعدوا سور المحراب ونزلوا إليه، ولو كان عاماً ما كان له سور يمنع الناس التعبد فيه[1]، ويعني هذا أن المسجد لم يكن المسجد الأقصى.

والمهم في ذلك كله أن المقدَّس الإلهي وحتى المقدَّس البشري لم يظهر إلى الآن؛ (أي حتى زمن داود). ليس هناك ارتباط ديني بين أتباع اليهودية وبين أي مكان مقدس، هناك ارتباط جغرافي طارىء ومغلف بالغموض، وهناك قصر لداود اعتبرته

(1) بيت المقدس. المسجد الأقصى محمد حسن شراب ص 58.

التوراة نواةً لتشكيل عاصمة للملك داود. ومن ثم جُيِّر ذلك ليصبح قضية ارتباط بين اليهود أنفسهم وبين رمز لكيان جغرافي استيطاني ليس أكثر.

وتقول التوراة: (وفي أورشليم ملك داود ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهودا) ملوك أُوَل. ولنفترض أن هذا الكلام صحيح فأين المقدس الذي يرتبطون به ارتباطاً عقيدياً دينياً؟ ثم أين اليبوسيون من هذه المملكة؟ ما هي مقدساتهم؟ ما هو مقدسهم العقيدي الذي ينتمون إليه دينياً؟.

ماذا تشكل القدس أو ماذا يشكل قصر داود ومدينته في العقلية اليهودية الدينية؟ نعتقد أن التوراة نفسها أجابت عن هذا السؤال. فالارتباط ارتباط مجموعتين من الناس بمركز إداري يحكم الناس ويدير شؤونهم الدنيوية. المجموعة الأولى قبائل يهودا والمجموعة الثانية قبائل إسرائيل، تلك تستوطن الخليل وتلك تستوطن جبال القدس، ولا يجمعهما أي رابط مقدس. ولو كانت القدس تشكل لديهم جميعاً المركز القدسي الروحي الأوحد لتمثل ذلك بطقوس معقدة لها قوانينها، وقام بها داود والأتباع من الطرفين، لكن المقدس اليهودي كان إلى ذلك الوقت متمثلاً بتابوت العهد، أي بصندوق العهد الذي حفظت فيه بقية تعاليم التوراة، وبقية مما وصى به موسى وهارون أتباع الموسوية الأولى.

وإذا انطلقنا تاريخياً ـ حسب النص التوراتي تمثل لنا سليمان ملكاً بعد داود. وتمثل لنا ما قالته التوراة عن بناء سليمان هيكلاً للرب يسكن فيه بعد أن كان يسكن في الضباب وفوق الغيوم، لن نناقش هنا المسائل العقيدية المتعلقة بتجسيد الإله وصفاته كما تصورها بنو إسرائيل، بل الذي يستوقفنا هنا هو الهيكل نفسه. هل حقاً هناك هيكل بناه سليمان؟ وإذا افترضنا عبثاً أن هيكلاً ما، بناه سليمان، فهل يمثل مقدساً إلهياً خاصاً باليهود يبيح لهم الاستيلاء على القدس وجعلها عاصمة أبدية للكيان الصهيوني؟

تصف التوراة هيكل سليمان بشكل دقيق حتى إنها لم تترك شيئاً يخصه إلا ذكرته خارجياً وداخلياً.

ماذا تقول الحقائق التاريخية؟

ترى التوراة أن هيكل سليمان بني على أرض سهلية في القدس. وعندما نقارن المساحة التي ذكرتها التوراة والتي بنى عليها سليمان هيكله، مع المساحة الجغرافية الحقيقية لمنطقة القدس نجد كما وجد علماء الآثار أنه لا توجد بقعة في جبال القدس تتسع لهذا الهيكل؛ أي إن المساحة المزعومة في التوراة لا تتطابق البتة مع المساحة الجغرافية للأماكن الفارغة من العمران في القدس.

وترى التوراة أن الهيكل بني من الحجارة وخشب الأرز المستورد من لبنان، وأن الذين شاركوا في بنائه 30 ألفاً من المسخرين العبيد.

يقول النص التوراتي: (والبيت في بنائه بني بحجارة صحيحة مقتلعة، ولم يسمع في البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد) الإصحاح 6. سفر الملوك الأول.

فالعبيد المسخرون وهم ثلاثون ألفاً اقتلعوا الحجارة اللازمة للبناء، وهي صحيحة ولم يستخدموا في قلعها أداة للنحت أو معولاً أو أية أداة من حديد.

ما الذي يعنيه هذا النص؟ ماذا يفيدنا إذا ما وضعناه في سياق علم الآثار والجيولوجيا؟ علم الآثار يقول إن مثل هذه الحجارة لا تكون بهذا الشكل وهذه الكثافة، إلا إذا كانت مشيدة في أبنية ضخمة سبق وجودها وجود أتباع سليمان، والطبقات الصخرية والجيولوجية تدل بشكل قاطع على أن الحجارة التي افترضوا أن سليمان بنى هيكله بها ليست بعيدة العهد عن عصر سليمان. ومن المسلمات الآثارية أن الأقوام التي تخلف الأقوام السابقة عليها، تستخدم حجارة بيوتها في بناء بيوت جديدة. ولكن الواقع يقول، وهذا أيضاً ما نصت عليه التوراة، إن اليبوسيين العرب سكان القدس الأصليين لم يتركوا بيوتهم وقصورهم.

لكن السؤال الذي يعيدنا إلى جوهر الموضوع هو إذا كان هذا الهيكل المفترض قد بني فعلاً فما علاقة المقدس الإلهي به؟. كان من الممكن أن يختار سليمان أي مكان ليبني هيكله عليه بما أن اختيار المكان هنا هو اختيار بشري إنساني وليس اختياراً إلهياً. نحن نعلم أن المصادر الإسلامية تحدثت عن بناء إبراهيم الكعبة وأن الكعبة موجودة قبل إبراهيم بزمن طويل. إلا أن الله سبحانه أوحى لإبراهيم بمكان الكعبة المدفونة تحت رمال الصحراء لكي

يعمرها. والكعبة اختارها الله لتكون بيت الله الحرام وليست هي مكاناً اختاره إبراهيم. إذاً هي خاصة بالاختيار الرباني، وإبراهيم ليس سوى منفذ لاختيار الله، بينما سليمان يختار بناء الهيكل دون تدخل إلهي أو اختيار رباني.

على أية حال فإن الافتراض بوجود ما يسمى هيكل سليمان يستدعي التوقف عند كثير من التساؤلات أولاً، والتوقف عند ما قاله علماء الآثار ثانياً.

1 ـ قالت التوراة إن 30 ألفاً من العبيد سُخّروا في بناء الهيكل، ولم يشارك في بنائه أي فرد من بني إسرائيل.

من أين جلب سليمان ثلاثين ألف عبد ليبنوا الهيكل؟

قالت التوراة إن سليمان استورد خشب الأرز من لبنان لبناء الهيكل، وقالت إن الهيكل بني من الحجارة. فإذا كان بني من الحجارة فما حاجتهم لخشب الأرز؟ وإذا قيل إنه استخدم في سقف الهيكل فإن الشجر الموجود في فلسطين يكفي لسقفه ولا حاجة لاستيراد الأرز من لبنان.

وتدلنا المعطيات بعد سليمان أنه عندما خُرب هذا الهيكل ودمر لم يبق منه أثر. وقد دمرت المباني جمعيها التي كانت لسليمان وأتباعه، الموجودة في منطقة القدس أثناء الغزو البابلي عام 587 ق. م. وتحاول سلطات العدو الصهيوني إيجاد أي أثر يدل على وجود الهيكل، وذلك منذ أكثر من خمسين عاماً دون جدوى.

أما علم الآثار فيقول:

كان يجب أن يكون هيكل سليمان والقصور خارج مدينة داود، لأن حجم البناء الذي تصوره يتطلب المساحة المبنية بأكملها، ولم يكن التوسع نحو الشمال صعباً لأن السلسلة الشرقية كانت باتجاه التلال ودون فاصل، ولكن اعترضت البناء بعض الصعوبات الطبيعية[1].

وإذا كان الهيكل بني حقاً فإننا سنرى أن سليمان، وحسب النص التوراتي، استخدم هذا الهيكل لأغراض أخرى غير الأغراض التي تتعلق بعقيدة التوحيد.

---

(1) كاثلين كاينون الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة ص 66.

فسليمان، حسب قول التوراة، يتزوج من ألف امرأة سبع مئة منهن من السيدات، وثلاثمائة من السراري (الإماء). وقد اعترفت التوراة أن نساءه أملنَ قلبه باتجاه آلهتهن فبنى لكل منهن معبداً أو أقام صنماً لتعبده زوجاته، وذلك في وسط الهيكل. جاء في سفر الملوك الإصحاح (11) (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات.. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى، وذهب وراء عشتروت وملكوم وكموش. وبنى مرتفعة لهن على الجبل الذي تجاه أورشليم، وهكذا عمل لجميع نسائه اللواتي كن يوقدنَ ويذبحن لآلهتهن).

واضح أن هيكل سليمان لم يكن ذا علاقة بتقديس الله، بما أن فيه ألف صنم على عدد نسائه. وإذا عدنا إلى أسفار التوراة الأولى نرى أن سفر التكوين، وهو يتألف من خمسين إصحاحاً، لا يأتي على ذكر للقدس، بل يقتصر في حديثه على الوعد المقطوع لإبراهيم ونسلِهِ بأن يمتلك أرض كنعان. وفي سفر الخروج كذلك ليس للقدس وجود في تعاليم النبي موسى أو مسيرة تنقله حتى موته.

فموسى الذي يعتبر صاحب الشريعة التوراتية لم يكن له توجه محدد نحو القدس على اعتبارها مكاناً مقدساً لليهود. وبدت العقيدة اليهودية في أسفار موسى الخمسة مفرغة من المعبد الرمز والأساسي الثابت. فهي تعاليم نظرية لا ترتبط بالجغرافيا، وهذا طبيعي؛ لأن الخروج الموسوي من مصر، والتنقل عبر الصحراء الشاسعة في سيناء لا يحتمل ثبات الجغرافية المكانية المقدسة، فليس هناك مقدس بمعنى المعبد، وهناك فقط تابوت العهد الذي سبق أن أشرنا إليه في صفحات سابقة.

فإذا كانت أسفار موسى الخمسة، وهي المعتمدة عند فئات يهودية كثيرة دون غيرها من أسفار التوراة، لا تأتي على ذكر القدس لا من قريب ولا من بعيد، فكيف يمكن أن يربط اليهودي القدس بالمقدس اليهودي؟

في هذه الحال يستطيع أي باحث أو مدقق بالمدونات التوراتية أن يجزم أن المقدس التوراتي لا يربط بين الإنسان وبين المنحة الإلهية للتقديس. إننا نعترف وبكل صدق بوجود ما يسمى تابوت العهد، واعترافنا يستند إلى آيات القرآن الكريم الدالة على وجوده. أما ما يتعلق بالعلاقة بين القدس كجغرافيا أو تقديس إلهي، فلا اليهودية تقنع ولا النصوص التوراتية في أسفار موسى الخمسة تشير إلى وجود القدس في العقل اليهودي أو العقيدة اليهودية.

إذاً ما العلاقة بين التوراة والقدس؟

حسب النصوص التوراتية فإن العبرانيين يتسللون إلى فلسطين منذ يوشع بن نون، أي بعد وفاة موسى، وظلوا يتسللون ويتجمعون في بعض جبال فلسطين حتى زمن الملك داود. والفترة الزمنية الفاصلة بين موت موسى وملك داود هو مائتا عام حسب قول التوراة أو مئتان وخمسون عاماً على الأكثر. ومنذ موسى ومروراً بيوشع وبعصر القضاة، وحتى شاؤول وداود لم يظهر لليهود أي مقدس بالمعنى الجغرافي، على الرغم من احتلالهم بعض أراضي فلسطين. ولكنهم ظلوا يحملون تابوت العهد وينقلونه من مكان إلى آخر؛ لأنهم يعتبرونه مصدر كتاب موسى والبقية الباقية من تعاليمه.

- **كيف تطور مفهوم تقديس القدس عند اليهود؟**

لقد تحدثت التوراة عن بناء سليمان للهيكل، ووصفته وصفاً دقيقاً، وصار بالنسبة لأتباع اليهودية مركزاً للملك من جهة، وللعبادة من جهة أخرى. وتحدثت أيضاً عن الأصنام والتماثيل التي صنعها الحرفيون لسليمان، ووضعها في الهيكل، إضافة لما قالته عن نساء سليمان اللواتي بقين يعبدن آلهتهن الوثنية.

ومع موت سليمان انقسمت المملكة الصغيرة التي كان يحكمها إلى مملكتين: إحداهما في القدس، والأخرى في السامرة. وهذا الانقسام أدى بالتالي إلى انقسام في العقائد، فمملكة السامرة وسكانها انقطعت عن المعبد المسمى بالهيكل، وكان عليها أن تبني معبداً رئيسياً لها تستغني فيه عن الهيكل، وهذا يعني أنْ لا ارتباط بين

مملكة السامرة والمقدس الذي اصطنعوه في القدس، وكان يمكن الاستغناء عنه بسهولة وقد أصبح (يربعام) ملكاً على المملكة الشمالية، وقرب إليه أنبياء فكانوا يأكلون على مائدته ويحصلون على أعطيات معينة.

وعندما تسلم الملك المدعو آخاب - عام 850 - 869 ق. م كان في مملكة (إسرائيل) إضافة لأنبياء يهوه أنبياء البعل - والبعل هو الإله الرئيسي بعد إيل عند الكنعانيين، وهؤلاء الأنبياء أربعمائة وخمسون نبياً، يأكلون الطعام على مائدة إيزابيل، وهي زوجة الملك (آخاب) وكانت كنعانية وهي ابنة ملك صور، وقد أصبحت حامية لعبادة بعل وعشتروت في مملكة (إسرائيل).

وقد بنى آخاب معبداً ضخماً في السامرة للإله بعل، إضافة لعدد كبير من المذابح للإلهين بعل وعشتروت في الغابات المقدسة التي تسمى (السواري) وكان يخدمها كهنة بعل وأنبياؤه.

وتورد التوراة أن (إيزابيل) أمرت بهدم جميع المعابد والمذابح المرتبطة بالإله اليهودي يهوه، وقتلت كل الكهنة اليهود، وقد هرب من بينهم النبي إيليا - إلياس - وهو من مستوطني جلعاد، وهي مقاطعة تقع في الشرق الأقصى للمملكة الشمالية حسب نص قاموس الكتاب المقدس. وقد ورد في النص التوراتي (فالآن أرسل وأجمع كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين، وأنبياء السواري أربع المئة والذين يأكلون على مائدة إيزابيل) وهذا ما يشير إلى أن في جبل الكرمل معبداً جرت فيه المحاورة بين إيليا وأنبياء البعل، وحسب نص التوراة فقد انتصر عليهم بعد أن أظهر معجزته، وبعد ذلك يقبل إيليا على العمل فيعيد تشييد مذبح يهوه المهدم ويحفر حوله قناة، وعندما رأى آخاب والملكة إيزابيل كل ما جرى على جبل الكرمل وكيف أن إيليا قتل جميع الأنبياء بالسيف، أرسلت الملكة الحانقة رسولاً إلى إيليا تقول: (هكذا تفعل الآلهة وهكذا تزيد إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم في نحو هذا الوقت غداً فيضطر إيليا للهرب مجدداً إلى يهودا هذه المرة ويختبىء في جبل حوريب) 1 ملوك إصحاح 19.

ويتضح من ذلك أن المعابد كانت منتشرة في فلسطين ويطغى على طابعها الشكل الوثني، ولم تشر التوراة إلى علاقة ما بين النبي إيليا وبين القدس. وإشارة إلى المعبد المرتبط بهذا النبي، فما زال إلى الآن ديرٌ يقع على جبل الكرمل يطلق عليه دير مار إلياس، ويشير سكان المنطقة إلى المغارة التي حدثت عندها معجزة النار التي أكلت لحم الثور الذي ذبحه النبي إلياس.

وبعد موت آخاب تولى العرش ابنه أخزيا، وتقول التوراة إنه عندما مرض أرسل رسلاً وقال لهم: اذهبوا اسألوا (بعل زبون) إله عقرون إن كنت أبرأ من هذا المرض، وعرف ذلك النبي إيليا من ملاك يهوه الذي ظهر له وقال: قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم: أليس لأنه لا يوجد إله في إسرائيل تذهبون لتسألوا بعل زبون إله عقرون.

وقد استمر الصراع بين يهوه وبعل ليس فقط في مملكة إسرائيل بل في يهودا أيضاً[1].

وهناك إشارات عارضة إلى وجود معبد في (أورشليم)، لكنها لم تعط أية أهمية لمكان التعبد المتميز، تقول التوراة: (فترأس المؤامرة ضدها الكاهن الأول في معبد أورشليم يهيادا ع) وتقول في نفس السياق: (ودخل جميع شعب الأرض إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسروا تماثيله تماماً) (إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات).

وفي عام 640 ق. م اعتلى العرش في يهودا الملك يوشيا بن آمون الذي كان ابن ثماني سنوات وقد دخل ـ حسب نص التوراة ـ أورشليم ـ وتحديداً إلى معبد يهوه، وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل يهوه جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم في حقول قدرون.. والمرتفعات التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتروت رجاسة الصيدونيين، ولكموش رجاسة المؤابيين، ولملكوم كراهة بني عمون نجّسها

(1) أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ص 61 ترجمة الدكتور آحو يوسف.

الملك، وكسر التماثيل وقطع السواري، وكذا جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة أزالها يوشيا، وذبح جميع كهنة المرتفعات التي هناك على المذابح.

نرى من خلال مجريات الأحداث أن بني إسرائيل أثناء انقسامهم تبنوا عدة معبودات وثنية إلى جانب علاقتهم بإلههم القومي يهوه. ونرى أن المعابد التي كرست لعبادة الآلهة المتعددة كانت ذات أهمية بالغة خاصة في زمن آخاب وامرأته إيزابيل. وكان المعبد الرئيسي في القدس يدعى بيت الرب، ولم يكن في تلك الفترة سوى معبد يشابه بقية المعابد المنتشرة في أماكن وجود بني إسرائيل حتى إن المعبد الذي أقامه آخاب في السامرة كان ذا أهمية كبرى. ويبقى الوضع على حالة بالنسبة للمعابد التي أنشأها اليهود في القدس ونابلس والكرمل وبقية المناطق التي احتلها اليهود في فلسطين. ومع اشتداد الصراع بين مملكتي اليهود زحفت جيوش الشرق باتجاه الشام تحتل مدنه ومناطقه الواسعة.

ففي عام 605 ق.م زحف بختنصر البابلي إلى أن وصل القدس وأخضع ملكها (يهويا قيم) وخضعت المملكة اليهودية للبابليين. ولما ثار يهويا قيم على أسياده دخل بختنصر وجيشه القدس وعين مكانه أخاه يهويا كين (598 ـ 597 ق.م) وفي أثناء ملكه القصير حاصر نبوخذ نصر (أورشليم وأخذ الملك مع عائلته ورؤساء اليهود وبعض خزائن ما يسمى بيت الرب والمدينة إلى بابل).

قال مؤلف جغرافية الكتاب وتاريخه «وسقطت القدس نفسها في السنة 597 ق.م أمام جيش نبوخذ نصر، ونقل الملك يهوياكين ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من سراة القوم وصناع الأيدي والمجموع ما بين 30 ـ 40 ألفاً إلى بلاد بابل، وكان غرض نبوخذ نصر أن يخلي البلاد من قوادها وكل الذين بإمكانهم أن يوقدوا الثورة، والذين بقوا من يهودا ملك عليهم (صدقيا) أحد أبناء يوشيا 597 ـ 568 ق.م (القدس الدباغ ص 52) وفي أواخر حكمه تمرد على سيده فأرسل بختنصر جيشه إلى القدس فأسر الملك وسيق إلى بابل وخُربت القدس وجعلت أكواماً من الأنقاض وانتهت دويلة يهودا».

وفي سنة 539 ق. م تمكن كورش ملك الفرس من الاستيلاء على بابل، وتم له الاستيلاء على بلاد الشام، وقد ساعده اليهود حين فتحِه بابل فالتمسوا منه أن يذهبوا إلى القدس فوافقهم على طلبهم، فعاد قسم منهم وبقي معظمهم.

وفي سنة 332 ق. م استولى الإسكندر المقدوني على فلسطين ودخل القدس، ولكن الفوضى حلت بالبلاد بعد موته وانقسام إمبراطوريته إلى مملكتين.

وفي سنة 63 ق. م استولى القائد الروماني بومبي على القدس، وفي سنة 37ق. م نصَّب الرومان هيرودس الآدومي ملكاً على الجليل والقدس فظل يحكمها باسم الرومان حتى السنة الرابعة الميلادية، وفي زمانه ولد السيد المسيح عليه السلام. وفي سنة 26م تولى بيلاطس حكم القدس فكان بداية للحكم الروماني المباشر. وفي زمن هذا الوالي حدثت وقائع عيسى عليه السلام[1]. وخلال هذه السنوات الطوال؛ أي منذ دخول البابليين أرض فلسطين حتى المؤامرة على السيد المسيح تطور مفهوم المقدس عند اليهود تطوراً ملحوظاً. فمن الطبيعي أن يحصل مثل هذا التطور لأن العقيدة اليهودية جرى عليها تعديلات كثيرة بدءاً من النظرة إلى الذات الإلهية وانتهاءً بالمعاملات والعبادات التي أقرها التلمود البابلي.

وقد وجد في هذه الفترات أنبياء يهود وشخصيات قيادية على المستوى الديني كان لها الأثر الأول في تطور المفهوم العقيدي اليهودي تجاه القدس.

أما القدس فقد اعتبرها أحد أنبيائهم المدعو ميخا مركز الخطايا. وتنبّأ بأنها ستحال إلى كومة أنقاض، وقد توقفت عبارة يهوه في القدس في زمن الملك (آحاز) ثم تجددت، ولكن اليهود ظلوا يذبحون قرابينهم في السواري المقدسة. ولذلك يرد في سفر ميخا أن الرب سيعاقب يهوذا وإسرائيل عقاباً رهيباً وسينزل بهما النهب والموت، وسوف تتحول السامرة وأورشليم إلى كومتين من أنقاض. ويتنبأ ميخا بأن أورشليم بسكانها سوف تُسبى إلى بابل. وفي زمن الملك منسّى أي عام 655 ـ 671 أدخل اليهود إلى معابدهم عبادة الأجرام السماوية تقليداً للآشوريين، واعتبروا هذه الأجرام جند

---

(1) محمد حسن شراب ـ بيت المقدس والمسجد الأقصى ص 60 ـ 61.

السماء، وكان معبد القدس يغص برموز هذه المعبودات، وقد أعيد بناء المرتفعات المقدسة في الجبال أيضاً، وسجد اليهود لكل جند السماء وعبدوها، وقد انتعشت من جديد المعبودات الكنعانية وقد جدد منسّى تقديم القرابين للآلهة المتعددة لكي يسترحمها، ويقول كتاب الملوك: إن منسّى نفسه عافَ وتفاءل واستخدم جاناً وتوابع وأكثر من عمل الشر الذي يغضب يهوه، وكان يسترضي آلهة أخرى بما فيها الأجنبية.

وفي زمن الملك يوشيا - في سفر الملوك الثاني - ادعى حلقيا كاهن معبد القدس أنه عثر على سفر الشريعة، فأخذه الملك يوشيا وقرأه على عامة الشعب وجاء فيه: (هكذا قال يهوه هأنذا جالب شراً على هذا الموضع وعلى سكانه، من أجل أنهم تركوني وأوقدوا لآلهة أخرى لكي يغيظوني بكل عمل أيديهم، فيشتعل غضبي على هذا الموضع ولا ينطفئ) 22: 5 - 20.

بعد ذلك توجّه يوشيا إلى معبد يهوه بأورشليم، حيث جميع رجال يهودا وكل سكان أورشليم معه والكهنة والأنبياء وكل الشعب من الصغير إلى الكبير، وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت يهوه وقطع عهداً أمام يهوه للذهاب وراء يهوه..

بعد ذلك أمر يوشيا الكاهن حلقيا والكهنة وحراس المعبد أن يُخْرِجوا من المعبد الآنية المصنوعة للبعل والسارية ولكل أجناد السماء وأحرقها. ويقول السفر إن يوشيا أباد الخيل التي أعطاها ملوك يهودا للشمس عند مدخل بيت يهوه ومركبات الشمس أحرقها بالنار، والمرتفعات التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتروت رجاسة الصيدونيين ولكموش رجاسة المؤابيين ولملكوم كراهة بني عمون نجّسها الملك، وكسّر التماثيل وقطع السواري، وكذا جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة أزالها يوشيا وذبح جميع كهنة المرتفعات التي هناك على المذابح.

في زمن الملك يوشيا يحاول الكهنة بمعاونة الملك نفسه أن يعيدوا الاعتبار لمعبد يهوه في القدس، وبطريقة ما حرَّض الملكُ الكهنةَ ليصحح مسيرة الارتباط العقيدي بين اليهود ومعبدهم الذي يمثل رمز سلطتهم وليس رمز تقديسهم. والسبب في ذلك

أن الآشوريين آنذاك أخذوا بالانهيار أمام البابليين والفرس، فانتهز اليهود الفرصة ليثوروا على معبودات تبنوها إثر الضغط الآشوري عليهم. ويرد أن يوشيا هدم المعبد اليهودي في السامرة؛ وهذا يعني محاولة القضاء على كلّ المعابد التي تنافس المعبد الرئيسي ليهوه في القدس. لقد شعر اليهود أن هذه المدينة مهددة من قبل القوى المحيطة، فحتى يزداد الربط السياسي بينهم وبين القدس قام يوشيا بمحاولة الإصلاح الديني التي أشرنا إليها.

وسفر إرميا ومراثيه من أكثر أسفار التوراة ارتباطاً بالحديث عن العقيدة اليهودية ومعابدها. فإرميا نفسه نبي سياسي يجمع بين الرؤية السياسية والدينية، ويظهر أنه كان ناقماً نقمة شديدة على التعددية العقيدية لدى اليهود.

يرد في سفر إرميا: (أما ترى ماذا يعملون في مدن يهودا وفي شوارع أورشليم. الأبناء يلتقطون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكاً لملكة السماوات لكي يغيظوني) 7: 17 ـ 18. ولأنه بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا وبعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للخزي.. مذابح للتبخير للبعل 13: 11.

ولإرميا صوت تنبؤي بشأن القدس والمعبد المرتبط بيهوه فيقول: (ويكون هذا البيت وتكون هذه المدينة خربة بلا ساكن). وكانت هذه النبوءة في السنوات الأولى من حكم يهويا قيم وداخل المعبد في أورشليم ذاته.

وفي زمن إرميا سبي اليهود إلى بابل وظل هو في فلسطين حسب اختياره، ومرة أخرى يجري صراع بين إرميا والكهنة ويوضع على إثر الخلاف في زنزانة ثم يهاجم البابليون مرة أخرى القدس، وفي تموز عام 586 اخترقت أسوار القدس واحتلت المدينة وأحرق معبد يهوه.

إلى هذا الحد يمكن أن نرى أن الأنبياء الذين عاصروا انهيار العبادات اليهودية كانوا، بشكل إجمالي، غاضبين على اليهود. ولم يكن معبد القدس سوى معبد للآلهة الوثنية المأخوذة من البابليين والكنعانيين. ويرى القارئ في أسفار الملوك الأول والثاني وما بعدهما أن صفة المعبد أخذت أو ظلت تأخذ طابع الربط مع إلهة أو إله

قومي خاص جداً وهو الإله يـهوه حسب مـا ورد فـي تلـك الأسـفار، إضافـة لما كـان للآلهة الوثنية من أهمية في معبودات اليهود.

إن هذا المعبد الذي سمي بيت الرب، والذي يقول اليهود إنه هيكل سليمان لـم يكن حتى هـذا الوقـت سـوى معبـد وثـني يجمـع الاعـتراف بيـهوه والاعـتراف الآخـر بالآلهة الوثنية المنتشرة في المحيط الفلسطيني واللبناني.

ونرى أن صراعاً دموياً حاداً كان يجري باستمرار بين كهنة المعبد ذوي المصلحـة المالية وبين بعض الأنبياء المصلحين الذين ينادون دوماً بالعودة إلى يهوه، وتنظيف بيت الرب من أرجاس الوثنيـة. وعلـى الغـالـب كـان المنتصـرون كهنـة المعبـد الوثـني الذيـن وجدوا دعماً قوياً من ملوك اليهود، وواضح أن المعتقدات اليهودية والمعبـودات كـانت ذات علاقـة وطيـدة بـالوضع السياسـي والعلاقـات مـع القـوى الكبـيرة فـي المنطقـة كالبابليين والفراعنة. وواضح أيضاً أن نظرة الملوك اليـهود وكهنـة المعبـد كـانت تنطلـق في تعدد عبادتها الوثنيـة مـن خـلال قـوة العلاقـة أو ضعفـها مـع تلـك القـوى الكـبرى آنذاك. لقد غيّبت عبادة يهوه طوال فترة وجود ما يسمى الهيكل، على الرغـم مـن أن يهوه بنظر اليهود هو إله خاص بهم لا يشاركهم في عبادتـه أحـد. ودومـاً كـانوا علـى علاقة وطيدة بالآلهة الوثنية الرامزة لمعبودات الشـعوب المجـاورة والأصليـة فـي المنطقـة التي احتلها اليهود.

والواقع أنه لو قارنا بين ما جاء في التوراة العبرانية وما جاء في التوراة السـامرية لوجدنا أن المعبد المقدس في الرؤيتين هو مكان متعدد الوجوه متعدد الجغرافيا.

فيرد في التوراة العبرانية (حين تعبرون الأردن هذه الحجارة التي أنـا أوصيكـم بها اليوم في جبل عيبال وتكلسها بالكلس. تثنية 4: 27. وفي التوراة السامرية بدل كلمة عيبال تأتي كلمـة جرزيـم وهمـا جبـلان فـي أرض فلسـطين عـبر نـهر الأردن. ومعنى النص أن يبني بنو إسرائيل مسجداً مقدساً في أرض كنعـان إمـا فـي عيبـال أو في جرزيم ويكلسوه بالكلس، وأن يجعلوا السطح أملس مستوياً للتمكن من كتابـة الشريعة عليه.

يقول مفسرو التوراة: وغاية تشييد الحجـارة أن يجعـل سـطحها أملـس مسـتوياً للتمكن من كتابة الشريعة عليها. ولم يذكر ما ترجـم بالشيد هنـا إلا فـي أشـعياء 12: 33 وعاموس 2: 2 وترجم في كل من أشعياء وعاموس بالكلس.

ويهود القدس يعتبرون عيبال مكانـاً مقدسـاً، وقـد زعمـوا أنـهم بنـوا عليـه هيكل سليمان، أما يهود السامرة فيعتبرون جرزيم مكاناً مقدسـاً، وقـد بنـوا عليـه هيكلاً يضارع هيكل سليمان في الفخامة والعظمة، وكـل فريـق يتجـه فـي صلاتـه وحجه إلى جهة هيكله المقدس، ويعتبر ما عداه باطلاً. وظـل الحـال كذلـك حتـى جاء عيسى عليه السلام فسألته امرأة من يهود السامرة قائلة: (آباؤنـا سـجدوا فـي هذا الجبل وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيـه، فقـال لها يسوع: يا امرأة صدقيني أنـه تـأتي سـاعة لا فـي هـذا الجبـل ولا فـي أورشـليم تسجدون للآب (يوحنا 4: 20 ـ 21).

وكلا الفريقين على خطأ عظيم لأن موسى عليه السـلام لـم يحـدد لليـهود قبلـة كما القبلة عند المسلمين فقد قال لهم على لسان اللـه تعـالى: (فـي كـل الأمـاكن التـي فيها أصنع لاسمي ذكراً آتي إليك وأباركك) خروج 20: 24.

واختيار داود جبلاً مـن جبـال القـدس مكانـاً لبنـاء المعبـد هـو اختيـار للاستحسـان وليس للإلزام، لأن بني إسرائيل كانوا متفرقـين فوحَّدَهـم، وجعـل بعـد ذلـك أورشـليم عاصمة لملكهم. ثم أراد بناء الهيكل ليضع فيه التابوت بدل وضعه في خيمة الاجتمـاع؛ إذ الحـال قـد تبـدل، فبعدمـا كـانوا فـي مرحلـة التنقـل كـالبدو الرحـل يسيرون بالتـابوت والخيمة من مكان إلى مكان ومـن قريـة إلـى قريـة أصبـح لـهم ذا أسـاس، فـرأى داود أن يحـل الـهيكل محـل الخيمـة فـي بنـاء ثـابت مسـتقر، ولـم يلزمـهم داود بالتوجـه نحـوه، ولكنهم عظموا الهيكل لوجود التابوت فيه وطـوروا فـي تعظيمـه. ولمـا غرسـه الربـانيون والأحبار في عقول العوام صاروا يتجهون إليه باعتبار أن فيه أثر موسى وهارون.

ولا يمكـن أن تكـون قبلـة داود عليـه السـلام علـى جهـة الإلـزام؛ لأن شـريعة موسى أمرت اليهود أن لا يسمحوا لنبي منهم يشرع لهم بشيء زائـد عمـا فـي كتـاب

موسى، وقد جاء في التثنية: (ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه) تثنية 34/ 10، وهذا هو الدليل الذي يتذرع به يهود السامرة في رفض معبد داود. والحق معهم لأن داود متبع التوراة وليس هو مشرعاً. وهذا هو نفسه الدليل الذي يلزم به السامريون في البعد عن تقديس هيكل جرزيم؛ لأن موسى لم يقدس أي مكان.

يقول أبو الفتح بن أبي الحسن السامري في هذا الموضع: (جاء زوربيل وجماعته اليهود واجتمعوا جميعاً في حرّان، ووقفوا بين يدي «بدي سوردي» الملك - ملك حران - ووقع بينهم وبين السامرة مشاجرة على القبلة، وأقبل السامريون بسِفْر المدرج الكبير من هيكل نينوى وذكروا النصوص التي تدل على أن جبل جرزيم هو القبلة. وأخرج زوربيل مدرجاً وادعى أنه مدرج داود وادعى أنه يدل على أن داود قال: إن الأندر في إيليا، هو القبلة ووقع الجدال بينهم قدام الملك)[1].

نظرة اليهود إلى المعبد أيام السبي البابلي:

إن السبي البابلي الذي أجراه البابليون قضى على كثير من تعاليم اليهود ومن مفهومهم للمعبود ورموزه. وأصبح من الواضح أن بضع عشرات من آلاف اليهود الذين ما توانوا يوماً عن عبادة الأوثان وجدوا أنفسهم في الأسر الجماعي لدى البابليين، وكان لابد في هذه الحالة من الانقسام في معتقداتهم، فمنهم من انخرط بعبادة آلهة البابليين كلياً، ومنهم من بدأ يبحث عن المعبود من جديد ليمنحه صفات جديدة أوسع وأكثر أهمية من ذي قبل، وهذا بالطبع يرتبط برمز المعبد، حيث إنهم أخذوا يفكرون بشكل جدي بالبحث عن المعبد المثالي الذي يعيد لهم بعض قيمهم الدينية، ولذلك فإننا سنجدهم يطورون مفهومهم المقدس، ليأخذوا منحىً دينياً سياسياً حيث افتقدوا في الأسر أي رابط مكاني يربطهم بأرض يقدسون عليها إلههم ويمارسون عليها طقوسهم.

---

(1) أحمد حجازي السقا. نقد التوراة أسفار موسى الخمسة ص 129 - 130.

في فترة السبي التي دامت خمسين سنة ونيّف. وُجد أنبياء يهود ومصلحون، وكتبة أصروا على منح المسبيين شعوراً بالتقوقع والمحافظة على الأقل من تعاليمهم، وسنرى أن هؤلاء الأنبياء نظروا للمعبد نظرة مختلفة أو متطورة نوعاً ما.

وأول ما يطالعنا من هؤلاء، النبي حزقيال الذي بدأ يتنبأ بعد أسره بخمس سنوات، وتقول التوراة إن الرب كلّمه وقال له: يا بن آدم قم على قدميك أنا مرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمة متمردة قد تمردت عَلَيَّ هم وآباؤهم عصوا علي إلى ذات هذا اليوم. 2: 1 ـ 5.

وتتواصل نبوءات حزقيال وصلته بيهوه وفي أحد لقاءاته معه يأمره أن يأخذ موسى ويقص من رأسه ومن لحيته قسماً من الشعر وأن يقسم الشعر المقصوص إلى أجزاء فيحرق جزءاً ويقطع جزءاً بالموسى، ويبدد جزءاً مع الريح ويوضح الإله أنه هكذا فعل بأورشليم ويهوذا، لأنهما رفضتا مشيئة الإله، ولا تتصرفان وفقاً لأحكامه فأصبحتا أكثر كفراً من الوثنيين ولوّثتا بنجاستهما معبده (الإصحاحان 4 و5).

والواقع أن المسبيين بدأوا يشعرون بأهمية الارتباط بأرض ثابتة لهم. ولا شك في أن القدس ستكون هدفهم ما عاشوا فوق أرضها وأكلوا من خيراتها. وعندما يقارنون وضعهم المزري في السبي بوضعهم السابق لابد أنهم سيضعون في مخيلتهم القدس المثالية، القدس التي ترمز إلى وجودهم مجتمعين في ظل ملك منهم.

فمع المرارة مرارة الأسر والسبي، أصبح من المفترض أن يحنوا للماضي، فتصبح القدس بنظرهم الآن أهم بقعة جغرافية في الأرض، لا من حيث قدسيتها بل لأنها رمزت لكيانهم الذي دام ما يقرب من مئتي عام منذ عهد داود حتى سقوط القدس بأيدي البابليين.

ولننظر الآن إلى كيفية تصورهم القدس وهم على ضفاف الفرات في السبي:

جاء في المزمور 136 (على أنهار بابل هناك جلسنا بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف، في وسطها علقنا أعوادنا، لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً. كيف نرنم ترنيمة يهوه في أرض غريبة، إن

نسيتك يا أورشليم تُنسى يميني ، يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا .

ويتبين أن النبي حزقيال كان شاهداً أيضاً على حوادث الخيانة المقيتة من جهة اليهود بحق يهوه ومعبده . فهو يروي مثلاً أنه دخل بيت الرب ، وإذا شكل دبابات وحيوان نجس ، وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط على دائرة ، وواقف قدامها سبعون رجلاً من شيوخ إسرائيل . ويرى حزقيال نسوة يهوديات جالسات يبكين على تموز (تموز إله البابليين) ويقول : (وفي مكان آخر من البهو الداخلي للمعبد بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو هيكل يهوه ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس (حزقيال 8) . وقد شاهد هذه الأشياء في معبد يهوه قبل الأسر البابلي .

ومع مرور أيام السبي فقد اليهود المسبيون أية صلة بالإله يهوه وبمعبده في القدس ، فراحوا يتعبدون لآلهة تلك الأرض التي هم عليها ساكنون .

ويشخص حزقيال السامرة وأورشليم على هيئة زانيتين تخونان على الدوام زوجهما الشرعي ، يهوه مع عشاق آشوريين ومصريين وبابليين . ويرسم هذا النبي لوحات طبيعية للغاية وشهوانية جداً من الفسق (الإصحاح 23) .

والملفت للنظر أن كتبة التوراة ينسبون لإرميا وغيره من الأنبياء بعض الكلام المرتبط بمعبد يهوه . الذي يدخلون فيه تصورهم السياسي وأساليبهم في استعطاف القوى وتحريضها لمساعدة اليهود في إعادتهم لإقامة الهيكل الجديد . فنرى مثلاً في كتاب أخبار الأيام الثاني يتم الاستناد إلى نص نبوءة حول أن يهوه «نبه روح كورش ملك فارس وأمره بأن يبني معبد يهوه في أورشليم ، والمؤلف ينسب هذه النبوءة لإرميا بينما لا يوجد هكذا مداخلة في كتاب إرميا ، بل هي واردة في كتاب أشعيا» 44 : 28 .

ومن المعروف أن كورش ملك فارس وثني أو هو من أتباع الديانة المجوسية التي تستند إلى عبادة النار وتقديسها ، فكيف يمكن لهذا الملك أن يقتنع بأن لإله اليهود بيتاً يجب إعادة بنائه ؟ .

الواقع أن اليهود ساهموا مساهمة فعالة في مساعدة الفرس للقضاء على الدولة البابلية. وهذا ما جرى، وقد أوردت التوراة في سفر (إستير) قصصاً عن قيام اليهود بذبح عشرات من البابليين المسالمين بعد أن استتب الوضع لصالح الفرس وبعد القضاء على الدولة البابلية.

وفي عصر الفرس صار الهمّ الأكبر لزعماء اليهود الدينيين والسياسيين هو دفع عامة اليهود للذهاب إلى فلسطين وبناء معبد يهوه من جديد. وعلى الرغم من نداءاتهم المتكررة فإن غالبية اليهود رفضت الذهاب إلى فلسطين، والسبب في ذلك، كما ورد في المصادر البابلية، أنهم بلغوا شأواً كبيراً وازدهاراً ضخماً واستحوذوا على المال والتجارة، فلم يكونوا يتحفزون للذهاب إلى فلسطين. وحين أصدر كورش مرسومه القاضي بالسماح لليهود بالذهاب إلى فلسطين وإعمار معبد ليهوه لم يسلك الجميع طريق الذهاب فوراً، بل كان الجزء الغالب من الذين ذهبوا إلى فلسطين من الكهنة، وليس من عامة المسبيين وفي سبيل تحريض الكهنة اليهود لبقية اليهود فقد نافقوا نفاقاً شديداً لكورش الملك الفارسي حتى يدفع باتجاه ذهاب اليهود إلى فلسطين. يقول المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس الذي عاش بعد ذلك بكثير أي في القرن الأول بعد الميلاد، في مؤلفه حول التأريخ لليهود (إن اليهوذيين في بابل أخبروا كورش فور دخوله إلى بابل أن انتصاره قد تم التنبؤ به من قبل نبيهم القديم قبل أكثر من قرنين، وأن ذلك، على حدّ الزعم، جعل كورش يصدر مرسومه حول ذهاب اليهوذيين إلى فلسطين)[1].

على أية حال فإن مكوث اليهود في السبي البابلي عشرات السنين أفادهم جداً بالتعرف على حضارة راقية امتازت معابدها بالفخامة. وقد رأى بعض الباحثين أن مقارنة اليهود بين هذه المعابد البابلية، وبين معبدهم بالقدس ومعابدهم الأخرى قد جعلهم يتطلعون إلى معبد على غرار معابد البابليين.

---

(1) آحو يوسف النبوءات التوراتية ص 192.

وربما كان هنالك الكثير من اليهوذيين الذين بدأ يتهيأ لهم أن يهوه هو مجرد إله صغير مقارنة مع إله بابل الجبار مردوخ، كما تفيد بعض المصادر البابلية فإن بعض اليهود في الجيل الثاني راحوا يتزاوجون مع البابليين ويحملون أسماء بابلية، ويقلدون عادات البابليين، ناسين بالتدرج إلههم، وليس مصادفة أن يهوه لدى إشعيا الثاني ينادي: (هوذا من أجل آثامكم قد بعتكم ومن أجل ذنوبكم طلّقت أمكم، لماذا جئت وليس إنسان، ناديت ولا مجيب، هل قصرت يدي عن الفداء وهل ليس فيّ القدرة للإنقاذ) 50: 1 ـ 2[1].

وقد يرى بعض الباحثين أن ديانة يهوه قد خطت خطوة جيدة نحو التوحيد الإلهي، وهذه الخطوة سيلحقها خطوة أخرى في تطور مفهوم المقدس لدى اليهود. فبعد المعاناة القاسية التي ذاقها اليهود في بابل أصبحوا يتوقون إلى معبد مثالي ليس مثله على الأرض، فلذلك سنرى أنبياء التوراة في السبي يشددون على التعلق بالمعبد المقدس المثالي الذي تصوروا أنه سيقام في القدس.

بعد مرحلة السبي ومرحلة السماح لليهود بمغادرة بابل توجه بعضهم إلى فلسطين بشكل إفرادي أو بشكل جماعي صغير، وراحوا يتسربون إلى فلسطين حيث كان الوضع فيها في تلك الأثناء مستتباً، والشعب الكنعاني يعيش آمناً، بينما كان كورش يستعد لشن حملة عسكرية كبيرة على مصر التي كانت ترى أي خطر على أرض كنعان يهدد مصالحها وأراضيها. وكانت مصلحة كورش السياسية أن يعيد اليهود سراً وتسرباً إلى فلسطين ليكونوا عوناً له في زحفه على مصر، والواقع أن نصوص التوراة تتغافل تماماً عن وضع القدس وفلسطين أثناء رحيل اليهود مرة أخرى إلى فلسطين، وتصف التوراة الأرض بأنها ليس فيها بشر، وأن اليهود رجعوا إلى القدس دون أي عقبات، وراحوا يعيدون تعمير معبد يهوه، وامتد تشييدهم له عشرين عاماً حسب نص التوراة. أما أين سكان البلد الأصليون. فهم في التوراة مغيبون لا ذكر لهم على الإطلاق، وكأن فلسطين بقيت خراباً سبعين سنة تنتظر عودة

---

(1) آحو يوسف. النبوءات التوراتية ص 193.

اليهود إليها ليعيدوا تعميرها . لكن التوراة تشير إشارات واضحة إلى اليهود الذين لم يسبوا ، وتقول عنهم إنهم عرفوا بالوثنية وأنهم نسوا نهائياً معبد القدس . .

لم يستقر الوضع للفرس في فلسطين والساحل السوري ، ففي سنة 332 ق . م استولى الإسكندر على فلسطين ودخل القدس . ومن طبيعة الشخصية اليهودية أن يوالي اليهود القوة الصاعدة على مسرح الأحداث . فبعد أن أعانوا الفرس ضد بابل انقلبوا ضدهم عندما جاء الإسكندر ، وقد تحدث عن دخول الإسكندر القدس المؤرخ اليهودي يوسيفوس المتوفى عام 100 ق . م في تاريخه فقال (رحل الإسكندر متوجهاً إلى أورشليم ، فلما سمع اليهود بمجيئه إليهم خافوا منه ، فلما علم الكاهن الأكبر جمع اليهود الذين هناك وأمرهم فصاموا وصلوا وتصدقوا وقصدوا الله عز وجل ، وسألوه الكفاءة ، ثم خرجوا يستقبلون الإسكندر لما قرب من المدينة وعظيم الكهنة قدامهم ، ثم إن الكاهن الأكبر لقي إسكندر بالإكرام والإجلال ومضى معه حتى أدخله القدس[1] .

وكما تَسمَّى اليهود إبّان الحكم الفارسي بأسماء فارسية ، فإنهم عندما دخل الإسكندر الهيكل ، على حد قول التوراة ، قال الكاهن متملقاً : (طلبت من جميع الكهنة أن يسموا كل مولود ذكر يولد لهم في هذه السنة إسكندر ، وأن يدعوا لك كلما دخلوا الهيكل[2] .

ولما حكم أنطيوخس الرابع 175 ـ 163 ق . م ضغط على اليهود ليتركوا تقاليدهم . عاملهم شر معاملة فهدم أسوار القدس ودك حصونها ، ونهب الهيكل وذبح الخنازير على مذبحه ، ووضع عليه تماثيل يونانية . ثم في عام 104 ق . م احتل السلوقيون القدس مرة أخرى وهدموا حصونها .

وفي عام 63 ق . م هاجم القائد الروماني (بومبي) القدس ، فهدم أسوارها وحصونها ثم في عام 54 ق . م قام القائد الروماني (كراسس) بنهب الهيكل وأخذ كل خزائنه .

---

(1) تاريخ يوسيفوس ص 27 ـ 28 نقلاً عن كتاب مصطفى الدباغ بلادنا فلسطين ص 55 .

(2) المصدر السابق .

وفي عام 40 ق. م تمكن الفرس من الاستيلاء على بلاد الشام وضمنها القدس، لكن الرومان تمكنوا بعد سنتين أي عام 38 ق. م من طرد الفرس واستعادة البلاد تحت الاستعمار الروماني.

وحكم هيرودس القدس عام 37 ق. م وقد جدد في بناء هيكل القدس إرضاء لليهود الذين كانوا يبغضونه. ولم يعمر هذا الهيكل طويلاً فقد هدمه الرومان يوم تدميرهم القدس سنة 70م.

ويقول المؤرخون إن السيد المسيح عليه السلام، ولد في آخر سنة من حكم هيرودس. وبعده حكم الرومان القدس حكماً مباشراً. ومن ولاتهم بيلاطس النبطي الذي حدثت وقائع السيد المسيح في عهده.

ونلاحظ في غالبية المدونات التاريخية إغفالاً واضحاً للسُّكّان الكنعانيين العرب الذين كانوا يعيشون في القدس وبقية البلدان والقرى الفلسطينية.

وتورد بعض المصادر أن مدينة غزة استعصت على الإسكندر وجيشه، فحاصرها طويلاً ثم دك أسوارها وأجرى فيها مذبحة مروّعة، وكانت مدينة غزة فلسطينية السكان والحكم، ولم يستطع اليهود ولا في أي حقبة زمنية احتلالها.

والانتقال من حكم الفرس إلى حكم اليونان لم يغيّر شيئاً من الأحداث في فلسطين باستثناء مقاومة مدينتي صور وغزة الزحف المقدوني. لقد عانى الكنعانيون الكثير من الفرس واليهود المتعاونين.

ويرى الباحثون أن اليهود في أثناء الحقبة اليونانية توجهوا من القدس وفلسطين إلى مصر ـ الإسكندرية حيث تمت هناك أول ترجمة للتوراة إلى اليونانية.

أما بالنسبة للأماكن المقدسة التقليدية للقبائل (شكيم وبيت إيل وشيلوه) كانت في الشمال، ولهذا كان اتخاذ أورشليم مركزاً للسلطة وعاصمة ومقراً لتابوت العهد بقرار سياسي بحت من داود قد بدا في نظر سكان السامرة إلغاءً للتقاليد، واغتصاباً للسطلة من قبل داود المنتمي إلى يهودا، وقد عمل سقوط السلوقيين بعد هزيمتهم أمام الرومان على حرمان أورشليم من دعم الملك

أنتيخوس، فاستغل السامريون ذلك لإحداث انقسام حقيقي جِدِّي، فراحوا يمارسون عبادتهم ليس في أورشليم بل في الجبل القديم المقدس (جرزيم بدءاً من حكم انتيخوس الرابع، ومنذ ذلك الحين صار ينظر إلى السامريين من قبل كهنة أورشليم على أنهم جاحدون مدنّسون)[1].

وتؤكد النصوص اليونانية المكتشفة في الأردن أن معظم سكان فلسطين أيام الرومان كانوا من العرب، وهناك مهاجرون آخرون قدموا مثل سائر الموجات السابقة منذ ثلاثة آلاف عام من جزيرة العرب، فأقاموا مملكة الأنباط في القرن الرابع ق.م.

وحين بدأ السيد المسيح دعوته للعودة إلى التوحيد غضب كهنة اليهود، وصب المسيح جام غضبه على كهنة الهيكل (يقول إنجيل لوقا 19/ 45 ـ 47) ولما دخل الهيكل ابتدأ يُخْرِج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه قائلاً لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلوات وأنتم جعلتموه مغارة لصوص، وكان يُعَلِّم كل يوم في الهيكل، وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه، ولم يجدوا ما يفعلون لأن الشعب كله كان متعلقاً به يسمع منه.

وفي إنجيل متى 21/ 12 و13 (ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلاة يدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص).

هذا ولا بد أن الصيارفة وباعة الحمام وغيرهم قدَّموا الرشوة للكهنة للحصول على محلات ضمن حدود الهيكل المقدسة.

فمن الواضح أن ما يسمى الهيكل ظل على حاله منذ أيام سليمان كما تقول التوراة. لقد كان مكاناً تعبد فيه الآلهة الوثنية، ثم صار مكاناً لجماعة اللصوص وباعة الحمام. وهذا ما يؤكد ما قلناه من أن هذا الهيكل ليس له صلة بالإله الواحد، بل هو مكان عبادة للبشر صنعوا فيه الأوثان والأصنام التي تمثل آلهة الشعوب آنذاك.

---

(1) روجيه غارودي. فلسطين أرض الرسالات السماوية ص 101 ـ 102.

وقد دمرت أورشليم تدميراً كاملاً، وقد تم هذا وفقاً لتحذير السيد المسيح (ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل فتقدم تلاميذه لكي يُرُوه أبنية الهيكل فقال لهم يسوع ما تنظرون، الحق أقول لكم إنه لا يُترك ههنا حجر على حجر لا ينقض).

وبقيت أورشليم خربة مدة طويلة لا يسكنها إلا حامية رومانية، ثم دمرت المدينة نهائياً زمن هدريان وحرث موقعها الذي كانت قائمة عليه، وقتل عدداً كبيراً من اليهود وسبى عدداً يتجاوز عدد القتلى، ثم منعهم من دخول القدس والسكن فيها بل من الدنو منها، وقد سمح للمسيحيين أن يقيموا فيها على ألاّ يكونوا من أصل يهودي، وسمى المدينة إيليا كابيتولينا.

يقول ابن البطريق المؤرخ القاهري حول تدمير هدريان بيت المقدس: وهذا خراب بيت المقدس، فمن اليهود من هرب إلى مصر وإلى الجبال والغور، وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودي، وأن تقتل اليهود ويستأصل جنسهم، وأن يسكن المدينة اليونانيون، وأن تسمى باسم الملك إيليا فسميت بيت المقدس منذ ذلك الوقت إلى هذه الغاية مدينة إيليا، فسكنها اليونانيون وبنوا على باب الهيكل الذي يقال له البهاء برجاً، وصيروا فوقه لوحاً كبيراً وكتبوا اسم الملك إيليا.

وقد أمر الملك الإمبراطور ببناء هيكل (للمشتري) على أنقاض هيرودوس ونصب تماثاله بالقرب من الصخرة المشرفة.

وعندما تبنى الإمبراطور قسطنطين المسيحية 306 ـ 337 جعل الديانة المسيحية هي الرسمية في البلاد، وجاءت والدته هيلانة إليها عام 326م للعثور على مواقع الحوادث المهمة التي حدثت للمسيح، ولبناء الكنائس تذكاراً لها. . وأمرت بهدم هيكل المشتري والتماثيل التي أقامها هدريان، وقامت ببناء كنيسة القيامة التي يعتقد المسيحيون أنها ضمت قبر السيد المسيح قبل رفعه إلى السماء، وقد تم تدشينها عام 335م.

ويقال أن كنيسة العذراء بنيت عام 529م في موقع الهيكل. وقد بنيت كنائس كثيرة في ذلك العهد.

بقيت القدس متمتعة بسلام طويل منذ طرد اليهود منها عام 135 إلى سنة 614، وهي السنة التي هاجمت فيها جيوش الفرس الإمبراطورية الرومانية فاحتلت بلاد الشام، ودخلت القدس عام 614 بعد أن انضم إليهم أكثر من 20 ألف يهودي اجتمعوا من عدة بلاد، وأشعلوا النيران بكنيسة القيامة وسويت على الأرض. وكان لليهود اليد الطولى في الخراب والدمار والنهب والسلب والتدمير. وقدر عدد القتلى من المسيحيين بالقدس أكثر من 60 ألف نسمة دفن نحو 500 ـ منهم في (ماملا)، ولم يُذكر أي تشييد لما يسمى الهيكل، ثم عادت القدس إلى الرومان عام 626. وبقيت هكذا مدة عشر سنوات أي إلى عام 636 عندما زحف المسلمون وحرروا القدس وفلسطين وسائر بلاد العرب من الاستعمار الروماني. .

لقد بدا واضحاً أن ما يسمى الهيكل، وهو الهيكل الثاني الذي بني بعد مجيء اليهود إلى فلسطين من السبي البابلي، لم يعد له أثر في الوجود طوال أكثر من خمسمائة عام؛ أي طوال فتح الحكم الروماني واستعماره فلسطين. وإذا أضفنا أربعة عشر قرناً في ظل الحكم الإسلامي منذ انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك أصبح لدينا ما يقرب من ألفي عام لا وجود فيها لأي أثر من آثار ما يسمى الهيكل أو معبد يهوه، وبعد ألفي عام من الاندثار وعدم الوجود من يستطيع أن يثبت أن هنا في بيت المقدس كان يقبع ما يسمى هيكلاً لليهود؟

أما وضع القدس والمعابد فيها في ظل الحكم العربي الإسلامي فنجعله في بحث لاحق؛ لأنه يرتبط بالرؤية الإسلامية لبيت المقدس المستندة على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

الفصل الثالث
القدس في منظور الحركة الصهيونية اليهودية والصهيونية الغربية

ظهرت قبل الحركة الصهيونية المنظمة عام 1897 ، أي قبل مؤتمر بال الذي عقد بقيادة ثيودور هرتزل عدة دعوات صهيونية تجسدت أحياناً بدعوات فردية وأحياناً أخرى بدعوات جماعية نادت بها بعض الحركات والمنظمات الصهيونية ، خاصة في أوروبا الشرقية ، وقد بدأ ظهور هذه الدعوات تقريباً منذ عام 1798 على أيدي بعض الحاخامات ، من هؤلاء يهودا القالي ، وهو من أسرة يهودية صربية كانت تسكن في سراييفو. وقد زار هذا الحاخام القدس في صباه وخضع لتأثير نزعات القبالة اليهودية في صوفيتها وميلها الشديد إلى الحلول والتناسخ وتفسيرها الرمزي لجميع الأعداد والحروف في التلمود ، وبدأ يعبر في كتاباته عن ضرورة القيام بمجهود إنساني خاص لتحقيق خلاص اليهود ، فنشر كتاباً أسماه (اسمعي يا إسرائيل) ، واقترح فيه إقامة مستعمرات في فلسطين لكي تكون مقدمة للخلاص المنتظر ، ولكي يتم ذلك يجب السعي لدى السلطان العثماني من أجل درّ العطف على اليهود والعودة الجماعية إلى (الأرض الخراب) كما يسميها .

وهاجر القالي إلى فلسطين في عامِه السبعين وأنهى آخر أيامه في القدس حيث توفي عام 1878 .

دعا القالي للهجرة إلى فلسطين باعتبارها، حسب رؤيته، أرض الخلاص لليهود، لكنه في مقالاته لم يركز على القدس كرمز للسيادة الاستيطانية اليهودية، أو كرمز للمقدس اليهودي، ومع ذلك كان يصف فلسطين كلها بالأرض المقدسة.

ويظهر بعده الحاخام زفي هيرش كاليشر 1795 ـ 1884 وهو من بولونيا، وكان من أهم أفكاره إبراز علاقة ما بين اليهودية والأرض المقدسة، ولذلك دعا إلى هجرة اليهود إلى فلسطين والسكن في القدس، وكان أيضاً من أهم أسس دعوته مساعدة اليهود المهاجرين بالمال، وشراء الكروم والبساتين والعمل بها تمهيداً للخلاص اليهودي الشامل الذي يعيد اليهود إلى فلسطين، ولم يتضح أيضاً في مقالاته مفهوم المقدس الخاص الذي يرتبط بالقدس.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن المفكرين الصهاينة الأوائل لم يجرؤوا على الحديث عن القدس، خاصة أن الخلافة العثمانية كانت وصية على المسجد الأقصى ولا تستطيع الدعوات اليهودية أن تتمادى في الحديث عن القدس ما دامت أن السلطة العثمانية المسلمة هي حامية للقدس والمقدسات الإسلامية.

وفي عام 1862 خرج لنا المفكر اليهودي الألماني موسى هس بكتابه المعنون (روما والقدس) وقد ركز في أحد جوانبه على مفهوم العودة اليهودية، فاستفاد من مقولات النبي أشعيا التي ترى أن الرب غفر خطايا إسرائيل، وأنه يَعِدُ اليهود بإقامة مجده الرباني في القدس. يقول: (ولكي نبعث الأمة اليهودية إلى الحياة ثانية يتوجب علينا أن نبقي فكرة البعث السياسي لأمتنا حية أولاً، وأن نوقظ هذا الأمل حيث بدأ يغط بسبات عميق ثانياً، وعندما تتهيأ الظروف السياسية في الشرق لدرجة تسمح لتنظيم عودة الدولة اليهودية للحياة تكون هذه العودة بتأسيس مستعمرات في أرض أجدادنا ولاشك أن المساعي الفرنسية تمد لنا يد العون.

ويقول: وكما يوافق اليهود على العودة إلى فلسطين فإنه يضع شرطاً وهو أن يعاد التقليد الديني للتضحية إلى القدس الجديدة).

ومن المفكرين اليهود الذين نظروا إلى القدس نظرة رومانسية، واختلفوا مع الحركة الصهيونية المفكر والشاعر العبري (حاييم نخمن بيالك). وقد ألقى كلمة في حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس في 4/ 1/ 1925م، وقد أكد فيها الارتباط الرومانسي بين اليهودي وبين أرض فلسطين. يقول في معرض كلمته: (وفي هذا اليوم ستصل الأنباء السارة إلى جميع عائلات إسرائيل المبعثرة في كل مكان بأول وتد في عملية تشييد القدس العالمية، فقد ثبت اليوم وللأبد. وركز بيالك على التمسك بالتوراة ولو كان ذلك على حساب بناء الهيكل فيقول: (دراسة التوراة أهم كثيراً من بناء الهيكل) (معرفة التوراة تحتل مرتبة أسمى من الكهنوتية أو الملكية) ويقول داعياً الشباب اليهود إلى الهجرة: (إنه من الواجب علينا أن نشغل مثل هذه النار المقدسة ضمن جدران البيت الذي افتتحناه الآن على جبل سكوبس؛ فلْيبنِ هؤلاء الشباب القدس الأرضية بالنار، ولْيبنِ الذين يعملون داخل هذا البيت القدس السماوية بالنار أيضاً[1].

ومع بداية القرن العشرين ظهر عدد من المفكرين الصهاينة نظروا للقدس أنها مركز سياسي ورمز لسلطة دولة يهودية في القديم والحديث. ومن أمثلة هؤلاء المدعو ميخاجوزف بيرديشفسكي، فهو يرى أن انهيار المركز السياسي اليهودي تم عندما دمر الهيكل، ويرى أن الأهم في الحياة اليهودية هو الإسرائيلي، أو كما يقول: لكن الشعب اليهودي يأتي أولاً. إسرائيل قبل التوراة. وقد ربط جميع مفكري الحركة الصهيونية بين الانبعاث القومي وتحقيق الذات اليهودية وبين الهجرة إلى الأرض الفلسطينية والاستيطان فيها.

ولعل من أبرز المفكرين الصهاينة الذين عالجوا قضية القدس ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر الصهيوني الأسبق. وقد نظر إليها أنها قضية سياسية قبل أن ينظر لها قضيةً دينية. فهو يرى أنه ليس هنالك من تربطه بها علاقات تبلغ في القدم الروابط التي تشد اليهود إليها. ويرى غولدمان أن الحجج التاريخية عند الفئات الأخرى هي في الحدود التي يمكن لها أن تشكل قاعدة للحلول السياسية ليست بمثل الشرعية وبمثل المتانة التي

---

(1) الفكرة الصهيونية النصوص الأساسية. صفحة 179.

هي عند الشعب اليهودي. ويدعي غولدمان أنه ولا واحدة من تلك الشعوب أو الفئات عاشت في وقت من الأوقات في القدس الموغلة في القدم[1].

ويدّعي غولدمان: أن واقعة تشكيل السواد الأعظم من سكان القدس خلال القرون الأخيرة كان من العرب لا يعتبر مسوغاً قانونياً للمطالبة بالقدس.

ثم يرى أنه من حق إسرائيل الشرعي أن يسمح لها بجعل المدينة بكاملها عاصمة لها بفعل التعلق اليهودي خلال ألف عام بالمدينة.

لكن غولدمان نفسه يعترف أن عدداً من الحاخامات اليهود أكدوا خاصة بعد عام 1967، عندما ضم الكيان الصهيوني القدس لكيانه، أنه لا وجود لنصوص تلمودية تأمر وتنهى بشأن ضم القدس. يقول غولدمان: عندما قررت الحكومة الإسرائيلية بعد حرب 1967 بقليل ضم القدس اقترح السيد موشي حاييم شابير، الذي كان آنذاك رئيس حزب المتدينين (مزراحي) ضد قرار الضم، وكان رجلاً معتدلاً يتمتع بحكمة سياسية واسعة. لقد نفى هذا العلاّمة نفياً قاطعاً أن يكون هنالك أوامر ونواهٍ ذات أصل ديني تنص على ضرورة ضم القدس.

ويرى غولدمان أنه في حالة تخصيص كيان قانوني للمدينة القديمة لن يكون هنالك من داعٍ للتأشيرة الإسرائيلية، بل تمهر الجوازات بتأشيرات خاصة بمدينة القدس، تكون من الوجهة القانونية لا يهودية ولا إسلامية ولا عربية. وعندما يحظى هذا الاقتراح بالقبول سيتكشف عن إمكانات غنية، فتصبح القدس من جديد مركزاً دينياً وحضارياً كبيراً بالنسبة للديانات الكبرى الثلاث التي هي مدينتها المقدسة.

ويعتبر هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة من أكثر المفكرين اليهود تناولاً لمسألة القدس، فهو بوصفه الداعية الأول للحركة الصهيونية، وباعث التوجه الصهيوني لاحتلال فلسطين يرى في مسألة العلاقة بين اليهود والقدس رأياً متطرفاً أو أكثر حدية من غيره من المفكرين الصهاينة.

---

(1) ناحوم غولدمان - إسرائيل إلى أين صفحة 76.

فهرتزل يزور القدس عندما كانت في ظل الحكم العثماني، فيرى أنها مدينة لا يمكن أن تعجبه. يقول في يومياته: (عندما أتذكرك في المستقبل أيتها القدس فلن تكون ذاكرتي سعيدة، إن عفونة ألفي سنة من اللاإنسانية والظلم والوسخ تنبعث رائحتها من الشوارع الضيقة. إن الرجل الذي كان موجوداً فيها طيلة ذلك الوقت الناصري الحاكم المحبوب لعب دوراً في زيادة الكراهية[1].

ويقول: إذا ما حصلنا على القدس يوماً، وإذا كنت لا أزال نشيطاً أستطيع أن أقوم بالأعمال، فسأبدأ بتنظيفها قبل أي شيء، وسأبدأ بإزالة كل ما ليس مقدساً.

وقبل نهاية القرن الماضي حاول هرتزل كسب عطف القيصر الروسي، لكن قيصر روسيا رفض استقباله والتعاطف معه. ولكي ينفذ هرتزل خطته آنذاك، طرح رؤيةً لحل مشكلة الأماكن المقدسة في فلسطين، فيرى أنه يمكن إيجاد حل للأماكن المقدسة؛ وذلك بوضعها خارج نطاق الحكم باتفاق جميع القوى، وبإعادة تنظيم الأحوال ستكون الأماكن المقدسة في مأمن أفضل مما هي عليه الآن؛ الأمر الذي يكون أفضل لمشاعر العالم الإسلامي[2].

واستكمالاً لتنفيذ المشروع المتعلق بالقدس، حضر إليها وفد يمثل اللجنة الصهيونية في لندن برئاسة حاييم وايزمان، وذلك في شهر نيسان 1918م.

وفي أيار من عام 1918 طلب وايزمان من السلطة العسكرية التوسط لشراء الممر المؤدي لما يسمى حائط المبكى. وقدم ثمانين ألف جنيه ثمناً. ولكن أهل القدس رفضوا ذلك بالإجماع.

وفي آذار عام 1925 قام بلفور بزيارة فلسطين لافتتاح الجامعة العبرية في القدس، ودعي أحمد لطفي السيد رئيس الجامعة المصرية إلى حضور الاحتفال فحضر على رأس وفد مصري[3].

---

(1) يوميات هرتزل ص 119.

(2) يوميات هرتزل ص 132.

(3) محمد حسن شراب بيت المقدس والمسجد الأقصى. صفحة 223.

وقد حاول اليهود عام 1929 الاستيلاء على حائط البراق في المسجد الأقصى فقامت ثورة في شهر آب من قبل المسلمين والمسيحيين العرب في فلسطين وأسقطت هذه المحاولة، ويدّعي اليهود أن حائط البراق هو حائط المبكى.

وقد غادر الإنجليز القدس يوم الجمعة 14 أيار عام 1948 بعد أن خلقوا الظروف المناسبة محلياً وعربياً ودولياً لاستيلاء اليهود على فلسطين المحتلة سنة 1948م، وبعد عام 1967، وإثر نكسة حزيران، استولى جيش العدو الصهيوني على القدس وعلى المسجد الأقصى، وقام اليهود بسلسلة أعمال الهدم لأملاك العرب داخل السور وخارجه. فقد أزالوا 135 داراً في حي المغاربة وهدموا مسجدين في ذلك الحي، ثم هدموا 14 داراً من الدور الأثرية والدينية بحجة توسيع كشف امتداد الحائط الغربي للحرم الشريف المسمى بحائط البراق الشريف، وفي عام 1967 أيضاً أقر البرلمان الصهيوني ضم القدس العربية إلى القدس الغربية وحلت بلدية القدس، وفي عام 1968 أقدم الصهاينة على حرق المسجد الأقصى ومحاولة إزالته. وبدأت المرحلة الأولى في أواخر عام 1967 وتّمت سنة 1968، وجرت على امتداد 70 متراً من أسفل الحائط الجنوبي للحرم القدسي. ووصل عمق هذه الحفريات إلى 14 متراً. والمرحلة الثانية تمت سنة 1969 وجرت على امتداد 80م أخرى من سور الحرم القدسي. والمرحلة الثالثة بدئ بها منذ عام 1970 واستمرت حتى نهاية 1971، وعلى امتداد 180 متراً. والمرحلتان الرابعة والخامسة بدئ بهما سنة 1973 واستمرتا حتى عام 1974 في موقع خلف الحائط الجنوبي. والمرحلة السادسة، وبدئ بها أوائل 1975. والمرحلة السابعة وهي مشروع تعميق ساحة البراق الشريف التي يدّعون أنها ساحة المبكى. والمرحلة الثامنة وتتناول منطقة تقع خلف الجدران الجنوبية للمسجد وتهدف إلى الكشف عما يسمى بمدافن ملوك إسرائيل. وقد نشب خلاف حولها بين جماعة ناطوري كارتا (حراس المدينة) التي تطالب بوقف الحفر وفِرَقِ الحفر التابعة لوزارة الأديان. والمرحلة التاسعة إلى نفق قديم اكتشف عام 1980. وقد مَنَح الصهاينة النفق

في عام 1996 لحركة اليهود، ما أدى إلى اندلاع انتفاضة الشعب الفلسطيني وجرت اشتباكات دموية راح ضحيتها أكثر من 70 فلسطينياً، وقتل أكثر من 11 صهيونياً. وكانت الهيئة الإسلامية للمسجد الأقصى قد أغلقت طرفي النفق عام 1981 في 9/3 أثناء الإضراب العام الذي شمل الضفة الغربية كلها احتجاجاً على حفريات النفق. إلا أن حكومة الليكود بزعامة نتنياهو أقرت فتح النفق مدعية أنه نفق أقيم زمن مملكة داود أو سليمان.

وقد سجلت الوقائع عشرات المحاولات اليهودية لاقتحام المسجد الأقصى وحرقه أو وضع متفجرات تحت أسواره. وكان الحاخامون اليهود أكثر المحاولين لنسف المسجد الأقصى.

ولعل موضوعة القدس في الرؤية الصهيونية تتجلى بشكل كبير لدى الحركات الصهيونية التي أنشئت داخل فلسطين المحتلة بتأييد مباشر وغير مباشر من حكومات *العدو الصهيوني المتتالية، وهذه الحركات كانت بجميع الأشكال مسؤولة عن* المحاولات الجادة لتدمير المسجد الأقصى.

من أهم هذه المنظمات والحركات حركة كاخ التي كان يتزعمها الإرهابي الحاخام مائير كاهانا، الذي قُتِل في أميركا قبل سنوات.

فكاهانا ينكر وجهة النظر السائدة بشأن القدس الموروثة لأرض (إسرائيل) فهو يرى أن هذه الأرض هي وسيلة وأداة في أيدي اليهود تساعدهم في تحقيق مصيرهم.

يقول كاهانا: (إن وجود الغرباء من غير اليهود في هذه الأرض هو رمز لإنكار سيادة الخالق ومقدرته على توزيع الأرض كما يشاء، وكذلك سيادته على العالم. إن أعظم تدنيس لاسم الرب هو إنكار هؤلاء الغرباء لحق اليهود في هذه الأرض أي إنكار سيادة الرب الذي خصص أرضاً معينة لشعب معين) ويقول: (إن وجود عرب في فلسطين هو تحقير لاسم الرب لذا فإن طردهم عمل ديني قبل أن يكون عملاً سياسياً. ومن أهم الحركات الصهيونية وأخطرها بشأن القدس حركة أمناء الهيكل. وتقوم نظرية

هذه الحركة على أن إعادة بناء الهيكل مهمة ملحة وأولية لدى اليهود وهذا يتطلب تدمير المسجد الأقصى ومسجد عمر وجميع المقدسات الإسلامية في القدس.

وكان من أعنف المحاولات لتدمير الأقصى ما حدث يوم 9/ 8/ 1981 الذي يصادف ما يسمى بخراب الهيكل. حيث حاولت مجموعة كبيرة من أتباع الحركة التسلل أكثر من مرة ومن عدة أبواب إلى داخل الحرم القدسي. وقد كسروا باب المغاربة وصعدوا إلى بناية التنكزية، وقد جاءت محاولتهم لفرض الأمر الواقع اليهودي على الحرم القدسي ضمن خطة مرسومة، وفي 31/ 3/ 1983 تمكن بعض أفراد الحركة من الوصول إلى المسجد الأقصى، وفي هذه الأثناء كانت الصحافة الصهيونية تطالب في مقالاتها وتعليقاتها بالسماح لليهود بالدخول إلى الأقصى.

وحاولت هذه الحركة الدخول للأقصى في 10/ 4/ 1982 فتصدى لأعضائها حراس المسجد، فاستغل جندي صهيوني يدعى (إيلي جوتمان) ذلك واقتحم الحرم القدسي، وهو يطلق النار مما أدى إلى استشهاد عربيين وسقوط 120 جريحاً وحدوث حرائق في سجاد قبة الصخرة.

وفي ليلة الجمعة الموافق 27/ 1/ 1984 قامت مجموعة مسلحة من هذه الحركة بمحاولة لنسف الحرم القدسي بعد اقتحامه من الناحية الشرقية بالقرب من باب الرحمة.

أما المجزرة التي قامت بها الحركة يوم الاثنين 8/ 10/ 1990 فقد دُبرت مسبقاً، حيث إن الحركة كانت قد حضرت حجر أساس لوضعه في ساحة الحرم إذا أمكن؛ ليكون حجر الأساس لإقامة الهيكل المزعوم، وكانت الشرطة وعناصر الجيش تعرف مسبقاً بذلك، وتعرف أيضاً أن المسلمين لن يسكتوا على ذلك فإذا ما حاولوا منع أعضاء الحركة فإنهم يمطرون المسلمين بالرصاص. وفعلاً فقد حصل ذلك وحين بدأ المسلمون برشق جنود الاحتلال بالحجارة انهال الجنود مع أفراد الشرطة على المسلمين بإطلاق النار والغاز ما أدى إلى استشهاد ثلاثة وعشرين مسلماً، وجرح أكثر من

أربعمائة حسب المصادر. وقد انتشرت الجثث في ساحة الحرم وسالت الدماء هنا وهناك وعلى الرغم من ذلك فقد صرح حاخام حركة أمناء الهيكل أنه يجب العمل على طرد الفلسطينيين بأي وسيلة ولو كانت وسيلة القتل والإبادة.

ومازال الاحتلال الصهيوني يفتعل كل يوم سبباً لاقتحام المسجد الأقصى وتشريد المسلمين، وإقامة الحفريات في جوانب المسجد؛ حتى ينهار ويقيموا الهيكل الثالث حسب رؤيتهم.

لقد درج الزعماء الصهاينة من متدينين وعلمانيين على ربط القدس باليهود. فحزب العمل الذي شكل من عصابة الهاغاناة وغيرها من المنظمات الإرهابية شن عدة حروب ضد الفلسطينيين والعرب، واحتل القدس عام 1967. وجميع هؤلاء الزعماء كانوا وما يزالون يطلقون التصريحات حول القدس بأنها عاصمة لكيانهم حتى الأبد، وقد أصبح العرب من مسلمين ومسيحيين أقلية بالنسبة لليهود في المدينة المقدسة؛ بسبب الضعف العربي والتفكك وبسبب الإصرار الصهيوني على البقاء على الأرض المقدسية والفلسطينية بشكل عام.

لقد صرحت غولدا مائير رئيسة وزراء العدو الصهيوني عام 1969 بالحرف أنه (لا يوجد شعب فلسطين، وهذا لا يعني أننا في طريقنا لوضعهم في الميناء وأخذ أراضيهم، إنهم غير موجودين[1]. . أما مناحيم بيغن فنراه يدلي في أوسلو لجريدة دافار 12/ 12/ 1978 بتصريح يقول فيه: (لقد عدنا لهذه الأرض ولنا الحق فيها).

ويقول موشي دايان وزير حرب العدو إبان نكسة حزيران 1967: (عندما يكون لدينا التوراة، وعندما نعتبر أنفسنا شعب التوراة يكون من حقنا أن نمتلك الأرض التوراتية، أرض الحكماء القضاة وأنبياء القدس وأريحا وأماكن أخرى[2].

---

(1) في تصريح لصحيفة الصنداي تايمز 15 حزيران 1969.

(2) جيروزاليم بوست 10 آب 1967.

وعندما دخل الجيش الصهيوني القدس، دعا موشي ديان وغيره من الزعماء الصهاينة السياسيين والمتدينين إليها وقال يومها: ها نحن عدنا يا قدس ولن نخرج أبداً).

وبعد الإعلان الصهيوني بأن القدس الموحدة عاصمة الكيان الصهيوني الأبدية أقام الجيش الصهيوني عرضاً عسكرياً فيها، ليؤكد مقولته ويثبت رؤيته بقوة السلاح. وفي عام 1993 أعلن الكيان الصهيوني أنهم أحرارُ اليد في عمل ما يريدون بالقدس، ومسألة هدم الأقصى وبناء الهيكل مسألة وقت ليس أكثر، حسب ما صرح به أكثر من زعيم صهيوني.

الإنجيلية الصهيونية والقدس

منذ ظهور المسيحية واليهود يكيدون للمسيحيين على مختلف انتماءاتهم المذهبية، فمنذ أن ظهرت المسيحية في روما في القرن الثالث الميلادي دس اليهود أفكارهم التوراتية في كثير من تعاليم المسيحية الأوروبية، لكنّ الكنيسة الكاثوليكية تشدّدت تجاه اليهود واعتبرتهم الأكثر عداوة للمسيح. وقد ظلت الكنيسة الكاثوليكية تحمّل اليهود دم المسيح وتشيع بين أتباعها هذه المقولات حتى قامت حرب دموية ضد اليهود في كثير من بلدان أوروبا. وخلال ألف وسبعمائة عام ظل موقف الكنيسة من اليهود موقفاً معادياً حتى المجمع المسكوني الثاني في الفاتيكان عام 1964. وعلى إثر الضغوطات المستمرة عبر مئات السنين اضطر بعض اليهود لاعتناق المسيحية. ودخلت الكنيسة ذاتها معترك الحياة الدينية من عدة أبواب. فمن ناحية همشت روما القدس وأصبحت مركز المرجعية الدينية المسيحية الكاثوليكية، وبعد عام 590م أصبحت روما مصدر السلطة المسيحية. وانبثق عن ذلك موقف كنسي معادٍ للسامية أساسه جعل اليهود يتحملون وحدهم دم المسيح كما قلنا، وترتب عليه أيضاً نظرة خاصة للتوراة - العهد القديم - هذه النظرة تقوم على تفسير التوراة ولا سيما نبوءات الأنبياء تفسيراً رمزياً وليس حرفياً، واعتبرت الكنيسة أتباعها أرقى عرقاً وأرقى إنسانية، ما دعم بروز تيارات قومية غربية تدّعي التفوق.

والواقع أنه، استناداً على هذه النظرة، برزت حروب دينية شنتها الكنيسة الأوروبية على الكفار - أي المسلمين واليهود على حد زعمهم - ففي الحروب الصليبية شن الغربيون حرباً دموية ضد المسلمين واليهود على السواء، وبدأت منذ ذلك الوقت سلسلة من المجازر الدموية والعنصرية ضد كل ما هو غير كاثوليكي، ففي بريطانيا وفرنسا واسبانيا شنت حملات تصفية لليهود أو طرد، وكذلك فعلت روسيا القيصرية، فكانت مسرحاً لمذابح كبرى لليهود عام 1648 على يد القوزاق.

لقد نظرت أوروبا لليهود نظرة عداء، فبعد أن أجرت بحقهم مذابح عديدة رأى الغربيون أن لا خلاص لأوروبا إلا بطرد اليهود كافة وخلاص البلاد الأوروبية منهم، وقد جرت محاولات عديدة لإيجاد صيغة لطردهم من أوروبا. إلا أن اليهود الذين تنصّروا ظلوا يدفعون باتجاه تغيير الموقف الديني الأوروبي تجاههم وتجاه التوراة. وبدأت الثورة التنويرية الأوروبية تعيد النظر في العلاقة بين العهد القديم، التوراة، والعهد الجديد. وعندما ترجمت التوراة إلى اللغة الألمانية على يد مارتن لوثر بدأت الحركة البروتستانتية التي كانت قد قويت آنذاك، تنظر إلى التوراة نظرة مغايرة للكنيسة الكاثوليكية.

وقد أصبحت التوراة في متناول الجماهير الأوروبية الشعبية، ولم تعد حكراً على رجال اللاهوت، وهذا ما ساعد الحركة البروتستانتية على تفسير التوراة تفسيراً حرفياً وليس رمزياً كما كان معهوداً لدى الكاثوليك وكنيسة روما.

لقد صار البروتستانت ينظرون إلى ما جاءت به التوراة نظرة قدسية خاصة.

فالوعد الإلهي بامتلاك الأرض الموعودة، ومقولة الشعب المختار، أصبحتا من أهم الأمور التي يؤمنون بها.

ومنذ بداية القرن السابع عشر راحت نداءات الحركة البروتستانتية تنتشر هنا وهناك، وتبني لأفكارها صروحاً قوية في بريطانيا خاصة، حتى بدا الاتجاه القائل بشعب الله المختار وعودة المسيح واليهود إلى الأرض المقدسة، من أقوى الاتجاهات المسيطرة على البرلمان البريطاني رغم معارضة ملوك بريطانيا له.

ويرى الكثيرون أن الصهيونية المسيحية بدأت في بريطانيا قوية منذ عام 1621، حين نشر الحقوقي الإنجليزي عضو البرلمان المدعو (هنري فنش) كتاباً بعنوان (البعث العظيم للعالم) أو نداء إلى اليهود وإلى جميع الأمم والممالك في الأرض للإيمان بالمسيح. وهذا الكتاب يرفض التفسير الرمزي للتوراة ويوصي صاحبه بقراءة التوراة قراءة حرفية فيقول فيه: (حينما تذكر إسرائيل ويهوذا وصهيون وأورشليم في التوراة فالله لا يعني بذلك إسرائيل روحية، ولا يعني كنيسة الله تجمع في صفوفها الأمم

واليهود المتنصرين، ولكن يعني بإسرائيل تلك التي تحدّرت من نسل يعقوب، وقُل الأمر نفسه فيما يخص العودة إلى أرضهم وانتصارهم على أعدائهم. فاليهود هم المعنيون حقاً وصدقاً بالتحرير، وليس المسيح هو الذي يحرر البشر)، وقد دان البرلمان الإنجليزي حينذاك هذا الاتجاه المتزمت القائل بعودة المسيح بعد ألف عام، واعتبره الملك جاك الأول 1603 ـ 1625 أمراً خطيراً. ولكن هذا الاتجاه بقي حجر الزاوية في الصهيونية المسيحية)[1].

وفي منتصف القرن السابع عشر تقريباً أصبحت السلطة البرلمانية في إنجلترا بيد البروتستانت المتزمتين المتعصبين واليهود، وقد كانوا يسمّون بالطهوريين ـ ومنهم بدأت الهجرة إلى أميركا بشكل واسع حيث اندمجوا مع اليهود المهاجرين مثلهم اندماجاً عقائدياً واجتماعياً، حتى إنهم نظروا إلى فتوحاتهم في أميركا ضد الهنود الحمر بأنها أشبه ما تكون بما جاءت به التوراة عن فتوحات يوشع والقادة العبرانيين في أرض كنعان.

فالتغييرات اللاهوتية في الحركة الدينية الجديدة ـ البروتستانتية روّجت لفكرة أن اليهود أمة مختارة، ونادت كما رأينا بعودتهم إلى فلسطين. فإعادة اكتشاف العهد القديم (التوراة) في الحركة البروتستانتية كعنصر أساسي في مفاهيم الحركة بعد أن كان مهملاً من قبل الكاثوليكية، قد عزز من النزعة اليهودية ودعم وجهة نظرها في الأوساط المسيحية الجديدة، وأصبحت فلسطين بذلك أرضاً يهودية في الفكر المسيحي في أوروبا البروتستانتية.

بدأ من وقتها الاهتمام بتحقيق النبوءات التوراتية، ولاسيما ما يسمى بالعصر الألفي السعيد، وهو الاعتقاد بعودة المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة في الأرض تدوم ألف عام. وبدا أن القرن السادس عشر كان بداية التركيز على شخصية اليهود، وقد استمرت الحركة في الانتشار عبر القرون اللاحقة إلى أن بلغت ذروتها في القرن

---

(1) روجيه غارودي: فلسطين أرض الرسالات السماوية ص 143.

العشرين مع مذهب (العصمة الحرفية) الأميركي الذي يقول بأن (إسرائيل) الحالية هي التحقيق الواقعي للنبوءة في العصر الحديث[1].

وعندما نعود إلى ما قلناه عن نفوذ اليهود والبروتستانتية في بريطانيا نرى أنه في عام 1649 أرسل استرحام للحكومة الإنجليزية جاء فيه:

(ليكن شعب إنجلترا وسكان الأراضي المنخفضة أول من يحمل أبناء وبنات إسرائيل على سفنهم إلى الأرض التي وعد بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب لتكون إرثهم الأبدي). وكان اللذان بعثا الاسترحام هما (جوانا واينزر وكارترايت الإنجليزيين البيورتيانيين المقيمين في أمستردام). وكان أولفر كرمويل الذي بقي نحو عشر سنوات رئيساً للكومنولث البيورتياني 1649 ـ 1658 متعصباً دينياً وسياسياً يؤمن بالذرائع. ومن أجل حل مشكلة السماح لليهود بالعودة إلى إنجلترا دعا مؤتمر رايت هول عام 1655 لبحث مشروعية تلك العودة وظروفها[2].

والواقع أن المسيحية الصهيونية أبرزت أفكارها تجاه التوراة والنبوءات التوراتية من خلال منظورين؛ الأول سياسي والثاني أدبي.

وقد ارتبط المفهوم السياسي بمتناقضين في الطرح. فمن جانب يرى مؤيدو الصهيونية وحرفية التوراة أن قيام وطن قومي لليهود يخلص أوروبا من شرور اليهود.

وقد صرح بذلك مارتن لوثر نفسه حينما قال عام 1544: (من يمنع اليهود من العودة إلى أرض يهوذا؟ لا أحد. سوف نزودهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم لا لشيء إلا لنتخلص منهم، إنهم عبء ثقيل علينا. إنهم مصيبة كبيرة على وجودنا) يقول روجيه غارودي: (إن تلك الخلفية الفكرية التي كانت لدى لوثر أصل الصهيونية المسيحية، هي نفسها التي كانت لدى بلفور الذي وفر للصهيونية السياسية انتصارها الأول، حينما كان آرثور بلفور رئيس وزراء إنجلترا وناصر قضية الحد من هجرة

---

(1) النفوذ الصهيوني في السياسة الفرنسية ـ رسالة الجهاد ليبيا ص 21.

(2) المصدر السابق ص 25.

اليهود إلى إنجلترا، وقد اتهمه المؤتمر الصهيوني السابع بمعاداته السافرة للشعب اليهودي وهذه اللاسامية المتأصلة لدى بلفور كانت تتفق تمام الاتفاق طوال حياته قبل عام 1905 وبعده مع الفكرة الصهيونية المطالبة بتخصيص أرض لليهود بغية تحقيق هدف واحد وهو إبعادهم عن إنجلترا، وكان بلفور قد وعد اليهود منذ عام 1903 بإعطائهم أرض أوغندا وفي عام 1917 وانسجاماً مع أهدافه في حربه مع ألمانيا كتب إلى اللورد روتشلد تصريحه المتضمن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين)[1].

ومن جانب آخر فقد رأى منظرو الصهيونية غير اليهودية أن قيام دولة إسرائيلية سيكون رأس جسر للزحف الاستعماري نحو الشرق.

لقد بدأت عملياً نظرة تجميع اليهود في فلسطين وإعادة بناء الهيكل في زمن نابليون بونابرت الذي أطلق عليه بعض الباحثين، نابليون الإمبراطور الصهيوني، فقد أُعطي اليهود بعد الثورة الفرنسية حق المواطنة، ومنحوا الجنسية الفرنسية، وقد أعدت حكومة الإدارة الفرنسية خطة عام 1798 لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين في حال انتصار الفرنسيين في الشرق.

وقد أصدر نابليون بمجرد وصول حملته إلى مصر بياناً حث فيه اليهود على الالتفاف حول رايته من أجل إعادة بناء (مملكة القدس)، ثم وجه نداء آخر أثناء حصار عكا جاء فيه (من نابيون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين، أيها الإسرائيليون أيها الشعب الفريد الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبهم اسمهم ووجودهم القومي، وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد فقط) ويتابع بيانه: (أدركوا أن عتقاء الله سيعودون لصهيون وهم يغنون وسيولد الابتهاج بتملكهم لإرثهم دون إزعاج فرحاً دائماً في نفوسهم). ويقول: (إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به والذي يقوده العدل

---

(1) روجيه غارودي ـ فلسطين أرض الرسالات السماوية ص 147.

ويواكبه النصر جعل (القدس) مقراً لقيادتي وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تعد ترهب مدينة داود)[1].

وفي ربيع 1799 أصدر نابليون بياناً طلب فيه من يهود إفريقيا وآسيا أن يقاتلوا تحت لوائه لإعادة إنشاء (مملكة القدس القديمة).

وكان الممثل الرئيسي للصهيونية غير اليهودية في حقبة نابليون المدعو آرنست لاهاران السكرتير الخاص لنابليون الذي يؤيد خطط نابليون الاستعمارية. وقد عبر عن فكرته بإقامة مملكة اليهود الجديدة بقوله: (يا لهم من مثل يحتذى ويالهم من جنس. إننا نحني رؤوسنا لكم أيها الرجال الأشداء. لقد كنتم أقوياء بعد مأساة القدس؛ لأنكم كنتم كذلك طول تاريخكم القديم، وإن الباقين منكم ممكن أن ينهضوا من جديد ويعيدوا بناء بوابات القدس).

وفي عام 1885 قال الحاخام غودمان لهرتزل: (كأنني أرى موسى بلحمه وعظمه ربما كنت ذاك الذي اصطفاه الله) في هذه الأثناء كان كثيرون من زعماء الصهيونية غير اليهودية يتملقون هرتزل ويحضون على استعمار القدس وفلسطين.

فالقس وليم هتشلر الذي استحوذت على عقله نبوءة حزقيال بعدما فرغ من قراءة كتاب هرتزل الدولة اليهودية اقتحم مكتب هرتزل وقال: أنت هو الذي كنت أنتظره، أنت المسيح المنتظر. وكذلك الأب أغناطيوس عام 1837 ـ 1908 الذي تحمس للصهيونية، وكان يتحدث دائماً عن بعث مملكة يهوذا ووصف هرتزل بقوله: هو يشوعكم الجديد الذي جاء لتحقيق نبوءة حزقيال، إن الصهيونية هي تحقيق لكلمات حزقيال النبي، وقال: اليهودية هي الصهيونية والصهيونية هي يهودية الله. والقس هتشلر الذي اقتحم مكتب هرتزل قائلاً أنت المسيح المنتظر جاء بصحبة هرتزل إلى مؤتمر بال بسويسرا عام 1897 معتبراً نفسه سكرتير المسيح المنتظر هرتزل، وطالما كان يردد في الاجتماع يحيا الملك معتبراً مسيحه هرتزل ملك الملوك، وقد قال في إحدى

(1) النفوذ الصهيوني في السياسة الفرنسية ـ كتاب رسالة الجهاد ص 31 ـ 32.

مقالاته استفيقوا يا أبناء إبراهيم فالله يدعوكم للرجوع إلى وطنكم القديم ويريد أن يكون إلهكم. وقد بشر هذا القس إسرائيل حسب فهمه للتوراة تفسيره لنبوءاتها أنها ستعود إلى فلسطين قبل عودة المسيح الثانية الذي يأتي ملكاً مجيداً يتربع على عرش القدس ويحكم العالم من هناك ملكاً للملوك، وفي عام 1884 أصدر كراساً بعنوان إرجاع اليهود إلى فلسطين حسبما ورد في أسفار الأنبياء. وهو يرى أن عودة اليهود إلى أرض الميعاد قد بدأت بالفعل. ويؤيد هذه الرؤيا بآيات من العهد الجديد أخرجها بالتفسير والتأويل عن مدلولها الظاهر فإذا هي تعني ماضي فكره وتوافق هواه. قال: إن بعض نبوءات المسيح قد تحققت منذ قديم الزمان مثل الآية (ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين) لوقا 22 ـ 25 والآية (ويقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم، وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكمل أزمنة الأمم) لوقا 21 ـ 24.

وتظهر صهيونية القس الإنجيلي في حملِهِ خريطة فلسطين وقوله لهرتزل: (يجب أن تكون حدودنا الشمالية جبال كبادوكيا، والجنوبية قناة السويس وشعارنا فلسطين داود وسليمان).

وكثير من المسيحيين الغربيين، إن لم نقل أغلبهم، قد آزروا الصهيونية لاعتقادهم بأن نبوءات التوراة حول عودة اليهود إلى فلسطين واقعة حتماً، ولذلك قال وايزمان «إن من الأسباب الرئيسية لفوز اليهود في الحصول على تصريح بلفور من بريطانيا بإنشاء الوطن القومي اليهودي هو شعور الشعب البريطاني المتأثر بالتوراة».

وكان لفرنسا نصيبها من الصهيونيين المؤمنين بالعصر الألفي السعيد، وكان ممثلهم البارز هو إسحاق لابيرير 1594 ـ 1676م الذي كتب (دعوة اليهود) ودعا إلى إحياء (إسرائيل بتوطين اليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) على الرغم من اعتناقه المسيحية. وقد بعث استرحامه إلى ملوك فرنسا، ولكن رسالته لم تنشر إلا بعد قرنين من الزمان، حين دعا نابليون إلى اجتماع السنهدريم اليهودي عام 1806، وقد تنبأ

قسيس فرنسي يدعى بيير جوريو بإعادة تأسيس مملكة يهودية في فلسطين قبل انتهاء القرن السابع عشر. وقد ظهرت أفكار الصهيونية غير اليهودية في كثير من الإبداعات الأدبية، وغدت أفكار العهد القديم (التوراة) أكثر مصادر الإلهام لفناني وشعراء العهد الجديد (الإنجيل) ليس في إنجلترا فحسب بل في القارة الأوروبية كذلك. وهكذا ظهرت معادلة فلسطين بكل مضامينها الصهيونية.

وكانت قصيدة ملتون الشهيرة (الفردوس المستعاد) قد تحدثت عن عودة إسرائيل (لعل الله الذي يعرف الوقت المناسب جيداً سيذكر أبناء إبراهيم وسيعيدهم نادمين وصادقين، وسيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم، كما شق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم للأرض الموعودة. إنني أتركهم لعنايته وللزمن الذي يختاره).

واستعملت الصورة الصهيونية عن القدس اليهودية الجديدة في ترانيم القرن الثامن عشر، وأبرزها تلك التي كتبها (تشالس وزلي) وقرب نهاية القرن الثامن عشر خاطب وليم بليك اليهود بهذه الأبيات:

(استيقظي يا إنجلترا. استيقظي استيقظي. فأختك القدس تناديك. لماذا ينام هؤلاء المؤمنون كالأموات ويغلقونها عن جدرانك القديمة).

أما في القارة الأوروبية فقد ظهرت موضوعات عبرية توراتية في الأدب الفرنسي، وكان العهد القديم (التوراة) مصدراً لموضوعات (دجين باتبيست راسين) الفرنسي الكلاسيكي، ولا تزال مأساته إستير التي كتبها عام 1689 تعد واحدة من أهم الدراما الفرنسية.

وسارت فلسطين ـ والقدس ـ واليهود جنباً إلى جنب في الأفكار الصهيونية، وقد تصور (برستلي) فلسطين أرضاً غير مأهولة بالسكان أهملها مغتصبوها الأتراك ولكنها مشتاقة مستعدة لاستقبال اليهود العائدين)[1].

---

(1) النفوذ الصهيوني في السياسة الفرنسية ـ كتاب رسالة الجهاد ص 28 ـ 29.

وتظهر دولة (إسرائيل) المستقبلية في كتابات جان جاك روسو وهو مواطن من جنيف ينحدر من أسرة بروتستانتية، فقد جاء في كتاب روسو عن التعليم عام 1762م: (لن نعرف الدوافع الداخلية لليهود أبداً حتى نُكَوِّن لهم دولتهم الحرة ومدارسهم وجامعاتهم). وكتب باسكال إن (إسرائيل هي البشير الرمزي للمسيح المنتظر).

وقد كان للصهيونية غير اليهودية في الولايات المتحدة الدور المهم في تأييد الكيان الصهيوني ودعمه مالياً ومعنوياً. فأكثرية الأمريكان من البروتستانت المتأثرين، إلى حد بعيد، بنبوءات التوراة وعودة اليهود إلى فلسطين، حتى إن رجال الكنيسة البروتستانتية أخذوا يتدخلون متشددين لتأييد اليهود، ففي عام 1945 وقَّع نحو خمسة آلاف قسيس منهم مذكرة رفعوها إلى الحكومة طالبين فيها فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية.

ولعل أكثر من ألقى الضوء على علاقة الصهيونية الإنجيلية مع الصهيونية اليهودية الكاتبة الأمريكية غريس هالسل في كتابها المسمى بالنبوءة والسياسة. وقد سلطت الضوء بشكل قوي على تلك العلاقة باعتبارها من المستشارين الهامين لبعض الرؤساء الأمريكيين. فهي على صلة وثيقة بخفايا السياسة الأميركية ومواقفها تجاه الصراع العربي - الصهيوني.

تقول في معرض تعريفها لكتابها: (ولكن قلة قليلة تدرك أن التحالف الصهيوني الأمريكي الفريد والخاص، يرجع بالإضافة للعوامل السابقة وفي المقام الأول، إلى دوافع وأسس دينية عميقة الجذور في البنية الثقافية المسيحية، وإلى الخلفية التوراتية في العقل الأمريكي، كما أن قلة قليلة من المثقفين تدرك أن الفكرة الصهيونية قد ولدت في أحضان المسيحية البروتستانتية قبل هرتزل بقرون)[1].

ويمكن أن ندرك ذلك من خلال ما قاله الرئيس السابق ريغن عام 1984 في كنيس يهودي في نيويورك: (جميعنا هنا اليوم من أحفاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب أبناء وبنات الإله نفسه).

---

(1) مجلة رسالة الجهاد العدد 85 (1990).

وتُسَلِّط هالسل الضوء على كتاب خطير اسمه (آخر أعظم كرة أرضية) الذي بيع منه 18 مليون نسخة في السبعينيات، وتكمن خلاصة الكتاب في قول مؤلفه (هول لندسي) إن الله قضى علينا أن نخوض غمار حرب نووية (هرمجّدون) والخطر هنا أن لندسي يوظف نبوءات الكتاب المقدس لتأصيل نظريته هذه.

وترى الكاتبة أن أصول نظرية هرمجدون تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع سايروس سكوفيلد وجون داربي اللذين أسسا مفهومهما عن المسيحية على أساس النبوءات التوراتية والإنجيلية، واستنتجا أن لله مخططاً على الأرض من أجل إسرائيل ومخططاً في السماء من أجل خلاص المسيحيين.

تذكر الكاتبة هالسل أن البروتستانت الأصوليين يعتقدون أن النبوءة الإنجيلية تقضي بأن على اليهود أن يدمروا المسجد الأقصى ويبنوا الهيكل مكانه، ويعتبرون الإرهابيين اليهود الذين حاولوا مراراً تدمير الأقصى أبطالاً، ويدعمون الحركات الصهيونية الإرهابية التي تخطط للعدوان على المقدسات الإسلامية. كما يعتبر هؤلاء أن قيام الكيان الصهيوني وإعادة بناء الهيكل، وبناء ما يسمى بإسرائيل الكبرى شرط لعودة المسيح ليحكم الأرض ألف سنة في جنة أرضية تنعم بالسلام المطلق. وتورد الكاتبة على لسان المدعو فولويل زعيم منظمة (الأكثرية الأخلاقية الأميركية) وأحد أقطاب حتمية الدمار النووي في هرمجدون قوله: (أنت وأنا نعرف أنه لن يكون هناك سلام حقيقي في الشرق الأوسط إلى أن يأتي يوم يجلس الإله المسيح على عرش داود في القدس. إن هذا اليوم مقبل وستكون أنت وأنا جزءاً منه).

وفي حديث إلى الإنجيلي (هارولد برتسون) أكد (ريغن) أن إعادة توحيد القدس تحت العلم الصهيوني هو تحقيق لنبوءة إنجيلية.

وفي عام 1980 قال ريغن أمام مجموعة من القادة اليهود: إسرائيل هي الديمقراطية الثابتة الوحيدة التي يمكن أن نعتمد عليها موقعاً لحدوث هرمجدون.

ولعل الفصل السابع من كتاب غريس هالسل هو الأهم من بين الفصول فيما يتعلق بموضوع القدس، وتبين كيف يعد الصهاينة العدة لتدمير المسجد الأقصى

ومسجد الصخرة وبناء الهيكل مكانهما، وكيف أعدوا مواد البناء والتحف التي تستعمل في الهيكل.

وتسجل الكاتبة هنا أن الصهاينة المسيحيين يعتقدون أن إعادة بناء الهيكل هي نبوءة توراتية، إرادة إلهية لابد أن تحدث وأن على المسيحيين أن يساعدوا الصهاينة لتهديم المسجد الأقصى وبناء الهيكل. وتختم الفصل السابع بقولها: (على الرغم من أن المسيح دعا إلى إقامة المعابد في النفس فإن الأصوليين المسيحيين يصرّون على أن الله يريد أكثر من بناء معبد روحي. إنه يريد معبداً حقيقياً من الإسمنت والحجارة يقام تماما في الموقع الذي توجد فيه الصروح الإسلامية).

وتتحدث الكاتبة في الفصل الثامن حول الجهود المحمومة التي يقوم بها المسيحيون الصهاينة لمساعدة الإرهابيين الصهاينة على تدمير المقدسات الإسلامية في القدس، وتتحدث فيه عن المنظمات التي أنشؤوها لجمع التبرعات من الأمريكيين لهذا الغرض، ومنها (بناء المعبد) ومنظمة (الأغلبية الأخلاقية) و(السفارة المسيحية الدولية).

وتذكر المؤلفة أن منظمة مؤسسة (معبد القدس) قد قدمت أموالاً كبيرة للمحامين الذين دافعوا عن 29 إرهابياً صهيونياً حاولوا نسف المسجد الأقصى عام 1983، وأن هذه المنظمة تقدم الدعم المتواصل لمعهد (ميشيفا) اليهودي الذي يعد الكهنة للخدمة في الهيكل الذي يخططون لإعادة بنائه.

وتتناول في الفصل العاشر المؤتمر المسيحي الصهيوني الأول الذي عقد عام 1985 برعاية السفارة المسيحية الدولية. وحضره 589 شخصاً من المسيحيين الصهاينة من 27 دولة. وحث هذا المؤتمر في توصياته جميع اليهود إلى الهجرة إلى الكيان الصهيوني، وحث العدو الصهيوني على ضم الضفة الغربية، وطالب المؤتمر الولايات المتحدة وجميع دول العالم بالاعتراف بضم القدس ونقل سفاراتها إليها.

وتؤكد الكاتبة في خاتمة كتابها أن الطريق الذي يسير فيه التحالف المسيحي الصهيوني واليهودي الصهيوني ينذر بحدوث كارثة نووية تدمر العالم.

القرار الأمريكي بشأن القدس تمهيد لهدم الأقصى:

ليس مفاجئاً ولا مفاجأة أن يقر الكونغرس الأميركي بأن القدس عاصمة للكيان الصهيوني، وليس غريباً أن يصادق على هذا القرار الرئيس الأمريكي بالسرعة المطلوبة. فللتصديق عليه أبعاد ودلالات وحيثيات، وفي توقيته أكثر من معنى وأكثر من دلالة. فالمسألة تعود إلى الوراء كثيراً وليست بنت ساعتها.

ماذا يعني هذا القرار وماذا يعني التصديق عليه؟

في غمرة الأحداث التي يعيشها العالم، ويعيشها العرب والمسلمون، بدأت خطوات عملية أميركية، لتحطيم كل من يعارض السياسة الدولية الأميركية. بدأت بأفغانستان على أيدي قوات أميركية وأخرى متحالفة معها، وتوحشت في فلسطين على أيدي قوات الاحتلال الصهيوني، وانتقلت إلى العراق حيث تقرع طبول الحرب على الأبواب. وما بين هذه الخطوات تمتد الأصوات صارخة بإنزال أشد العقوبات بالمسلمين الذين يقفون وجهاً لوجه مع العولمة الأميركية وتسوّد الأغنياء والعنصريين من صهاينة وأنكلوساكسون.

الولايات المتحدة أقامت الكيان الصهيوني في عام 1948 بعد أن بدأت مشروعها بقرار التقسيم، حيث رفعت العصا بوجه أعضاء الهيئة الدولية كي يقروا بإقامة دولة يهودية إن شاؤوا وإن أبوا. ومنذ ذلك الوقت نفخت الولايات المتحدة الروح في الكيان الصهيوني، وأمدته بكل مقومات الحياة والقوة، حتى وصل بعد أربعة وخمسين عاماً إلى قوة ضاربة في الشرق الأوسط.

وحين نقرأ العقل الأميركي بشكل جيد، ندرك أن اعترافه بالقدس عاصمة للكيان الصهيوني على المستوى العملي، حاصل وفعلي ليس من اليوم بل منذ زمن بعيد، وعلى أقل تقدير منذ عام 1967. أما على المستوى النظري فتعود المسألة إلى زمن سيطرة التيار الأصولي المسيحي البروتستانتي على السياسة الأميركية والغربية بشكل عام منذ القرن السادس عشر حتى اليوم.

عندما قامت حرب حزيران عام 1967 واستولى الصهاينة على القدس والمسجد الأقصى، رأت المسيحية الصهيونية الأميركية في ذلك دليلاً آخر على قرب نهاية الزمان، لأن الله، حسب زعمهم، سيحقق نبوءات العهد القديم، التي تنص على إقامة الهيكل اليهودي. وقد كتب (نيلسون بل) في كبرى الصحف الإنجليكانية (إن وقوع القدس اليوم للمرة الأولى منذ ألفي سنة في أيدي اليهود ليَهزُّ دارس الكتاب المقدس. ويمنح إيماناً متجدداً في دقة الكتاب المقدس وصحته).

ويقول رونالد ريغان الرئيس الأميركي السابق: (إن إعادة توحيد القدس تحت العلم الصهيوني هو تحقيق لنبوءة إنجيلية).

وفي عام 1980 فتحت السفارة المسيحية أبوابها في القدس، في احتفال حضره آنذاك تيدي كوليك رئيس ما يسمى بلدية القدس وممثلون عن حكومة بيغن. وكانت غايتها إنشاء سفارة في القدس من أجل مسيحيي العالم الذين يودون تأييد سياسات الكيان الصهيوني.

ولم تتوان حكومة الولايات المتحدة في عهد كلينتون، عن الإعلان عن عزمها إقامة سفارة للولايات المتحدة في القدس. وكانت حكومة الكيان قد حددت المكان الذي ستقام عليه السفارة، على الرغم من أن الأرض التي ستقام عليها هي ملك للفلسطينيين وليس ملكاً لأحد. ولكن سياسة الصهاينة أساساً تقوم على مبدأ أن أرض فلسطين هي ملك اليهود حصراً. إذاً فقرار بوش والكونغرس بالاعتراف بالقدس بما فيها الأماكن الإسلامية المقدسة عاصمة للكيان الصهيوني، هو قرار قديم لم يكن مفاجئاً أو طارئاً.

ماذا يعني توقيت القرار؟

إن القارئ للأحداث يدرك أن الولايات المتحدة حددت توقيتاً خاصاً جداً للإعلان عن القرار. فبعد سنة على أحداث 11 أيلول، وبعد أن شنت الولايات المتحدة حرب الإبادة على المسلمين في أفغانستان، وجدت نفسها عاجزة عن تحقيق أهدافها المعلنة في القضاء على التيارات الإسلامية المعادية لها. وفي الوقت نفسه ومنذ سنة

اشتدت الحملة الصهيونية على أبناء فلسطين، وراح الجيش الصهيوني يطبق سياسة الأرض المحروقة، فنسف آلاف المنازل، ودمر الأراضي، واعتقل الآلاف من أبناء فلسطين واغتال وقتل الآلاف الآخرين. وفي نفس الإطار بدأ التوجه الأميركي نحو ضرب العراق وكذلك التلويح بتغيير بعض الأنظمة العربية التي تدعي أميركا أنها تغذي الإسلام الإرهابي على حد زعمها. وبمعنى من المعاني، فإن الحملة الأميركية الصهيونية المتعددة الاتجاهات، استمرت وتستمر بوتيرة متصاعدة سياسياً وعسكرياً. وبعد أن درست أميركا ردود الأفعال العربية والإسلامية، وجدت أن العرب والمسلمين أصبحوا بلا إرادة ولا حول لهم ولا قوة، وستبقى ردود أفعالهم أقل بكثير من الحد الأدنى. وهذا هو الوقت المناسب للإعلان عن اعترافها بالقدس عاصمة للكيان الصهيوني.

وحتى تكون عملية الإذلال للعرب والمسلمين أكبر وأشد طعناً فقد اختارت التوقيت الذي يحتفل فيه المسلمون والعرب بذكرى الإسراء والمعراج المرتبطة بالمسجد الأقصى والقدس. فهذه الذكرى الهامة في حياة الأمة الإسلامية، تربط المسلمين بالمسجد الأقصى وتجعلهم، في الحد الأدنى، يفكرون بالمصير الذي ينتظر مقدساتهم وأهمها المسجد الأقصى، فأرادت الولايات المتحدة أن تبعث رسالة لهذا العالم العربي والإسلامي مفادها التهديد والوعيد والإذلال.

القرار تمهيد لنسف الأقصى:

وعندما ننظر إلى ردود الأفعال العربية والإسلامية على القرار الأميركي، ندرك أن الولايات المتحدة نفضت يدها من أي التزامات مع العرب والمسلمين، خاصة هؤلاء الذين يرون فيها صديقة وحليفة. وقد أثبت الواقع أن أميركا بطبيعتها الصليبية الصهيونية، لا يمكن أن تكون صديقة لأحد سوى الكيان الصهيوني، فإذا كانت ردود الأفعال العربية والإسلامية على هذا المستوى الضعيف جداً، فإن ذلك يعطي الضوء الأخضر للخطوة القادمة، وهي هدم المسجد الأقصى، وإقامة ما يسمى الهيكل الثالث فوق أنقاضه. وعندها ماذا يفعل العرب والمسلمون؟ لن يفعلوا شيئاً، لأنهم

فقدوا الإرادة، وعشش في نفوسهم الوهن والرعب وحب الدنيا والحفاظ على مكتسباتهم الدنيوية القابلة للزوال إن عاجلاً أو آجلاً.

أما الموقف الأميركي تجاه هدم الأقصى، فسيكون موقف المؤيد والمتحمس والدافع لتشييد الهيكل ومحو أي أثر إسلامي. فأتباع الصهيونية غير اليهودية في أميركا يعتقدون أن إعادة بناء الهيكل، هي نبوءة توراتية وإرادة إلهية لابد أن تحدث. وأن على المسيحيين أن يساعدوا اليهود لتهديم الأقصى وبناء الهيكل، ويرون: أن الله يريد أكثر من بناء معبد روحي، إنه يريد معبداً حقيقياً من الإسمنت والحجارة، ويُقام تماماً في الموقع الذي توجد فيه الصروح الإسلامية. ويرون أن لله مخططاً على الأرض من أجل «إسرائيل» ومخططاً في السماء من أجل خلاص المسيحيين. ويرى في هذه المقولة أن على اليهود تدمير المسجد الأقصى وبناء الهيكل على أنقاضه.

الكيان الصهيوني الحليف البديل:

عندما أصدر الكونغرس الأميركي قراره وصادق عليه بوش كانت أميركا تقوم بأكبر تحرك سياسي في أوروبا وهيئة الأمم المتحدة؛ لحشد إجماع دولي لضرب العراق، لكن حسابات الولايات المتحدة لم تكن صحيحة بالقدر الكافي. فبريطانيا حسمت أمرها منذ البداية، فهي حليف لأميركا بكل الأشكال. ولكن بريطانيا ليست طوني بلير وحده، فهناك في مجلس العموم تتزايد الأصوات المندّدة بالحرب على العراق، والشعب البريطاني منقسم على نفسه في هذا الإطار، حتى إن مسيرة الأربعمائة ألف التي جرت في لندن قالت بصوت مرتفع: (لا لتحالف بلير مع واشنطن). ولابد لهذا الاعتراض من أثر على سياسة الحكومة البريطانية، وإن لم يظهر عاجلاً فإنه لابد أن يؤثر أجلاً. بينما أفصحت فرنسا وكذلك ألمانيا عن رفضهما القاطع للحرب ضد العراق، ما شجع روسيا للميل نحو رفض الحرب، على الرغم من وضوح قلق ما على السياسة الروسية تجاه الأزمة.

إن كل تلك المواقف دفعت الولايات المتحدة أكثر فأكثر نحو الكيان الصهيوني، على اعتباره الأكثر استجابة للتوجه الأميركي، والأكثر قابلية للمغامرة في حرب ضد

العراق والأمة العربية. وكان لابد في هذا السياق، من أن تمنح الولايات المتحدة مكافأة للكيان الصهيوني على موقفه، ولم تجد أميركا سوى الاعتراف بأن القدس عاصمة لهذا الكيان. وهذا ما يمهد الطريق أمام شارون للإقدام على خطوة قاصمة، وهي تدمير المسجد الأقصى والشروع ببناء ما يسمى الهيكل على أنقاضه.

والواقع أن المصالح جميعها تتباين. فلكل مصلحته تجاه ما يحدث، بريطانيا لها مصلحة، وكذلك فرنسا وروسيا وغيرهما. ولكن المصلحة الكبرى تأتي لصالح الكيان الصهيوني، وهذا ما لا يخفى على الولايات المتحدة. فساسة الصهاينة يدفعون منذ زمن بعيد باتجاه الحرب وإشراكهم فيها. ولعل في هذا الإشراك ما يخرج شارون ووزارته من مأزق الانتفاضة، الذي قد يتفاقم ويزداد إذا ما سارت الأمور لغير صالح دعاة الحرب على العراق. ونعتقد أن ما يجري في فلسطين لا ينفصل ولا يبتعد عما يجري في العراق، على اعتبار أن التوجه الأميركي تجاه المنطقة ومستقبلها لا يفصل ما يحدث في فلسطين عما يحدث في العراق أو غيرها.

إن إقدام الولايات المتحدة على إصدار قرارها بشأن القدس يعني في حسابات السياسة الأميركية تأكيد التحالف الاستراتيجي مع الكيان الصهيوني دون سواه. و ما عدا ذلك فقد أصبح على هامش هذه السياسة. ليس مهماً بالنسبة لأميركا إن رضي العرب أو احتجوا، فكل رضاهم وكل احتجاجاتهم لا تبلغ الحد الأدنى من الرد على أميركا وسياستها القادمة تجاه العرب والمسلمين.

حركات دينية يهودية وإنجيلية ربطت نفسها بما يسمى الهيكل:

لا شك في أن الحركة الصهيونية بما حوته من تيارات فكرية دفعت باتجاه الربط المتواصل بين اليهود وبين ما يسمى الهيكل. وعلى الرغم من الزعم بأن العلمانيين الصهاينة لا يستندون كثيراً على البعد الديني في سلوكهم وتعاملهم الحياتي، إلا أنهم جميعاً سياسيين ومفكرين وجدوا في الحركات والأحزاب الدينية رصيداً هائلاً في تثبيت دعائم الفكرة الصهيونية في التوسع والعدوان، وقد دفعوا ببعض الفئات

الصهيونية لتربط نفسها فكرياً واستراتيجياً بما يسمى الهيكل وإعادة بناء المجد اليهودي الغابر من خلال هدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل اليهودي مكانه، وقد ظهرت هذه الحركات قبل ظهور الحركات الصهيونية بقرون، ولم تقتصر على اليهود بل برزت وبشكل قوي إبان الحروب الصليبية. وعظم شأنها وأصبحت في طور من الأطوار منظمات مؤثرة في مسيرة التوجه الاستعماري الصليبي.

❖ **منظمة فرسان الهيكل:** وهذه المنظمة أسسها فرسان صليبيون في القدس عام 1118. وهي منظمة دينية عسكرية ادّعت بأنها أُنشئت لحماية الحجاج والقبر المقدس. والذين أسسوها تسعة فرسان. وخلال 200 عام أصبحت هذه المنظمة من أقوى الكيانات التنظيمية نفوذا في أوروبا. وقد قطع أعضاء هذه المنظمة عهداً على أنفسهم أن يكرسوا سيوفهم وسلاحهم وأرواحهم للدفاع عن أسرار الديانة المسيحية كما فسرها البابا. ومن العهود التي قطعوها عدم السماح لأنفسهم بالاستسلام أو التنازل عن شبر من الأرض إلى الأعداء، وعدم التراجع حتى لو كان العدو يفوقهم عدداً.

اختاروا اسم فرسان الهيكل تسميةً لهم، وذلك باسم الهيكل الذي يدّعون أن النبي سليمان قد شيده في القدس، حيث خصص لهم الملِك مقرات للمرابطة بالقرب من ذلك الهيكل.

وقد شاركوا في الحرب الإبادية ضد حجاج المسلمين بشكل عام. وقاتلوا يوم حطين، إلا أن سمعتهم العنصرية وأعمالهم الدموية الإجرامية دفعت بصلاح الدين والمسلمين لإبادة أكثر جنودهم.

❖ **حركة أمناء الهيكل:** تعتبر من أخطر الحركات الصهيونية اليهودية المعاصرة. ألفت نواة هذه الحركة بعد عام 1967، وبدأ نشاطها العملي الإرهابي بشكل واسع منذ بداية الثمانينيات، وتتلقى الدعم من الولايات المتحدة. وتقوم نظريتها على أن إعادة بناء الهيكل مهمة ملحّة وأولية لدى اليهود، وهذا يتطلب تدمير المسجد الأقصى ومسجد عمر وجميع المقدسات الإسلامية في القدس.

ركزت هذه الحركة جهودها على الأماكن المقدسة في الأرض المحتلة.

أعمال هذه الحركة: قامت مجموعة يقدر عددها بـ 45 عضواً ومن بينهم عشرة مجندين بمحاولة للتسلل إلى المسجد الأقصى في الساعة العاشرة والنصف ليلاً من خلال نفق يمتد عبر الحفريات من الناحية الجنوبية للمسجد خارج الأسوار. وكانت الغاية من هذه المحاولة وضع اليد اليهودية على الحرم القدسي، تمهيداً للسماح للمتدينين اليهود بالدخول إليه وتقسيمه، على الأقل، أو هدمه نهائياً إن أمكن وإقامة حجر أساس لبناء الهيكل الثالث المزعوم.

ويؤكد ضلوع سلطة الكيان الصهيوني وتورطها في هذه المؤامرة مع حركة أمناء الهيكل على المسجد الأقصى تلك الرسائل التي بعثت بها الحركة لكل من رئيس الوزراء ووزير داخليته، وإلى عدد من قادة الشرطة الصهاينة في القدس تطلب السماح لأعضائها بالدخول إلى المسجد الأقصى، للاحتفال بما يسمى عيد الفصح، وإقامة الصلوات اليهودية فيه.

وكان من أعنف المحاولات ما حدث يوم 9/ 8/ 1981م الذي يصادف ما يسمى ذكرى خراب الهيكل. حيث حاولت مجموعة كبيرة من شبان الحركة التسلل أكثر من مرة، ومن عدة أبواب، إلى دخول الحرم القدسي لإقامة الصلوات اليهودية فيه. وقد كسروا باب المغاربة وحطموا قفل الباب وصعدوا إلى بناية (التنكزية) ولكن المسلمين تصدوا لهم وحالوا دون دخولهم، وقد جاءت المحاولة ضمن خطة مرسومة لفرض الأمر الواقع اليهودي على الحرم، وذلك على غرار ما حدث في الحرم الإبراهيمي في الخليل.

وفي 1/ 2/ 1983 تمكن بعض أفراد هذه الحركة من الوصول إلى المسجد الأقصى وإقامة صلوات يهودية فيه. في هذه الأثناء كانت الصحافة الصهيونية تطالب ضمن مقالاتها وتعليقاتها بالسماح لليهود بإقامة الصلاة في الحرم القدسي الشريف.

وفي 2/ 3/ 1983 قامت مجموعة من حركة أمناء الهيكل وعدد أفرادها 15 فرداً مسلحين بالبنادق الرشاشة والسكاكين باقتحام باب السلسلة ومنه إلى المسجد الأقصى، بعد أن اعتدوا على أحد الحراس وطعنوه بالسكاكين، ودخلوا إلى المصلى الذي يقع بين باب المغاربة والمسجد الأقصى. وحدثت اشتباكات عنيفة بينهم وبين الحراس، وقد أسفرت المواجهات عن إخلاء المقتحمين. وقد أثار هذا الاعتداء موجة عارمة من السخط في مختلف أنحاء فلسطين المحتلة وشهدت مدينة القدس إضراباً شاملاً، كما تظاهر المواطنون الفلسطينيون في نابلس وبير زيت ورام الله وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية. وقد حاولت مجموعة من هذه الحركة الدخول إلى المسجد الأقصى بتاريخ 10/ 4/ 1983 فتصدى لها حراس المسجد واستغل ذلك جندي صهيوني يدعى (إيلي جودمان) فاقتحم الحرم القدسي وهو يطلق النار؛ ما أدى إلى استشهاد اثنين من العرب وهما محمد اليماني 56 عاماً وجهاد بدر 21 عاماً، ثم واصل إطلاق النار على المصلين؛ ما أدى إلى سقوط 120 جريحاً وحدوث حرائق في سجاد قبة الصخرة، وإلى أضرار مادية جسيمة.

وفي ليلة الجمعة الموافق 27/ 1/ 1984 قامت مجموعة يهودية مسلحة تنتمي لحركة أمناء الهيكل بمحاولة نسف الحرم القدسي بعد اقتحامه من الناحية الشرقية بالقرب من باب الرحمة. وقد نصبوا السلالم من الحبال وبدأوا محاولة الصعود، إلا أن الحراس تصدوا لهم فلاذوا بالفرار تاركين وراءهم قنابل ومتفجرات وبعض الأقنعة، وقد تبين من التحقيقات التي نشرت الصحف جانباً منها أن أفراد هذه المجموعة ينتمون إلى جماعة دينية متطرفة تطلق على نفسها اسم أبناء يهوذا، وتشترك معها عناصر من حركة أمناء الهيكل، وتتخذ من خرائب قرية لفتا العربية مقراً لها، ومن بين أعضائها الذين نشرت الصحف أسماءهم (يهوذا ليامي) 31 عاماً و(عوزي محسيا حمعليون) 46 عاماً.

وقد اعترف وزير الداخلية في الكيان الصهيوني آنذاك في جلسة الحكومة بأن كل القنابل والمتفجرات التي عثر عليها لدى المجموعة اليهودية هي من صنع الجيش

الصهيوني. وهذا يدل بشكل قاطع على أن عناصر قيادية في الجيش هي التي تمد المنظمات الدينية اليهودية في الكيان.

أما المجزرة التي قامت بها الحركة يوم الاثنين بتاريخ 8/ 10/ 1990 فقد دبرت مسبقاً حيث إن الحركة الدينية - أمناء الهيكل - كانت قد حضّرت حجراً لوضعه في ساحة الحرم ليكون حجر الأساس لإقامة الهيكل. وكانت الشرطة وعناصر الجيش تعرف مسبقاً بذلك، وتعرف أن المسلمين لن يسكتوا على ذلك. فإذا ما حاولوا منع أعضاء الحركة اليهودية فإنهم سيطلقون النار على المسلمين. وفعلاً فقد حدث ذلك، وحين بدأ العرب برشق جنود الحركة وأفراد عصابتها انهالوا مع أفراد الجيش والشرطة على المسلمين بإطلاق النار والغاز، ما أدى إلى استشهاد 23 مواطناً وجرح أكثر من أربعمائة حسب بعض المصادر. وقد انتشرت الجثث في ساحة الحرم وسالت الدماء هنا وهناك.

وعلى الرغم من ذلك فإن حركة أمناء الهيكل وعلى لسان حاخامها صرحت أنه يجب العمل على طرد الفلسطينيين بأي وسيلة ولو كانت الإرهاب والقتل.

الفصل الرابع
القدس في القرآن الكريم
والسنة النبوية الشريفة

تحتل القدس في العقيدة الإسلامية مكاناً بارزاً، فهي حسب كل التفاسير المستندة على السنة النبوية أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. وقد بدأ الاهتمام بالقدس من الجانب الإسلامي عندما نزلت سورة الإسراء على رسول الله ﷺ في وقت مبكر من البعثة التي خص بها اللهُ سبحانه محمداً بن عبد الله ﷺ.

والواقع أن هناك كثيراً من الآيات القرآنيّة الكريمة التي تتحدث عن الأنبياء، ولاسيما داود وسليمان وعيسى عليهم السلام، وعن علاقتهم بأمكنة العبادة التي كانوا يمارسون عبادتهم فيها. ولعل مكانة القدس تأخذ أبعادها من خلال تتابع رسالة التوحيد التي بدأت منذ آدم عليه السلام وانتهت عند رسول الله محمد ﷺ.

فالأنبياء جميعاً لا يخرجون عن سلسلة واحدة مترابطة بالتوحيد ومرتبطة بالتكليف الإلهي لهم، فهم أحق ببعضهم من البشر كافة، وهم أقرب لبعضهم من أي مخلوق، ولو كان على صلة دموية ببعضهم، كصلة الأب والأخ وما شابه ذلك.

وعندما ندقق بمنهج الدعوة عند الأنبياء كافة الذين أوردهم القرآن الكريم نراه منهجاً واحداً، وهو الدعوة إلى عقيدة التوحيد، والأخلاق الاجتماعية الرفيعة، والسلوك الإنساني المتميز. وقد اختارهم الله من بين البشر واصطفاهم على غيرهم، ليكونوا خاصته وأنبياءه، ليبلغوا الرسالة التي لم تنقطع دعوتها حتى خاتم الأنبياء والمرسلين.

فالدين لدى جميع الأنبياء والرسل، هو دين التوحيد وليس سواه، وإذا دققنا في نصوص التوراة ونصوص الإنجيل والقرآن الكريم، وجدنا أن الأنبياء جميعهم ساروا على منهج واحد في الدعوة وهو منهج عقيدة التوحيد ذاته. وقد جاء القرآن الكريم واضحاً أشد الوضوح في الحديث عن دعوة الأنبياء ومناهجهم في تلك الدعوة.

وحينما يُجِلُّ القرآن الكريم بعض الأماكن من الأرض فإنه بذلك يوضح ارتباط الأنبياء وعلاقتهم المقدسة بها. وسنلاحظ أن الأماكن المقدسة التي أشار إليها القرآن الكريم محدودة أولاً، ولها ارتباط وثيق بالأنبياء ثانياً. وهي إن كانت مقدسة عند هذا النبي فهي مقدسة لدى الأنبياء كافة.

فالعقيدة واحدة والإله واحد لا شريك له والسلوك واحد والدعوة هي ذاتها. كذلك الأمكنة المقدسة هي مقدسة لدى جميع الأنبياء دون استثناء. والذين يحاولون فصل دعوة نبي عن دعوة نبي آخر هم جاهلون أو مشوّهون لحقيقة عقيدة التوحيد.

وفي هذا الإطار لابد أن يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: هل من علاقة بين الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وبين الكعبة أو البيت الحرام؟ هل من علاقة بين موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى وبين البيت الحرام؟ ثم هل من علاقة بين محمد ﷺ وبين المسجد الأقصى؟

يقول الله تعالى في سورة الحج ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ آية 26.

ويقول تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ 127.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران 96 ـ 97.

ويقول تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ الإسراء الآية (1).

فمن خلال آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن النبي إبراهيم هو الذي أقام قواعد البيت الحرام. وهذا البيت يتمتع حسب النص القرآني بما يلي:

1 - أنه عتيق قديم وُجد قبل إبراهيم إذ إن كلمة بوأنا تشير إلى ذلك.

2 - الغاية من تبيان معالم هذا البيت، عدم الإشراك بالله وتطهيره لمن يرغب بزيارته ليقيم العبادات التوحيدية فيه.

3 - وُضع هذا البيت للناس كافة وليس لقوم دون قوم أو لأصحاب عقيدة دون عقيدة لأنه مبارك من الله للناس كافة.

4 - الحج إليه ليس مقتصراً على فئة دون فئة. لأن الحج على الناس دون تحديد لهويتهم وعقائدهم.

5 - هناك مكانان مقدسان يرتبطان برباط مقدس؛ وهما المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

فمن المعروف أن إبراهيم عليه السلام، هو جدٌّ لمجموعة كبيرة من الأنبياء، فحسب النص التوراتي والنص القرآني فإن إسحاق وإسماعيل هما ولدا إبراهيم، ومعروف أن إسحاق أنجب يعقوب، ويعقوب أنجب يوسف النبي وبقية من يسمون بالأسباط. ومعروف أيضاً أن نسب النبي محمد ﷺ يرجع إلى إسماعيل ثم إبراهيم، فمجموع الأنبياء إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ومحمد صلوات الله عليهم يرتبطون بنسب واحد وهو النسب لإبراهيم. وتتضح عقيدتهم واحدة فالله واحد والدعوة واحدة والسلوك النبوي واحد.

وعندما بنى إبراهيم الكعبة وأوضح معالمها كان المقصود من وراء ذلك أن يتجه جميع نسله إليها باعتبارها الرمز الأوحد القديم لديانة التوحيد. والأَوْلى بنسل إبراهيم أن يرتبط بها قبل ارتباط أي من الناس، على الرغم من أن الكعبة بنيت للناس جميعاً وليس لفئة دون فئة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا يتوجه أصحاب الرسالات الأخرى نحو الكعبة، أليس إبراهيم جد الأنبياء جميعاً؟ أليس إبراهيم هو الجد الأكبر لموسى وهارون وداود وسليمان وعيسى بن مريم؟

إن التوراة تنكر على إبراهيم بناءه الكعبة، وتنكر أن إسماعيل استقر في بداية شبابه حول البيت الحرام، وتوصله مع أمه هاجر إلى جنوب فلسطين وتنقطع أخباره عنا تماماً.

لقد قدس العرب وشعوب كثيرة مكة والبيت الحرام قبل الإسلام بكثير. والعرب بجميع قبائلهم الوثنية والحنفية كانت تقدس البيت الحرام لكونه بيت الله أولاً، ولأن إبراهيم عليه السلام بناه ثانياً. وجميع القبائل العربية كانت تتجه إلى الكعبة وتقدسها، ولكن شعوباً أخرى قدست هذا المكان. فالهنود يزعمون أن روح سيفا إلههم وهو الأقنوم الثالث في العقيدة الهندوسية قد حلت في الحجر الأسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

وكانت الصابئة وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدون الكعبة أحد البيوت السبعة المعظمة. كما كان أسلاف الفرس يقصدون البيت الحرام ويطوفون حوله تعظيماً له وإجلالاً لإبراهيم عليه السلام، لكونه كلدانياً جاء من أور الكلدانيين إلى مكة، ثم بنى الكعبة. وكان آخر من حُج منهم ساسان بن بابك. وكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزار زمزم.

ويروي المسعودي في مروج الذهب أن الفرس كانت تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر. وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب إضافة لبعض الجواهر والسيوف والذهب إلى الكعبة وقذف بها في بئر زمزم.

وقدَّسَ الكعبة الفرس من غير الصائبة واحترموها زاعمين أن روح هرمز حلت فيها وكانوا يحجون إليها. وقد ورد في الأخبار أن اليهود أيضاً قدسوها لأنه كما يقولون: إن فيها تمثالاً لإبراهيم وآخر لإسماعيل. وبسبب من عظمة الكعبة وقدسيتها فقد وجد فيها الأحباش منافساً قوياً لما صنعوه في اليمن من بناء لكنيسة

(القليس) فحاولوا مهاجمتها وتهديمها. وقد رأى بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ مريم 58. أن الأنبياء كانوا إذا ذكروا آيات الله خروا سجداً، فإذا سجدوا كانوا يتجهون إلى البيت الحرام. أما زيارة البيت الحرام فقد أورد كثيرون استناداً على ما سمعوه من أحاديث رسول الله ﷺ ومن الأخبار، أن الأنبياء كانوا يزورون البيت الحرام ويحجون إليه لكونه أول بيت للّه ولديانة التوحيد بني على الأرض، والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم عاشوا بل ولدوا في هذه المنطقة العربية المحيطة بمكة. فهي ليست بعيدة عن ديارهم وأقوامهم، وعلى اعتبار أن جلهم ينتسب إلى إبراهيم وينتمي إلى عقيدة التوحيد، فمن الواقعي أن يسيروا على نهج إبراهيم ويلبوا دعوته في الحج إلى بيت الله الحرام.

فإسحاق ويعقوب ويوسف ومن بعدهم موسى وداود وسليمان. وكذلك شعيب وأيوب وصالح ويونس جميعهم يرتبطون بعقيدة التوحيد، ويرتبطون بإبراهيم، ويرتبطون بالبيت الحرام الذي عمّره إبراهيم ودعا الناس للحج إليه.

هذا ما يمكن أن نوجزه بالنسبة للعلاقة بين إبراهيم والأنبياء وبين البيت الحرام. ونعود لدراسة العلاقة بين هؤلاء الأنبياء وبين المسجد الأقصى، فهي علاقة معقدة تحتاج إلى توقف وتبصر.

جاء في القرآن الكريم في سورة الإسراء الآية الأولى ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾.

فقد عرفنا شيئاً عن قدسية البيت الحرام وكيف بناه النبي إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد جاءت آيات كثيرة تتحدث عن البيت الحرام والحج والشعائر المتعلقة به.

فإذا كان هذا البيت الحرام على ما هو عليه من هذه القدسية والمكانة، فكيف ربط القرآن الكريم بينه وبين المسجد الأقصى؟ لماذا اختار الحق سبحانه هذا المسجد

دون غيره من الأماكن ليربطه بالمسجد الحرام؟ ألا يوجد مكان آخر في الأرض أهم منه من حيث القدسية ليربطه بالبيت الحرام؟

الحقيقة أن هذا الربط الذي لم يأت مثله في القرآن الكريم له أسبابه وأسراره، فالمسجد الأقصى في العقيدة الإسلامية يشكل مكاناً مقدساً يعادل في قدسيته البيت الحرام. ولكن من أين جاءت هذه القدسية؟ هل جاءت بسبب قِدَمه؟ أم هل جاءت بسبب علاقة عدد كبير من الأنبياء به؟ ولماذا أطلق الله سبحانه عليه اسم مسجد؟ هل كان يصلي فيه الموحدون؟ هل كانوا يسجدون فيه؟ وهل له من الصفات ما تؤهله ليسمى مسجداً؟.

يقول تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ سورة ص الآية 21 - 22.

ويقول تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ من آل عمران الآية 37.

ويقول تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ آل عمران 39.

ويقول تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم آية 11.

فنرى أن كلمة محراب وردت أربع مرات مرة حين الحديث عن داود عليه السلام، ومرة حين الحديث عن مريم، ومرتين حين الحديث عن زكريا.

فالمعروف أن معابد اليهود لا يوجد فيها محاريب. وداود كما هو معروف نبي من أنبياء بني إسرائيل، وكذلك مريم فهي من بني إسرائيل، لكن الآية تقول إنها كانت تتعبد في معبد فيه محراب، وكذلك زكريا وهو من أواخر أنبياء بني إسرائيل وعاصر مريم والدة السيد المسيح، فالآية تشير إلى أن زكريا كان قائماً وهو يصلي في محراب، وعندما خرج إلى قومه بعد البشرى له بولادة يحيى فقد خرج من المحراب

أيضاً. فهؤلاء الأنبياء كانوا يصلون في معبد له محراب. وجميع الدراسات إضافة للإنجيل بشتى فروعه وأشكاله تشير إلى أن داود كان يقيم في جبل الزيتون المشرف على القدس، وأن المعبد الذي كان يتعبد فيه زكريا هو في بيت لحم أو في القدس. وتقول بعض المصادر الإنجيلية إن مريم وزكريا وغيرهما من الرسل والصالحين كانوا يتعبدون في هيكل الرب أو معبده في القدس.

ونتذكر أن السيد المسيح عليه السلام دخل معبد الرب وطرد منه اللصوص وبائعي الحمام، وقد ورد ذلك في الإنجيل، يقول إنجيل لوقا 19/ 45-47: [ولما دخل الهيكل أبتدأ يُخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه قائلاً لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلوات وأنتم جعلتموه مغارة لصوص] وفي إنجيل متَّى جاء في 21/ 12-13. [ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص] فهذا الكلام الذي ورد يدل بشكل قاطع على أن هناك معبداً كان للصلاة وليس فيه من الأوثان أي وثن أو صنم، هو معبد تقام فيه الصلاة، وتحديداً في محرابه.

أما بالنسبة لكلمة المباركة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ـ فقد أجمع المفسرون المسلمون على أن الأرض المباركة هي أرض الشام، وخص الله سبحانه المسجد الأقصى وما حوله بالمباركة، باعتباره المركز القدسي المبارك لهذه البلاد. فإبراهيم ولوط ينجيهما الله إلى جزء من الأرض المباركة وهي أرض فلسطين. ويقيم إبراهيم في الخليل التي لا تبعد عن القدس كثيراً، وتنقَّل إلى الحجاز ومصر ثم عاد ليدفن فيها بعد موته. فلإبراهيم علاقة وطيدة بهذه الأرض المباركة هي علاقة العقيدة وعلاقة التوحيد. ولو لم تكن هذه الأرض أرض توحيد لما مكث فيها إبراهيم ولما استقر بين أبناء شعبها، ولما اختار أرضها ليدفن فيها زوجته سارة، وليموت هو فيها ويدفن في ترابها. ولعل رحلة إبراهيم من الخليل إلى الكعبة ومن الكعبة إلى الخليل دليل هام على الربط القدسي بين البيت الحرام والمسجد الأقصى الذي هو مركز الأرض المباركة، رحلة إبراهيم هي إسراء أرضي،

ورحلة محمد ﷺ من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى هي إسراء سماوي. فهنا يكمن اكتمال الدائرة القدسية بين رحلة الجد الأولى من الأرض المباركة إلى المسجد الحرام، ورحلة الابن العكسية من المسجد الحرام إلى الأرض المباركة.

لقد أشرنا عند بحثنا في عقيدة الكنعانيين ومعابدهم إلى أن إبراهيم عليه السلام قد التقى بملك القدس ملكي صادق، وبارك الأخير إبراهيم، وقد وُصف ملكي صادق بأنه ملك موحّد يؤمن بإله واحد. والواقع لو أن إبراهيم وجد ملكي صادق من الرافضين لدعوة التوحيد لما مكث في الأرض المباركة، أو لكان غادرها كما غادر أور الكلدانيين حفاظاً على عقيدته ودينه. ولا شك في أن القدس وملكها اليبوسي (ملكي صادق) حفلت بوجود المعابد ذات العلاقة بالعقيدة الكنعانية التي تقبلها إبراهيم وقبلت هي بدورها عقيدة إبراهيم. فمباركة الله هذه الأرض سابقة على وجود إبراهيم باعتبار أن القرآن الكريم صرح بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

ماذا تقول المراجع الإسلامية بشأن القدس؟

حفلت القدس بالأحاديث استناداً على ما قاله رسول الله ﷺ من أحاديث، واستناداً على أخبار تناقلها الرواة منذ ما قبل البعثة المحمدية.

فقد روى الإمام البخاري والإمام مسلم حديثاً عن أبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ أن المسجد الأقصى بني بعد المسجد الحرام بأربعين سنة. وقد دلت أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن المسجد الحرام قد بناه أول من بناه النبي آدم عليه السلام، وقد روي أن الله سبحانه أمر آدم ببناء المسجد الأقصى والتنسك فيه، وربما كان أحد أولاد آدم قد بناه بعد بناء الكعبة بأربعين سنة.

وعلى الرغم من ذلك لم يثبت بالدليل القاطع أن إبراهيم أوجد صلة بالمسجد الأقصى، وكذلك الأمر بالنسبة لابنه إسحاق ولحفيده يعقوب.

وكما اندثرت معالم البيت الحرام حتى جاء إبراهيم فأوضحها، فليس مستبعداً أن يكون الأقصى اندثرت معالمه حتى جاء المسلمون وأظهروها، على الرغم من

وجود احتمال أن سليمان عليه السلام بنى مسجداً فوق البقعة التي كان فيها المسجد الأقصى. لقد بقيت بقعة المسجد الأقصى هي البقعة التي أوحى الله إلى الأنبياء باختيارها مكاناً للعبادة منذ آدم عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء والأولياء والعبّاد، وأن أساس البناء الأول ثابت في هذه البقعة المباركة وكل من تتابع على إعمار البقعة أو بنائها وإصلاحها أو تطهيرها، إنما فعل ذلك على الأساس القديم. وقداسة هذه البقعة (المسجد الأقصى) لم تكن لنبي من الأنبياء ولا لأمة من الأمم فقد اختارها الله منذ خلق الخلق لعبادته، أن تكون معبداً للموحّدين، ويدل على قدم التقديس ما جاء في حديث أبي ذر أنها ثاني موضع اختاره الله للعبادة.

وهنا لابد من التوقف عند معنى التقديس، وما هو المقدس البشري والمقدس الإلهي حسب ما جاء في القرآن الكريم.

فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ سورة الإسراء الآية (1).

ففي القرآن الكريم لا يوجد أي مسجد باركه الله سوى هذين المسجدين. وقد ذُكر مسجد رسول الله ﷺ في المدينة في القرآن الكريم. ولكن الحديث القرآني عن مسجد رسول الله ﷺ جاء لاحقاً إذ إنه بُني بعد أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. فالربط جاء بين البيت الحرام والمسجد الأقصى لكونهما أقدم مكانين مقدسين اختارهما الله للعبادة.

فالتقديس لهذين المكانين تقديس إلهي وليس تقديساً بشرياً، والتقديس البشري يظل تقديساً وضعياً بشرياً فهو قابل للتغيُّر والتحول والاندثار. فيمكن لأي فرد أو أي إنسان أن يبني معبداً في أية أرض وينشئ فيه الأصنام أو التماثيل أو الرموز الموحية للمعبود، وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجموع. فيقوم التقديس على ما صنعه هذا الإنسان أو هذا المجموع من معابد وأصنام وأوثان ورموز. فهذا المعبد وهذا التقديس البشري قابلان للفناء والاندثار، خاصة إذا أخذنا في الحسبان تطور مفهوم المعبود وتغيّره من المحسوس إلى المجرد.

أما المسجد الحرام والمسجد الأقصى فهما آيتان من الكتاب الكريم قدسهما الله قبل أن يقدسهما البشر. وبمعنى آخر فإن القدسية من صنع الخالق. وهي خاصية له وليست لبني البشر.

وإذا عدنا إلى حيثيات التقديس الإلهي لهذين المكانين فلابد لنا من العودة إلى الآية التي افتتح الله بها سورة الإسراء، ولابد من الوقوف بشكل دقيق عند الآيات التسع الأولى من سورة الإسراء.

يقول تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) ﴾ صدق الله العظيم الإسراء 1 ـ 9.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ الإسراء 104.

أجمع جميع المفسرين أن سورة الإسراء مكية نزلت على رسول الله ﷺ وهو في مكة، وأكثر التواريخ اتفاقاً ما قاله البيهقي عن ابن شهاب رضي الله عنه قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بستة عشر شهراً، وبعضهم قال قبل الهجرة بسنة. على أية حال فالمتفق عليه أن سورة الإسراء مكية. وعلى هذا فلدينا أسئلة كثيرة حولها يجب أن يجاب عنها وتوضح معالمها.

1 ـ عندما نزلت هذه السورة وصفت البيت الحرام بالمسجد الحرام ووصفت بيت المقدس بالمسجد الأقصى. وقد كان المسجد الحرام يعج بمئات الأصنام وعلى رأسها هبل والعزى واللات ومناة وأساف ونائلة. ويقال إنه كان في البيت الحرام أكثر من 360 صنماً على عدد قبائل العرب. وكان الأقصى آنذاك محتلاً من قبل الروم، وفي القدس معبد مهمل بينما كانت كنيسة القيامة هي المكان المقدس بالنسبة للرومان آنذاك.

فبما أن البيت الحرام كان يعج بالأصنام، فكيف يوصف قرآنياً بالمسجد الحرام؟ وكذلك كيف يوصف بين المقدس بالمسجد الأقصى وهو مهمل لا أحد يدري بقدسيته؟

الواقع أن رسول الله ﷺ تعرض لأذى قريش فالتجأ إلى الطائف، ولكن أهل الطائف أيضاً لاحقوه، فالتجأ إلى الله بالدعاء أن يفرج كربه. وبعد عودته مباشرة نزلت عليه سورة الإسراء، وأُسري به من مكة إلى بيت المقدس إكراماً له وتخفيفاً من معاناته، وتبشيراً له بالنصر القادم.

2 ـ عندما نزلت السورة، أي سورة الإسراء، على قلبه ﷺ كان ضعيفاً وحوله المسلمون ضعفاء لا يستطيعون المقاومة أمام جبروت قريش وطغاتهم، فكانوا عبيداً وقليلي القوة والحيلة والبيت الحرام يعيش فيه أبناء قريش فساداً.

3 ـ تسمّت هذه السورة بتسمية ثانية فهي سورة بني إسرائيل.

4 ـ على الرغم من اسمها المعروف سورة الإسراء فإنها لم تتحدث عن الإسراء إلا في أولها. ومتابعة الآيات فيها كانت عن بني إسرائيل وليس عن الإسراء، فما العلاقة بين الآية الأولى وبين بقية الآيات؟

ولو عدنا إلى الأحداث التي مرت بها سيرة رسول الله ﷺ لوجدنا أن المسلمين انتصروا على قريش وعادت مكة إلى المسلمين، ثم أخلي البيت الحرام من الأصنام والأوثان بعد أن كسرت وحُطمت وطُهر البيت الحرام من كل مظاهر الوثنية والخمور والنجاسات، ورفع بلال صوته ليؤذن بالناس ليصلوا في هذا المسجد العظيم.

والواقع أن البيت الحرام كاسم رافق سيرة النبي إبراهيم عليه السلام، بينما أطلق اسم المسجد الحرام وصار اسماً لمسمى بعد تحرير مكة على أيدي جيش المسلمين بقيادة الرسول محمد ﷺ.

فوصف القرآن البيت الحرام بالمسجد الحرام جاء إرهاصاً ربانياً للمستقبل بأن هذا البيت سيُحرر من الأوثان ويصبح مسجداً للموحدين من جديد.

وإذا نظرنا أيضاً إلى وصف القرآن الكريم بيت المقدس بالمسجد الأقصى لرأينا أنه إرهاص للمستقبل بأن هذا المكان المقدس سيحرره المسلمون. وفعلاً حُرّر بيت المقدس على أيدي المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ بست سنوات ليس أكثر، أي في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة بسنتين.

إن الله سبحانه وتعالى أودع في قرآنه العظيم أسراراً تعجز عن حلها العقول وتقف أمامها حائرة. فالقرآن الكريم كتاب مفتوح على الكون وما وراء الكون. فيه من الأحكام ما ينظم المخلوقات جميعها، وفيه من الاستشراف المستقبلي ما تبنى عليه عمارة الأرض. تحدث عن الماضي المتحرك بالبشر والأقوام والأفراد وربطه بالآتي القريب والبعيد، ليعرف المسلمين وغيرهم طريق حياتهم، ويبين لهم سبيل انتصارهم وتحقيق دعوتهم، ويدلهم على قراءة الواقع كي يتحاشوا السقوط أو كي يقفزوا نحو غاياتهم السامية.

هكذا في سور القرآن الكريم كلها. ولكن هذا القرآن حوى من السور ذات الخصوصية التي تحدد المصائر والسبل الوجودية والنهايات البشرية ما لم تحوِه سور أخرى. فكانت منها سورة الأعراف، وكذلك الإسراء على سبيل المثال.

فهي - إن درسنا تاريخ نزولها - وأسبابه وما حوته وجدنا فيها معجزة. وفيها قَدَرُ الله الذي قدَّره ولا مناص من وقوعه. ولو درسنا ما فيها من استشراف للمستقبل أدركنا أن ما يجري للمسلمين وأوطانهم من عدوان وغزو واحتلال، وما يقومون به من صد ورد على العدوان والغزو والاحتلال ليس شاذاً عن السياق التاريخي للصراع بين المسلمين وأعتى وأفسد مجموعة بشرية شريرة على وجه الأرض، وليس شاذاً عن المسار الطبيعي للصراع الأبدي بين الحق والباطل والخير والشر. تلك طبيعة الوجود البشري على هذه الأرض حتى يرث الله الأرض وما عليها.

طرفان نقيضان كل التناقض في الفكر والسلوك والنفسية. نقيضان كونيان لا ينحصران في جزيرة نائيه. كل منهما له تأثيره المباشر على مستوى الوجود.

وكما لله سبحانه أنبياؤه وعباده وأولياؤه وجنوده فإن للشيطان جنوده وأولياءه، وهذا صراع مطلق بين وجهين للكون وبين نمطين متضادين من البشر. كل له حلفاؤه وكل له عقيدته، ولن يكون هناك طرف ثالث يحار في موقفه. فإما أن يكون مع الحق أو يكون مع الباطل، وساعتئذ ترى البشرية تنقسم إلى قسمين متصارعين كل منهما يسير وفق صلاحه أو فساده أو باطله.

وهنا تتجلى لنا سورة الإسراء لتحفر في العقول والماضي والحاضر والمستقبل، ولتحدد أن للصراع الكوني بين الحق والباطل مركزاً جغرافياً في هذه الأرض، تندمج فيه مركزية العقيدة ومركزية الرمز المادي والمعنوي المقدس. مركزاً يتصادم فوقه من يمثل رأس الحربة في قوى الشر والشيطان والفساد، ومع من يمثل طليعة الأمة الإسلامية في قوى الخير والرحمن.

ولكي تتكامل صورة الصراع تأتي أحاديث رسول الله ﷺ لتؤكد حتميته في أرض القدس، وحتمية انتصار عباد الرحمن على حلفاء الشيطان. حتمية انتصار الحق على الباطل وانتصار الكلمة الإلهية المحفوظة على أخطر عملية تحريف وتلفيق على الله والأنبياء والإنسانية. إن كل ما تشاهده العيون، وكل ما تعاني منه النفوس من قهر وقتل للأبرياء، واغتصاب للحقوق، وانتهاك للأعراض في أرض الإسراء، لا يعني أن قوى الشر الشيطانية تنتصر على الحق والخير. فكل ما تقوم به ليس إلا مقدمة لا يعرفون نهايتها، وإن عرفوا فإنهم محكومون للغيب الذي لا يعرفون مقاصده وتسييره التاريخ والقرون.

فهم حكموا على أنفسهم في هذا المسير، والله بعلمه المسبق يعرف أنهم محكومون لنهاية قدّرها الله عقاباً لهم لما اقترفوه من فساد وخيانة لتعاليم موسى والأنبياء، بل نقضهم عهد الله. سورة الإسراء هي سورة بني إسرائيل، وهي في آياتها الأولى سورة المسجد الأقصى، سورة إسراء رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وهي سورة الإرهاص المستقبلي لنهاية الصراع بين عباد الله المسلمين وبين وبني إسرائيل ومن دخل في دائرتهم من اليهود والمتهوّدين.

لقد عرّفنا القرآن الكريم على بني إسرائيل وحياتهم ونفوسهم وسلوكهم عبر سور كثيرة منذ أن ظهروا إلى الوجود حتى يومنا هذا. وقد مثلوا عبر هذه المسيرة الطويلة قمة الفساد في الأرض، ومثلوا نموذج الشر الفاحش بين الأشرار. لم تستطع على مكرهم الجيوش وإن كسرتهم وسبتهم، ولم تتغلب على فسادهم كل قوى الخير السابقة على الإسلام من أنبياء ومصلحين، وظلوا على فسادهم المستشري إلى أن حان وقت انقضاضهم على الأرض المباركة - فلسطين - مستغلين ضعف المسلمين ووقوعهم تحت وطأة القطرية والوطنية الضيقة، وتقليد الغرب وموالاته وضياع الهوية العقيدية من نفوسهم.

لكن هذا الانقضاض لا يعني الخلود والأبدية. وهم يدركون قبل غيرهم أن ساعةً يأتي فيها الله بجنوده وعباده كفيلة بانكسارهم وتدمير علوهم وإنهاء فسادهم. وكفيلة بإعادة كل شبر من الأرض المباركة إلى دائرة عباد الله المسلمين.

الأرض المباركة وعلاقتها بالقرآن الكريم:

ثمة أسئلة يطرحها كثير من المسلمين عن العلاقة بين الأرض المباركة - فلسطين - والقرآن الكريم والدين الإسلامي بشكل عام:

ما العلاقة بين المسلمين وأرض فلسطين؟ وهل يشكّل القرآن الكريم المصدر الأساسي لتلك العلاقة؟ لماذا لم يرد اسم القدس في كتاب الله والسنة النبوية وورد اسم بيت المقدس؟ هل تعتبر الصخرة الواقعة تحت قبة مسجد الصخرة مقدسة أو مشرفة أو مباركة؟.

وقفة أولى:

يقول الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ فهذه الآية تشير إلى حادثة الإسراء التي وصلنا خبرها الصحيح في الصحيحين والأسانيد وسيرة رسول الله ﷺ. وهذه الحادثة جرت في مكة، ونزلت السورة المسماة باسم الحادثة أيضاً في مكة، فهي سورة مكية وليست مدنية. في الآية تحديد لمكانين واضحين هما المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

وعند نزول سورة الإسـراء كـان النبي ﷺ ضعيفـاً هـو وأصحابه . وكـان حـول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً يمثلون القبائل العربية كافة . بمعنى أن الكعبة ومـا حولـها لم تكن مكاناً للسجود، بل كانت مكاناً لعبادة الأصنام وطقوس الجاهليين مـن عـرب قريش وغيرهم . إذاً لماذا أطلق اسم مسجد على مكة وما حولها؟

لو نظرنا إلى آيات أُخَر وخاصة الآيات التي تتحـدث عـن علاقـة النبي إبراهيـم عليه السلام بهذا المكان لوجدنا أنها تحفل باسم البيت الحرام، والبيـت المحرم أكثر مما حفلت باسم المسجد الحرام . ففي سياق قصة النبـي إبراهيـم ورد قولـه تعـالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ . وقوله : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ .

وقد ورد قوله ﴿ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ فـي عـدة مواقـع . وجميعـها تـأتي حسب التسلسـل الزمنـي لـنزول القـرآن الكريـم بعـد سـورة الإسـراء . فقـال تعـالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ ، ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ وغيرها . وقد صار يطلق على البيـت الحـرام اسم المسجد الحـرام بعد بدء البعثة ونزول الوحي على قلب رسول الله ﷺ .

وعودة إلى الآية الأولى من سورة الإسراء إلى قوله تعـالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ندرك أن إطلاق هذا الاسم لا يعني أنه لم يكن مسجداً ، ونعتقد أن الأصـل فيه هو المسجد الحرام والوثنية طارئة عليـه ، إذ إن إبراهيـم عليـه السـلام ، رفـع قواعـد البيت وأمر أن ينادي بالحج . لأن هذا البيت أسس للعـاكفين والركـع السـجود . وهـذا بنص الآية القرآنية ، فهو مسجد للساجدين .

وهذا يعني أن الآية الكريمة بشَّرت رسول الله ﷺ بأن هذا المكان المقدس سيطهر من الوثنية الطارئة ، ويعود كما كـان فـي عـهد إبراهيـم عليـه السـلام ، مسجداً طـاهراً للرُكَّع السجود والعاكفين وكل المتعبدين لله سبحانه .

فإذا كان هذا هو حال المسجد الحرام فما هي حال المسجد الأقصى؟

لقد كانت فلسطين خاضعة لحكم الرومان، وكانت النصرانية هي السائدة آنذاك، وأهم المقدسات في فلسطين آنذاك الكنائس الرئيسية المرتبطة بالنصرانية، وهي كنيسة القيامة وكنيسة المهد والكنائس الأخرى في الناصرة، وكان اليهود آنذاك يشكلون أقلية لا تُذكر، ولم يكن لهم آنذاك معبد رئيسي، بل كانت هناك بعض الكنُس الصغيرة جداً يقيمون فيها طقوسهم. أما المسجد الأقصى فلم يكن قائماً كبناء له معالم وأركان عمرانية، وعلى هذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف حدد القرآن الكريم مكانين مقدسين في الآية ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ ولماذا أطلق اسم المسجد الأقصى.

وقبل أن نوضح المعالم الخاصة بهذا المكان لابد أن نشير إلى أن الأرض التي يقع فيها هذا المكان أطلق الله سبحانه عليها الأرض المباركة.

يقول تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ويقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ سبأ الآية 18.

فالأرض مباركة منذ القدم حتى قبل نجاة النبي إبراهيم عليه السلام إليها. والأرض المباركة هي بيت المقدس وما حوله. وقد ظلت مباركة وستبقى كذلك لأنها اختيار رباني وحاشا أن يغير الله ناموسه.

والقدس ليست المسجد الأقصى فحسب، أو تلك المدينة المسورة على بضعة آلاف من البشر، فهي الأرض المفتوحة على البركة الإلهية ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾. وحوله تعني فلسطين أولاً وما جاورها ثانياً، حتى تصل المسجد الحرام ثالثا. وقد تكررت مباركة هذه الأرض وما حولها في عدد من الآيات القرآنية الأخرى، لتؤكد أن المباركة ليست عابرة بل هي ثابتة منذ الأزل حتى يرث الله الأرض وما عليها.

والآية الثانية جاءت في سياق الحديث عن سبأ التي منح الله أهلها الجنان لكنهم أعرضوا عن التوحيد وكفروا فبدل الله نعيمهم إلى قحط وقلة غلال، وأرسل الله عليهم سيل العرم، فدمر جنانهم وأباد مزروعاتهم. وقد جعل الله سبحانه بينهم وبين القرى التي بارك فيها محطات آمنة من القرى والمدن. وظاهر القول: إن بين سبأ وبين الأرض المباركة قرى ومدناً كثيرة، وأهمها وأكثرها أمناً مكة - يثرب - قرى الشام حتى تصل إلى الأرض المباركة.

ويَلفت انتباهنا قوله تعالى: القرى التي باركنا فيها. فهي تعني أن هناك قرى مباركة وليست قرية. وبمعنى آخر، لو كانت المباركة تخص بيت المقدس وحده لجاء على ذكره القرآن الكريم وحده، ولكنه أشار إلى قرى، وهذا يُعيدنا إلى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ لتؤكد أن المباركة تعم أرض فلسطين، وقد تتجاوزها إلى جوارها.

ويقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ الأنبياء 81.

فقد أراد الله سبحانه أن تكون الأرض المباركة مهوى أفئدة الأنبياء والرسل جميعاً، ولهذا سخَّر الله سبحانه الريح تجري بأمره لتنقل سليمان إليها ينشر فيها دعوة التوحيد، فإذا اعتبرنا أن أول انتشار ملموس لعقيدة التوحيد الإسلامي بدأ على يد إبراهيم عليه السلام، فإن للأرض المباركة الدور الأهم فيها، لأن الله سبحانه اختارها لتكون ملجأ إبراهيم بعد أن لاقى ما لاقى على يد الوثنيين من قومه.

نستنتج أن مباركة الأرض - أرض فلسطين - سابقة على النبي إبراهيم. وهذا يعني أن هناك أسباباً لهذه المباركةِ.

بعض المفسرين قالوا إن المباركة جاءت بسبب وجود عدد كبير من الأنبياء ممن لهم علاقة بالقدس والأرض المباركة، وخاصة أنبياء بني إسرائيل، لكن المباركة سبقت إبراهيم عليه السلام، ولم يكن بنو إسرائيل قد وجدوا على أرض الواقع، ولم يكن بعدُ أي نبي من أنبياء بني إسرائيل قد ظهر إلى الوجود. وإذا كان المسجد الأقصى جزءاً من هذه الأرض المباركة فإن علاقته تنحصر بالله

سبحانه؛ بمعنى أن المباركة سابقة على وجود الأنبياء. وهي مباركة للعالمين وليست محصورة بفئة دون فئة، والمباركة للعالمين تحمل من المعاني والأسرار والأسباب ما لا يعرفها سوى الله سبحانه.

أما المسجد الأقصى فهو قديم قدم أوائل الخلق. وقد روى الإمام البخاري والإمام مسلم حديثاً عن أبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ أن المسجد الأقصى بُني بعد المسجد الحرام بأربعين سنة.

ونص الحديث ورد في الجزء الخامس من صحيح البخاري في باب كتاب بدء الخلق، ورقم الحديث 3010. يقول: «حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش حدثنا إبراهيم التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال المسجد الحرام قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلِّه، فإن الفضل فيه».

وقد ورد الحديث بطريق آخر يقول: حدثني عمر بن حفص حدثنا أبي، حدثنا الأعمش.... الخ.

فالمسجد الأقصى موجود منذ زمن بعيد، وقد أشارت أحاديث رسول الله ﷺ إلى أن المسجد الحرام قد بناه أول من بناه النبي آدم عليه السلام. وروي أن الله سبحانه أمر آدم ببناء المسجد الأقصى والتعبد فيه. وقيل ربما كان أحد أولاد آدم قد بناه بعد بناء الكعبة بأربعين سنة.

وكما اندثرت معالم البيت الحرام، حتى أمر إبراهيم عليه السلام فأوضحها، فليس مستبعداً أن يكون الأقصى قد اندثرت معالمه حتى جاء المسلمون وأظهروها.

ولذلك عندما سمّي بالمسجد الأقصى كان المقصود ـ والله أعلم ـ إعادته إلى سابق عهده حيث كان مسجداً يصلي به أبناء آدم وأحفاده من المؤمنين. والأمة الإسلامية التي بُعث إليها محمد ﷺ أحق الأمم في إظهار أماكن التوحيد التي أسس

بنيانها أول الخلق آدم عليه السلام. . ولذلك لم نر كلمة مسجد تطلق إلا على أماكن عبادة المسلمين.

ولعل في ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى قبل أن يعودا مسجدين يؤدي المسلمون فيهما شعائرهم التعبدية إرهاصاً للنبي ﷺ وللمسلمين بأنهما سيفتحان على أيدي المسلمين، ليكونا مكانين مقدسين للعبادة الإسلامية، وهذا ما كان فيما بعد.

لماذا اختار الله سبحانه أرض فلسطين لتكون ملجأ للنبي إبراهيم والنبي لوط عليهما السلام؟ لماذا لا تكون أرض أخرى محطة نجاه له ولابن أخيه لوط؟ هل كانت أرض فلسطين تمتلك من الأسباب ما يجعلها ملجأً لإبراهيم وغيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام؟

الواقع إن من الأسباب ما هو كثير، منها ما ندركه. ومنها ما لا ندركه، منها ما نستطيع ربطه بواقع الصراع بين أمة الإسلام واليهود، وهذا الصراع يتأسس منذ أن نجى الله إبراهيم إلى الأرض المباركة، ثم منذ إقامة أركان البيت الحرام في مكة.

قلنا إن الآية الأولى من سورة الإسراء تحدد مكانين مقدسين لله؛ هما المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وقلنا إن الله سبحانه بارك فيهما منذ زمن بعيد، قبل أن يظهر إبراهيم عليه السلام على الوجود.

وطبيعي أن ينجي الله إبراهيم إلى مكان اختاره عز وجل مسبقاً. وقد انقسمت علاقة إبراهيم بالمكانيين إلى مهمتين، الأولى هي نشر دعوته في الأرض المباركة، والثانية إقامة أركان المسجد الحرام في مكة.

وقد اختار سبحانه الأرض المباركة أولاً لتكون ملجأ نجاة للنبي إبراهيم؛ لأنها مباركة، وفيها المسجد الأقصى الذي اندثرت معالمه وخبأ أمرٍ إقامته من جديد اللهُ سبحانه إلى حين ظهور الدعوة الإسلامية.

ما يتضح من الآيات الكريمة التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم أنه ليس هناك من علاقة بين إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى تحديداً، ولا توجد أيَّةُ آية تشير إلى ذلك، وعلاقته جاءت بشكل عام بالأرض المباركة.

ومن خلال ربط معاني آيات القرآن الكريم ندرك أن أمر الله إبراهيم بإقامة قواعد البيت الحرام لم يكن أمراً مفاجئاً، بل مهد له بأن بعث ابنه إسماعيل وأمه إلى واد غير زرع عند البيت المحرم. وهذا البيت الذي طمسته الرمال كان معروفاً بقدسيته لمن سبق إبراهيم من رسل وأنبياء.

ونلاحظ هنا الترتيب الإلهي للأحداث؛ حيث إن إسماعيل يمكث في مكة ويتكاثر نسله، وبعد مئات السنين يبعث الله سبحانه من نسل إسماعيل آخر الرسل وخاتم الأنبياء محمد ﷺ. وما بين النبي إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ عشرات الأنبياء والرسل، ومنهم من أرسل لبني إسرائيل، ومنهم من أُرسل لأقوام أخرى مثل قوم عاد، وثمود، ولكن هؤلاء الأنبياء لم يرتبطوا بالمسجد الأقصى، ولم تشر أية آية لأي ارتباط بينه وبينهم.

ينتقل بنا القرآن الكريم إلى الآية الثانية حيث يقول سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ تأتي هذه الآية مباشرة بعد الآية التي تتحدث عن إسراء رسول الله ﷺ، وكأن الآيتين لا رابط بينهما. وظاهر الأمر هو كذلك، ولكن المسألة أعمق بكثير من ظاهر النص.

لقد جاءت الآية الثانية لتمهد للحديث المتعلق بالأقصى وبني إسرائيل، . وحتى يعرف القارئ المقصد من الآيات التي تليها كان لابد من التعريف بالنبي موسى وكتابه الذي أنزل لهداية بني إسرائيل، الذين سوف يحاربون الله وأوامره وينحرفون عن أمر الله ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ . ثم يسطون على المسجد الأقصى ويفسدون في الأرض ويعلون. ومن الطبيعي أن تأتي الآية الثانية مباشرة بعد آية الإسراء لأن مدلولها يشير إلى أن بني إسرائيل كُلفوا من قبل رب العالمين ونبيهم موسى بالاستقامة وعدم الإفساد، وموسى عليه السلام ليس رجلاً قادماً من المجهول، فهو من ذرية الذين حملهم نوح معه على سفينته. وإذ يقول تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فالأقرب إلى العقل أن موسى عليه السلام وبني إسرائيل هم من ذرية أولئك الذين حملهم الله مع نوح.

ولكن الذين حملوا مع نوح أنجبوا وتكاثروا، والله سبحانه أخبر نوحاً أنه سيكونون منهم الصالحون والكافرون.

يقول تعالى: ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هود 48.

فالسلام والبركات على أمم ممن مع نوح، ومن للتبعيض، ويعني ذلك أن السلام والبركات لن تكون على كل من حُمِل مع نوح. فهناك أمم ممن حمل مع نوح سيكونون ضالين ويعذبهم الله.

وعندما نعود إلى قوله ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾، نرى أن موسى عليه السلام هو المقصود، و ﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ تفسير وإيضاح لموسى. وسلسلة نسل نوح لابد أن تمر بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق. وسلسلة الأنبياء إضافة لطبيعتها العقيدية فإنها أيضاً سلسلة مترابطة بالإرث البشري. وهنا لابد من الإشارة إلى أن من حمل مع نوح لم ينجب صالحين فحسب بل أنجب فاسدين. فموسى نبي مرسل موحد وبنو إسرائيل فاسدون ومفسدون وهم من ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ويأتي قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾.

فهذه الآية توضح لم جاءت الآية السابقة قبلها ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ وتوضح أن بني إسرائيل لم يأتوا من كوكب آخر، لقد بعث الله لهم موسى عليه السلام، وآتاه الله كتاباً، يأمرهم به ألا يتخذوا من دون الله وكيلاً.

وبعلم الله المسبق علم رب العزة أن بني إسرائيل سيلقون كتاب موسى جانباً وسيتخذون غير الله وكيلاً وسيفسدون، وسيكون للمسجد الأقصى علاقة قوية وأساسية في إفسادهم وعلوهم.

أما تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فقد تعددت الوجوه فيه.
قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: القضاء يحتمل الحكم أي، ليحكم ما قد علم أنه

يكون كائناً أوليتم أمراً كان قد أراده، وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة، وتأتي بمعنى الكتابة في اللوح المحفوظ كقوله تعالى: وكان أمراً مقضياً.

قال القرطبي: فإذا كان القضاء يحتمل هذا فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله، لأنه إن أريد به الأمر، فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك؛ لأن الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء.

وقال قتادة: قضينا أي حكمنا، فتكون إلى بمعنى على. وقُرىء ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾، وعلى تفسير قضينا بحكمنا، يكون المراد في الكتاب، اللوح المحفوظ.

والأرجح، أن الكتاب في الآية الرابعة، هو المكتوب في اللوح المحفوظ، لأن الفعل (تفسدن) يدل على زمن آت، وهذا الزمن لا يعلمه إلا الله في كتابه المحفوظ.

أما (لتفسدن) فاللام واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير والله، أوهي واقعة في جواب قضينا لأنه ضُمِّن معنى القسم، ومنه قولهم: قضى الله لأفعلن كذا. . وعلى هذا المعنى فإن الله سبحانه أقسم بأن قضاءه حاصل على بني إسرائيل، أو أن الله سبحانه أقسم أنه يعلم أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً. وهذا الرأي هو الأقرب إلى العقل والإيمان، لأن الله سبحانه لا يقضي على إنسان أن يفسد، بل الفساد حاصل من الإنسان نفسه، والله يعلم مسبقاً في كتابه المحفوظ أن هؤلاء سيفسدون.

أيُّ الأزمان تدل على فساد بني إسرائيل وعلوهم مرتين؟

لو نظرنا في آيات القرآن الكريم لوجدنا أن بني إسرائيل منذ عهد موسى وهارون عليهما السلام فاسدون مفسدون لم تتعمق عقيدة التوحيد في نفوسهم. . فهم الذين طلبوا عند دخولهم سيناء أن يجعل لهم موسى عليه السلام آلهة كبقية سكان المنطقة، ثم عبدوا العجل بعد غياب موسى، ثم طلبوا أن يروا الله جهرة. ويتلاحق فسادهم ومن ثم إفسادهم ما داموا على هذه الأرض.

لكن الآية القرآنية في سورة الإسراء ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ تدل على أن فسادهم في المرتين سيُرافق بعلو. فهناك فساد دون علو بمعنى

أن فساداً ما قد تحدثه فئة من الفئات دون أن يكون لها شأن وعلو واستكبار وتحكُّم، وهذا يعني أن العلو هو التحكم برقاب العباد والأموال والتجارة والاقتصاد، فإذا اجتمع الفساد والعلو في فئة صار الأمر أخطر وأفدح أثراً وسوءاً. وقد تناول المفسرون المسلمون هذه المسألة، فأقر معظمهم أن الفساد المتعلق ببني إسرائيل قد حدث في الأزمان السابقة على بعثه محمد ﷺ.

وقد أورد السيوطي في تفسيره الدر المنثور في التفسير المأثور عدداً كبيراً من أسماء المفسرين والعلماء الذين تناولوا هذه المسألة.

فأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ فكان أول الفساد قتل زكريا عليه السلام فبعث الله عليهم ملك النبط، فبعث الجنود وكانت أساورته ألف فارس، فهم أولو بأس شديد فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيماً مسكيناً وإنما خرج يستطعم، وتلطف حتى دخل المدينة فأتى مجالهم وهم يقولون: لو يعلم عدونا ما قذف في قلوبنا من الرعب بذنوبنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حين سمع ذلك منهم وأشد القيام على الجيش، فرجعوا وذلك قول الله ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾. ثم إن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم فاستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾. وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ قال: الأولى قتل زكريا عليه الصلاة والسلام والأخرى قتل يحيى عليه السلام. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله عليهم في الأولى جالوت فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث إليهم ملكاً، يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت وقُتل جالوت، فنُصر بنو إسرائيل، وقُتل جالوت بيدي داود عليه السلام. ورجع إلى بني إسرائيل ملكهم، فلما أفسدوا بعث الله عليهم في

المرة الآخرة بختنصر فخرب المساجد وتبّر ما علوا تتبيرا. وقد درج أكثر المفسرين القدامى على هذا التفسير.

وإذا عدنا إلى الآيات الكريمة التي تحدثت عن إفساد بني إسرائيل نرى ما يضعف روايات المفسرين.

فالسيوطي رحمه الله، ينقل روايات ابن جرير وابن عساكر وابن أبي حاتم دون تسلسل في السند. فيظن القارئ أن الأحاديث التي وردت هي منسوبة إلى رسول الله ﷺ بينما هي خالية من السند، ومتنها ضعيف جداً بوجه عام، وقد أُخذ على السيوطي أنه يروي أحاديث ضعيفة جداً، كما أخذ عليه وقوعه في الإسرائيليات.

يقول الدكتور محمد أبو شهبة: وقد أكثر ابن جرير من النقل عن ابن إسحاق. وابن إسحاق يستند على وهب بن منبه، وروايات من أسلم من هؤلاء اليهود لا يؤخذ بها، بل تُترك لما فيها من احتمالات الصدق والكذب.

مناقشة آراء المفسرين الواردة سالفاً:

القول الأول: ابن جرير عن ابن مسعود، قال كان أول الفساد قتل زكريا، وبعث الله عليهم ملك النبط، وخرج بختنصر، ثم تجهز بنو إسرائيل وكروا على النبط.

فإذا كان قتل زكريا هو الفساد الأول. فإن قتل نبي واحد لا يمثل فساداً كلياً في الأرض، وكمْ من الأنبياء قتل بنو إسرائيل؟ ثم إن قتل زكريا عليه السلام لم يرافق بعلو لبني إسرائيل. وقد قتل في أيام السيد المسيح ولم يكن اليهود يحكمون؛ إذ كان الرومان هم الحاكمون، وكان الملك الروماني بيلاطس هو الحاكم.

أما ملك النبط فيوحي بأنه ملك الأنباط، وقد ظن ابن جرير أن النبط هم البابليون وكان بختنصر ملكهم. وقد وُجد بختنصر في القرن السادس قبل الميلاد وتحديداً سنة 570، فكيف نوفق بين تاريخ مقتل زكريا عليه السلام وتاريخ وجود بختنصر؟ إن التناقض التاريخي واضح جداً في هذه المسألة.

ثم إن بني إسرائيل في عهد بختنصر سبوا إلى بابل وظلوا فيها سبعين عاماً حتى جاء حكم الفرس، ولم يكر بنو إسرائيل على البابليين؛ إذ لم يكونوا سوى ثلة من الضعفاء جداً.

أما القول الثاني: أخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ وقال الأولى قتل زكريا.. والأخرى قتل يحيى.

وهذا القول فيه من الضعف الكثير، فقتل زكريا لم يكن في عصر غير عصر يحيى، بل قُتل الاثنان في مرحلة واحدة لا تتجاوز السنة. فلا يمكن أن نسمي مقتل زكريا إفساداً أوّلَ ومقتل يحيى إفساداً آخر، وقتلهما كان إفساداً، ولكن الإفساد لم يرافقه علو، ولم يكن في الأرض بل هو محصور في منطقة واحدة ضيقة، وقد قتل أنبياء على أيديهم قبل زكريا ويحيى، ولم يُشر إلى أنه إفساد أو علو، وهذه هي طبيعة بني إسرائيل الإجرامية.

أما القول الثالث وهو عن ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس بأن الله بعث عليهم جالوت فجاس خلال ديارهم وضرب عليهم الخراج والذل، ثم أفسدوا مرة ثانية فبعث عليهم بختنصر، وهذا القول يخالف مضمون الآيات الكريمة، خاصة عند قوله تعالى: ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾، فجالوت كان وثنياً وليس موحداً وليس هو من عباد الله الخاصين.

وقولهم إن الإفساد الثاني كان زمن بختنصر. ولكن الدارس في الآيات الكريمة يرى أن الحديث يدور بين طرفين لاسواهما، وهما اللذان وجدا في الأولى وهما اللذان وُجدا في الثانية، والذي يدل على ذلك تكرار الضمائر المشيرة إلى الطرفين نفسهما وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾. أي على نفس الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة، ونفس الذين ورد ذكرهم في الآيات اللاحقة. فهم (عباد لنا) والطرف المقابل (بنو إسرائيل) يتكرران في الصراع. فكيف يكون جالوت بختنصر أو جماعة جالوت هم جماعة بختنصر؟ وهما في زمنين مختلفين تماماً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يتعلق بمسجد محدد هو المسجد الأقصى، وبنو إسرائيل لم يكن لديهم مسجد في المرة الأولى ولا في المرة الثانية، بل هناك معبد يُسمى معبد الرب، ولم تطلق كلمة مسجد إلا على المكان الخاص لعبادة المسلمين.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الحج 40.

فنرى تمييزاً بين معابد النصارى واليهود والمسلمين. ولو كان هناك مساجد لدى اليهود أو لدى بني إسرائيل لما خص الله سبحانه هؤلاء بأسماء معابد غير اسم المسجد الذي خصه الله أمة الإسلام به. والقصد من ذكر المسجد مربوطاً ببني إسرائيل يعني أنهم يحتلون بقعة هذا المسجد، ويكون محور الصراع بين عباد الله المسلمين وبين المحتلين من بني إسرائيل.

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ الإسراء 5.

وتعني الآية: إذا جاء وقت أولى المرتين من فسادكم وعلوّكم بعثنا عليكم عباداً خاصين لنا يجوسون خلال الديار التي كانت لبني إسرائيل. وجاسوا بمعنى طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين[1].

ففي أولى المرتين يكون بنو إسرائيل قد بلغوا ذروة الإفساد وذروة العلو. ولكننا لابد أن نتوقف عند ذلك طويلاً..

1 ـ لقد نزل القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد ﷺ بينما كان اليهود متمركزين في المدينة وما حولها. وكانت لهم حصون قوية في خيبر وفدك وتيماء. وكانوا عدة قبائل منها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وغيرها. أما في فلسطين فكان الرومان يحتلون البلاد لكن اليهود آنذاك كانوا مؤثرين على الحكم الروماني، وكانوا آنذاك ينقسمون مذهبياً إلى الفريسيين والصدوقيين. والصدوقيون كانوا طبقة الأغنياء المؤثرين

---

(1) إعراب القرآن وبيانه محمد علي طه الدرة.

في طبيعة الحكم، بينما كان الفريسيون يركزون على الدسائس ضد المسيحيين بأساليب التآمر والدس، فبطرك القدس صفرينوس تضايق منهم كثيراً حتى إنه طلب فيما بعد من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عند فتح القدس ألاَّ يساكن اليهود أهلها، وهذا ما ورد في العهدة العمرية، بينما كان اليهود في العراق وبلاد فارس من المرضي عنهم، لما لهم من دور قديم في مساعدة الفرس في القضاء على الدولة البابلية.

وبمعنى من المعاني فإن اليهود آنذاك كانوا في أوج مجدهم المالي والنفوذ السياسي والاقتصادي في الجزيرة والعراق والشام. ولم تشر المصادر التاريخية إلى وضع سيّىء لهم في ذاك الوقت.

وما يعيننا هنا العلاقة بين البعثة ووجود اليهود في المدينة وما حولها.. فالرسول عليه الصلاة والسلام بُعث في مكة. ويعلم اليهود أن نبياً سيأتي في هذا الزمان. وتشير كلّ المصادر أن اليهود فوجئوا عندما عرفوا أن النبي الجديد هو من نسل إسماعيل وأنه من العرب وليس من بني إسرائيل، وراحوا منذ ذلك الوقت يحضرون أنفسهم للغدر والعداء المستشري لهذا النبي ومن سيتبعه من أمة العرب وغيرهم.

وقبل أن تنتشر الدعوة ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة نزلت على قلبه عدة سور مكية، وكان من أكبر هذه السور سورة الأعراف. وهذه السورة حوت الكثير الكثير عن بني إسرائيل. وقد حققت هذه السورة رؤية متكاملة لطبيعة التعامل المستقبلي مع قوى الكفر والضلال والنفاق، بالنسبة لرسول الله ﷺ وكذلك بالنسبة للمسلمين، حتى يعرفوا أن يميزوا الأعداء من الأصدقاء، ويعرفوا أيضاً كيف يتعاملون مع كل طرف حسب ما تقتضيه أحجام القوى.

نزلت سورة الإسراء في مكة، ومكة خالية من اليهود، لكن هذه السورة التي تحدثت عن إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قدمت إرهاصات للمستقبل لا يعلمها إلا الله. فالمسجد الأقصى سيكون محور الصراع القادم بين أمة الإسلام وبين قوى المغضوب عليهم من اليهود وحلفائهم من الضالين. وقد بشرت هذه السورة بعودة هذا المسجد إلى دائرة المسلمين بعد أن طغى فيه اليهود وأفسدوا وعَلَوا في الأرض.

وعندما ننظر إلى سورة الأعـراف ونعـرف أنـها أيضـاً نزلـت فـي مكـة ، أي أنـها سورة مكية نرى أنها كانت تمهد لحدث عظيم في حياة رسول الله ﷺ والأمة الإسلامية وتقع هذه السورة في مائتين وست سور .

كان عليه الصلاة والسلام يواجه ضغطاً شديداً من قريش ، ويعاني المسلمون الأوائل أشد المعاناة مـن المشركين . وقـد ضـاقت الأحـوال بـهم ، حتـى هـاجر نفر منهم إلى الحبشة مرتين . وفي هذا الجو السائد كان رسول الله ﷺ ينتظر أمر ربه . وأصبح الجو الاجتماعي في الأوس والخزرج مستعداً إلى حد بعيد ، لاستقباله بعيداً عن عنت قريش وضلالها .

لم تكن مكة آنذاك تحوي يهوداً يساكنون قريشاً ، ولم يكن أهل مكة على تماس مباشر مع أهل الكتاب ، وكان كثير من معالم الشخصية اليهودية غائبة عـن مكـة ، ولا يعرفون سوى القليل عنها . وهذا القليل يتعلـق ببعـض الربويـين اليـهود الذيـن يفـدون إليها لإقراض بعض الشخصيات القرشية أموالاً يأخذون مقابل إقراضها فائدة ربويـة .

ولما كانت آيات القرآن الكريم مشتملة علـى كـل شـيء ، فقـد جـاءت سـورة الأعـراف لتعلم النبي الكريم ﷺ درساً عظيماً في تحديد الجماعات التي سـيواجهها عـن قريـب ، عندما يأذن الله بالهجرة إلى المدينة . كانت المدينة سكناً لـلأوس والخزرج ويشـاركهم في سـكنها يـهود ، وكـان يـهود يشـكلون فيـها وحولـها ثقـلاً بشـرياً اقتصادياً ودينياً ، وتنتشـر بيوتـهم وقلاعـهم وحصونـهم فـي بنـي النضـير وقريظـة وقينقـاع ، فــي خيـبر المشهورة بحصونها وقصورها وغيرها من المناطق .

لقد علّم القرآن الكريمُ رسولَ الله ﷺ أن هـؤلاء اليـهود سيكونون أشـد النـاس عداوة للإسلام والدعوة . لأنهم يدّعون إرث عقيـدة التوحيـد وللأنبيـاء الذيـن سبقوا محمداً ﷺ . وبـين أيديـهم كتـاب التـوراة الـذي فيـه بعـض ممـا نـزل علـى موسـى عليه السلام وبقية أنبياء بني إسرائيل .

وقضى الله سبحانه أن تكون الدعـوة الإسـلامية آخـر الرسـالات ، وأن محمـداً ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم ، وأنه لن يكون من بني إسرائيل ، بل سيكون عربياً مـن نسـل إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام .

وحتى يتم نجاح الدعوة كان لابد من تعريف النبي الكريم ﷺ بطبيعة هؤلاء اليهود؛ شخصيتهم، عقائدهم، تعاملهم، تاريخهم، ومن ثم كيفية التعامل معهم على ضوء ذلك.

فبعد أن قص علينا القرآن الكريم الصراع الذي جرى بين موسى عليه السلام وفرعون، وبعد أن عرفنا نهاية الطاغي المتجبر، يقص علينا خروج موسى وبني إسرائيل إلى سيناء. وما إن دخلوا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء.

يقول الله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ الأعراف 138.

فكان ذلك دليلاً على أن بني إسرائيل متعلقون بعبادة وثنية قديمة عرفوها عند المصريين وليس لهم أدنى علاقة بفهم عقيدة التوحيد.

وعندما ذهب النبي موسى لميقات ربه انقلب عليه بنو إسرائيل فاتخذوا العجل إلهاً لهم صنعوه من الذهب وكادوا يفتكون بهارون أخي موسى، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ الأعراف 148.

فمرة أخرى يعود بنو إسرائيل إلى مخزونهم العقيدي الوثني. وظلت الوثنية متغلغلة في نفوسهم وقلوبهم، وتحينوا فرصة غياب موسى فأفصحوا عن مكنون تلك النفوس، وصنعوا إلهاً لهم من الذهب على شكل عجل. ولا يخفى علينا أن ذلك كان تعبيراً عن تتبعهم ديانة المصريين الذين عبدوا العجل (آبيس).

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم تحدث عن اختيار موسى سبعين رجلاً من قومه لميقات ربه فأخذتهم الرجفة. وهناك دعا موسى ربه أن يغفر له ولقومه وأن يكتب لهم في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، فكان كلام الله سبحانه لموسى أن عذابه

يصيب به من يشاء وأن رحمته وسعت كل شيء، فسيكتبها للذين يتقون ويؤمنون بآياته. ولكن من هؤلاء الذين يتقون ويؤمنون بآياته؟.

ويُتبع القرآن الكريم مباشرة بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف 157. فهذه الآية التي اتبعها الله سبحانه بعد دعاء موسى ورد الله سبحانه عليه، تنقلنا من عصر موسى إلى عصر جديد سيحصل. فالرسول الكريم ﷺ ما يزال في مكة، لكنه سيهاجر إلى المدينة قريباً، وفي هذه المدينة أقوام من بني إسرائيل، فلا يُحْسب هؤلاء أنهم متقون مؤمنون بآيات الله إلا إذا اتبعوا هذا النبي القادم من مكة فهو نبي آخر الزمان، وصفاته كثيرة أوردتها الآية السابقة، فهو رسول نبي أمي ومكتوب عنه في التوراة والإنجيل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، إلى آخر ما هنالك من صفات دعوية. ويطلب الله سبحانه منهم مناصرته واتباعه واتّباع القرآن الذي نزل على قلبه. فهو رسول الله للناس جميعاً، وعلى بني إسرائيل أن يؤمنوا به لأنه يؤمن بالله وكلمته.

إن الله سبحانه يريد بذلك أن يضع الأمور واضحة بين أيدي هؤلاء اليهود، حتى لا تكون حجةً أو تبريراً لعدم اتباعهم ذلك الرسول القادم من مكة رحمة للعالمين. فالقرآن الكريم يشير بوضوح إلى قصصهم مع النبي موسى، وما كانوا عليه في مصر، وما جرى معهم أثناء عبورهم سيناء وعبادتهم العجل، ولا مجال لهم للنكران والجحود. فهذا النبي يعرف تاريخ عقائدهم وقصص انحرافهم وما لهم إلا اتباعه وعدم المكابرة الكاذبة.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف: 161 ـ 162.

وتحريف القول بل حرفه عن الحقيقة التي أمرهم الله أن ينقادوا لها أصبحت صفة ملازمة للشخصية اليهودية. وهم بذلك ظالمون بالمطلق، ظالمون لأنفسهم وظالمون لغيرهم. ولذلك فقد عاقبهم الله بأشد أنواع العقاب، غير أنهم جبلوا على الظلم والكذب والتحريف وسيظلون في هذا الطريق غارقين.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ الأعراف: 163 ـ 166.

وتلك قصة أخرى يعلمها ربنا للرسول الكريم ﷺ يبين فيها طبعاً من أطباع اليهود. فهم مخادعون يظنون أنهم يخدعون الله وما يخدعون إلا أنفسهم. وقد عرف تاريخهم فنوناً من المكر والخداع لم تعرفها أمة أخرى. وقد عرفنا الكثير منها من خلال آيات الله في كتابه الكريم، ومن خلال توراتهم، ومن خلال سجلات التاريخ التي حفلت بذمِّهم.

وتأتي الآيات التالية بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأعراف 167.

فهنا ندرك أن الله سبحانه بعد أن بيَّن أخلاقهم وإفسادهم وانحرافهم أعلم الرسول الكريم ﷺ بأن هذا الإفساد لن يدوم نشره على أيديهم، إذ كتب الله سبحانه في لوحه المحفوظ أنه سيبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، حتى يوم القيامة، وهذا القضاء الإلهي خصص اليهود دون غيرهم.

وإذا تذكرنا الآيات الأولى من سورة الإسراء وبالتحديد قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ أدركنا مسألة في غاية الخطورة لما تحمل من إرهاصات إلهية يعلمها الله سبحانه لأمة الإسلام. فالله سبحانه يعلم رسول الله ﷺ أن هؤلاء المفسدين اليهود سوف يعلون ويفسدون، وعند إفسادهم الثاني وعلوهم سوف يأذن الله سبحانه بإذلالهم وتحرير الأقصى من قبضتهم وتدمير كل مظاهرهم الفاسدة. ولكن ذلك سيتبعه أمر أهم، فعباد الله مكلفون إلهياً بملاحقة إفساد اليهود أينما كانوا وكيفما حلوا وليس فقط في الأرض التي بارك الله فيها. فالآية تقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ . فخلاص الأرض المباركة من أيديهم ليس نهاية الصراع أو نهاية المطاف معهم، لأن إفسادهم يعم الأرض. وعباد الله مكلفون، بل مقدر لهم أن يلاحقوهم ويدمروا إفسادهم، وهكذا دواليك، فلن تتوقف حملة استئصال فسادهم حتى يوم القيامة. ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الأعراف 168.

فعند هذه الآية يتوقف العقل لمعرفة أسرار القرآن وإعجازه. فقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يحمل فيه من الإعجاز والدلالات الكثير، فلم يقل وزعناهم أو نشرناهم، بل قال: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ ﴾ بتشديد الطاء، ومصدر الفعل قطّع هو تقطيع، ودلالتها أقرب إلى دلالة التمزيق منها إلى دلالة التوزيع، وهي دلالة سيئة بالنسبة لهم، بل هي نوع من أنواع العقاب. ثم يقول: ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . وهذا يعني أن الله عاقبهم بتقطيعهم أمماً في الأرض. وهذا ما يؤكد أن إفسادهم من بعد التقطيع سيكون في الأرض كلها.

ويتلاحقون جيلاً بعد جيل فيأتي بعد الجيل الأول أجيال حتى يأتي من بعدهم جيل يأخذون بشيء من الكتاب ويهملون بعضه. ينتقون ما يوافق أهواءهم ويعرضون عما سواه.

يقول تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ الأعراف 169. فكلما تقدم بهم الوقت، ازدادوا انحرافاً. وأشد أنواع الانحراف أنهم يتقبلون فوراً أي عرض دنيوي يماثل ما يأخذونه من الكتاب. المهم أن يكون موافقاً أهوائهم على الرغم من أن الله أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً أن لا يقولوا إلا الحق. ولكنهم نسوا ميثاق الله معهم، على الرغم من أنهم يعرفون حق المعرفة ذلك الميثاق، لأنهم درسوه وما حفظوه. عرفوه وجحدوا به وطووه دون الأخذ به. ولعل من أبشع أنواع الخلق البشري أن يخون البشر ميثاقاً بينهم وبين غيرهم، فكيف إذا كانت الخيانة لله ولميثاقه الغليظ؟

من هنا نرى أن سورة الأعراف منحت رسول الله ﷺ رؤية واضحة لوضع اليهود، من الناحية العقيدية والنفسية والاقتصادية. وهذه الرؤية التي مُنحت له من خلال السورة حددت له كيفية التعامل مع اليهود الذين سيواجههم في يثرب، فهو يتهيأ للهجرة من مكة إلى المدينة، وهو متحصن بآياتٍ قرآنية رسمت له جميع الخطوط العامة لما هو قادم.

ومن المهم أن نتنبه لذلك بما أن الصراع مع اليهود سيكون مفتوحاً. ولنا من سورة الأعراف دروسٌ كبرى، حتى نتعلم كيف يكون التعامل مع هؤلاء الذين قطَّعهم الله أمماً في الأرض، ثم تجمعوا ومدوا بأموال وبنين وأصبحوا أكثر نفيراً. هؤلاء الذين قدر الله سبحانه، أن يذلهم ويسوء وجوههم تمهيداً لتحرير الأقصى والأرض المباركة وملاحقة الإفساد اليهودي أينما وجد وأينما حل.

فساد بني إسرائيل وعلوهم. من الصدام الدموي في يثرب إلى تحرير بيت المقدس:

قد يتصور بعضنا أن فساد بني إسرائيل ينحصر في مدينة ما أو منطقة محصورة محددة، وعليه فقد يتصور أن القضاء على هذا الفساد لا يحتمل وقتاً طويلاً. والواقع أن فساد بني إسرائيل يمتد جغرافياً ويمتد زمنياً.

حال اليهود في المدينة وما حولها:

حدثت بين الأوس والخزرج معارك طاحنة، ولبثت الخصومة بينهم حسب بعض المصادر مائة وعشرين سنة. وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالف كل من الأوس والخزرج قبيلة من اليهود، فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بُعاث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يوماً عظيماً مات فيه أكثر رؤسائهم.

في أثناء ذلك كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود هدد اليهود العرب بأن نبياً قد آن أوان بعثته، وأنهم سيكونون أتباعه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم[1]. وإذا تتبعنا مسيرة الصدام بين المسلمين وبين اليهود نرى أنها امتدت سنوات، بدأت منذ البعثة المحمدية، وتخللها الصدام في المدينة مع بني قينقاع، ثم بقية القبائل اليهودية، واستمرت حتى حُرِّر بيت المقدس في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والواقع أننا لا نستطيع أن نفصل هذه السلسلة بعضها عن بعض فهي تشير إلى فساد بني إسرائيل وعلوهم، ثم إلى القضاء على الفساد والعلو بشكل انحداري منذ البعثة حتى تحرير بيت المقدس.

قال ابن إسحاق: كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق قينقاع ثم قال: يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة ص 161.

وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم قالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك؟ لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم في الحروب فأصبت فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس.

وروى ابن هشام عن عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عوانة أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ فيها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ. فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فخرجوا إلى أذرعات الشام وهلك أكثرهم فيها. فالمدقق في فعلِ اليهود وأقوالهم يستنتج أنهم كانون يظنون أنفسهم أقوى من قريش وأنهم رجال حرب. وهذا الكلام يدل على أنهم كانوا يعيشون حالة نفسية متعالية، ثم إنهم بتصرفهم الأحمق مع المرأة المسلمة يدللون على فسادهم وإفسادهم ونظرتهم العنصرية لسواهم. وهذان الأمران؛ أي الظن بأنهم أقوى من غيرهم وأنهم قادرون على مواجهة الرسول ﷺ، وتصرفهم الفاسد مع المرأة - يدلاّن على أنهم كانوا في حالة علو وإفساد، وهذان الأمران ليسا سوى المقدمة للصدام بينهم وبين المسلمين. ويظهر جلياً أن الذي ألهب مشاعر اليهود وآثار الحقد الدفين في نفوسهم إنما هو ما وجدوه من انتصار المسلمين في بدر. وهو أمر لم يكونوا يتوقعونه بحال. فضاقت صدورهم بما احتوته من الغيظ والأحقاد، ولم يجدوا إلا أن ينفسوا عنها بمثل هذا الذي أقدموا عليه. وتتصاعد طبيعة الصدام عندما هم اليهود بقتل النبي ﷺ. وكان ذلك في بني النضير، عندما أرادوا أن يلقوا على الرسول ﷺ صخرة لقتله، فأعلمه جبريل عليه السلام. واعتبر النبي ﷺ ذلك نقضاً للعهد الذي كان بينه وبين اليهود. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى بني النضير أن اخرجوا من بلدي وقد

أجلتكم عشراً، من رؤي بعد ذلك ضربت عنقه. فأخذوا يتهيؤون للخروج، لكن كبير المنافقين أطمعهم بأن يساعدهم فتحصنوا بحصونهم ومعهم النبل والحجارة، ولكن ابن أُبيّ المنافق خذلهم. فحاصرهم النبي ﷺ حتى رضخوا وخرجوا من المدينة متجهين إلى خيبر والشام.

وتتطور الأحداث حتى غزوة الخندق عندما نقض بنو قريظة العهد. وجاء الأمر من الله سبحانه بأن يعود رسول الله ﷺ إلى السلاح. وأشار جبريل إلى بني قريظة. فخرج النبي إليهم ﷺ ونادى في المسلمين أن لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة فسار الناس، حتى حاصروا بني قريظة وهم متحصنون في حصونهم. ودام الحصار خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، ثم أنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فيهم، ثم استنزل اليهود من حصونهم فسيقوا إلى الخنادق في المدينة فقتل مقاتلهم وسبيت ذراريهم. وكان من جملة من سيق إلى القتل حُيَيُّ بن أخطب الذي كان قد سعى حتى أقنع بني قريظة بالغدر ونقض العهد.

وعلى بعد مائة ميل شمال المدينة جهة الشام كانت تقبع حصون خيبر الحصينة. وقد تجمع اليهود فيها حيث كانت مدينة كبيرة ذات مزارع وقلاع. وكان النبي ﷺ قد ضايقه تجمع اليهود فيها، حيث ما يزالون يفتنون ويفسدون ويحالفون القبائل لعداء المسلمين.

كان مع النبي ﷺ ألف وأربعمائة مقاتل ما بين فارس وراجل. ووصل المسلمون إلى حصون خيبر، فراحت تتهاوى حصناً بعد حصن إلا حصنين وهما الوطيح والسُلالم. وقد حاصرهما رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، ولشدة الحصار أيقن من فيهما بالهلاك فسألوا الرسول ﷺ أن يخرجهم ويجليهم ويحقن دماءهم فوافقهم رسول الله ﷺ.

ثم إنهم عمدوا إلى زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم فسممت شاة مشوية وأكثرت السم في الذراع. لكن رسول الله ﷺ عرف أن الذراع مسمومة. فدعا

زينب فاعترفت وقالت بُلغت من قومي ما لم يخف عليك، ثم طرد اليهود من الحصنين وجميع منطقة خيبر.

من خلال تسلسل أحداث الصدام بين الرسول عليه الصلاة والسلام واليهود نجد أن اليهود كانوا منتشرين داخل المدينة وخارجها وهم قبائل متفرقة في أمكنة قريبة من المدينة أو بعيدة عنها. وما يدلل على فسادهم تصرفاتهم تجاه الرسول والمسلمين من غدر وخيانة ومحاولة قتل النبي ﷺ، وكذلك محاولة إهانة المسلمين من خلال كشف عورة المرأة المسلمة.

لكن الأهم من ذلك كله أن اليهود آنذاك كانوا يتحكمون عقيدياً بالمنطقة إذ يعتبرون أنفسهم أفضل من العرب؛ لأنهم أصحاب عقيدة وكتاب. وكان العرب وخاصة الأوس والخزرج، يشعرون بنقصٍ أمامهم. وكذلك كانوا يتحكمون بتجارة الذهب والمال، فقد روت جميع كتب السيرة والتاريخ أنهم كانوا يقرضون الأموال لعرب المدينة ومكة وغيرهم من الأعراب. وتبين كتب التاريخ أنهم قبل البعثة كانوا مرتاحين لا يضايقهم أحد من القبائل العربية.

أما علوّهم فقد بلغ أوجه في خيبر حيث كانوا الوحيدين الذين يمتلكون حصوناً قوية لا يمكن أن تُفتح. وإذا قارنا ما كان عليه وضعهم في التحصين مع وضع العرب آنذاك وجدنا أنهم كانوا الأقوى تحصيناً وتسليحاً والأقوى اقتصادياً ومالياً.

ولكثرة ما كانوا يعتزون بحصونهم لم يخطر ببال أحد منهم أن هذه الحصون ستنهار أمام الرسول عليه الصلاة والسلام وجيش المسلمين. والمسلمون أنفسهم لم تكن لديهم الثقة بأن هذه الحصون سوف تستسلم وتسقط، وهذا ما يدل على علوّهم وقوتهم آنذاك.

وقد قال تعالى واصفاً ذلك في سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ

حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ سورة الحشر 2 ـ 3 ـ 4.

ويقول تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحشر 14.

فدلائل علوهم:

1 ـ أن المسلمين كانوا يشكّون في أن تفتح حصون خيبر.

2 ـ وأنهم أي اليهود كانوا يظنون أن حصونهم ستمنع سقوطهم.

3 ـ نصر المسلمين كان من عند الله حيث أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

4 ـ قذف الله في قلوبهم الرعب قبل أن يسقطوا حتى يكون النصر ويتحقق.

5 ـ أن الله كتب عليهم الجلاء. بمعنى أن الله قدَّر عليهم ذلك في علمه المسبق.

ولعل من أعظم دلائل العلو أن تصل الثقة بالإنسان حداً لا يعتقد بعده أنه سوف يسقط، وهكذا كان حال اليهود في خيبر.

بعد هذا الصدام بين المسلمين واليهود لابد أن نتساءل: أين ذهب اليهود الذين كسروا من بني قينقاع وقريظة والنضير وخيبر؟. إن الوقائع التاريخية تشير إلى أن من تبقى منهم رحل باتجاه فلسطين وما حولها، ظناً منهم أنهم سيكونون في مأمن من زحف المسلمين وفتحهم المتواصل.

ارتبط الصراع بين الإسلام واليهود بالقدس ارتباطاً عقيدياً، فقد كان اليهود حسب ما أوردت المصادر يتوجهون في صلاتهم نحو بيت المقدس. وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة توجه نحو بيت المقدس في صلاته مدة ستة عشر شهراً. لكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يتوجه إلى البيت الحرام الذي بنى قواعده أبو الأنبياء وإمامهم إبراهيم عليه السلام.

وعندما أمره الله في النصف من شعبان بالتوجه نحو البيت الحرام خرج السفهاء من اليهود يروّجون بين الناس أن محمداً ﷺ قد حوّل القبلة التي شرعها الله وجهةً للمصلين. فأنزل الله سبحانه في ذلك قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة 144. لقد كان اليهود يعلمون أن محمداً ﷺ نبيٌّ، ويعلمون من خلال كتبهم أنه سيتجه إلى بيت المقدس مدة ثم يختار الله له المسجد الحرام قبلةً، قبلة إبراهيم عليه السلام.

لقد ظهر أن اليهود كانوا يريدون أن يُظهروا أنفسهم أنهم الأصل في اختيارهم أصحاب عقيدة التوحيد، وأن قبلتهم هي الأساس في التوجه في الصلاة، وقد غاظهم أن الله كشف فسادهم ونواياهم السيئة.

وحتى يكتمل عمل رسول الله ﷺ فيما يتعلق بإنهاء فساد بني إسرائيل نبه الصحابة إلى مكانة المسجد الأقصى وبيت المقدس. وقدمنَّ الله عليه بأن جمع في صلاته بين قبلتين ليُذل اليهود أكثر فأكثر.

ويتضح لنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام، ربط بين توجهه واهتمامه البالغ ببيت المقدس، وبين تنفيذه عملاً يكون مقدمة لفتح الأرض المباركة. فبعث السرايا باتجاه الشام، وحدثت معركة مؤتة ثم غزوة تبوك. وكل ذلك كان تمهيداً واقعياً لفتح بيت المقدس. إن اليهود ادعوا أن بيت المقدس كان قبلتهم، وكان رسول الله ﷺ يدرك أنهم فاسدون مفسدون، ولن يكتمل محو فسادهم وعلوهم إلا إذا خلص بيت المقدس من أي ارتباط بإفسادهم وعلوهم. ولذلك رأينا أن انكسارهم بدءاً من بني قينقاع حتى انكسارهم في خيبر يظل ناقصاً إن لم يحرر بيت المقدس ويضم إلى الدائرة الإسلامية، ويلغي أي علاقة بهؤلاء اليهود الفاسدين، ولذلك فإننا نرى أن فساد بني إسرائيل وعلوهم يقع في دائرة واحدة تبدأ من أول صراع مع اليهود

وتنتهي بتحرير بيت المقدس. يروي ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: ثم سار الخليفة عمر رضي الله عنه حتى صالح نصارى بيت المقدس واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل مكان المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء.

ومما يلفت النظر أن الخليفة عمر صلى بالمسلمين صلاة الغداة فقرأ في الركعة الأولى من سورة ص، وسجد فيها والمسلمون معه، وقرأ في الركعة الثانية سورة الإسراء (سورة بني إسرائيل) ثم جاء إلى الصخرة فاستدل مكانها من كعب الأحبار. ثم جعل المسجد قبلي بيت المقدس وهو المسجد العمري. ثم نقل التراب عن الصخرة بطرف ردائه وقبائه. ونقل المسلمون معه ذلك.

ونذكر جميعاً العهدة العمرية وما تضمنته من أمور كان أهمها البند الذي يقول: (وأن لا يساكن اليهود أهل إيلياء) حيث جاء هذا من شروط تسليم مدينة القدس للخليفة عمر رضي الله عنه.

ومع فتح بيت المقدس رفعت قواعد المسجد الأقصى، فوق البقعة التي أُسري برسول الله ﷺ إليها ثم عرج منها إلى السماء. وبذلك سقط علو بني إسرائيل سقوطاً كاملاً، وأنهي إفسادهم الأول. لقد استغرق ذلك السقوط مدة ليست باليسيرة، بدأت كما قلنا نظرياً منذ بُعث الرسول ﷺ، وعملياً منذ الصدام الأول مع بني قينقاع في المدينة، وانتهت عند فتح بيت المقدس وإلغاء أية علاقة أو ادعاء من قبل اليهود بأن لهم شأناً وارتباطاً ببيت المقدس.

وقفة مع الدخول الأول إلى بيت المقدس:

يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ الإسراء الآية 5.

عندما نزلت سورة الإسراء كان رسول الله في مكة. فالسورة مكية وليست مدنية.

فإذا تأملنا قوله تعالى فإذا جاء وعد أولاهما ، ندرك أن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان لا يتحقق جوابه إلا إذا تحقق فعله . بمعنى أنه إذا جاء وعد المرة الأولى بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد . بعثُ العباد لا يتم إلا إذا تحقق على الأرض تنفيذ قضاء الله بمجيء المرة الأولى .

فالحديث يدور عن المستقبل الآتي بعد نزول سورة الإسراء ، لأن الصراع سيكون على أشده بين المسلمين واليهود . وليس الحديث يدور عن الماضي وما حدث فيه كما يرى بعض المفسرين القدامى . ولعل ـ إذا ـ الشرطية المرتبطة بالمستقبل تقول ذلك .

وقوله تعالى بعثنا عليكم . تعني أن الله سبحانه هو الذي اختار هؤلاء الذين يبعثهم على بني إسرائيل . ولم يقض الله سبحانه أن بعث على بني إسرائيل عباداً له خاصين في اختياره سوى المسلمين .

لقد ظل اليهود في المدينة وخيبر وبعض المناطق الأخرى مئات السنين ، لم يتعرضوا للنفي والإخراج من الديار إلا في زمن المسلمين .

لقد بلغ إفسادهم حداً يستدعي أن يوقفوا عند حدّهم ، وبلغ علوهم شأناً كبيراً في التحكم بالمال والمراباة والاستهتار بالعرب من أهل الجزيرة العربية . وهذا العلو المرافق بالإفساد يحتاج لمن يُنهيه ، فلذلك اختار الله سبحانه المسلمين ليكونوا المسلَّطين على بني إسرائيل في هذا الشأن .

وقال تعالى : ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ . فلا يكفي أن يكونوا أولي بأس بل وصف البأس بالشدة ، ليتناسب ذلك مع فساد بني إسرائيل وعلوهم .

وعند قوله ﴿ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ . فإن الديار لم تتحدد في مكان واحد . فكل منطقة سكن اليهود فيها وتحصنوا في قلاعها وحصونها هي ديارهم ، إن كان في خيبر أو غيرها . فجاسوا خلال الديار أي دخلوا حاراتها وقلاعها وكل شبر فيها ولاحقوا اليهود فيها إما قتلاً وإما نفياً وأسراً . وكان وعد الله في ذلك وعداً مفعولاً لا رادّ له .

ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ الإسراء 6 لقد قضى الله سبحانه أن يصل الصدام بين المسلمين واليهود إلى ذروته مرتين وفي كل مرة يبلغ فساد بني إسرائيل مرافقاً بعلوهم، الذروة.

أما بالنسبة للزمن الذي رد فيه سبحانه الكرة على العباد فهو لم يتحدد، إذ جعل هناك قرائن لغوية تفيدنا في إضاءة المسألة.

فثم حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور التشريك في الحكم، والترتيب، والمُهلة. فثم تفيد هنا التراخي الزمني بين الاخبارين كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

رددنا: النا تعود لله سبحانه بمعنى أنه هو الذي رد لهم الكرة.

عليهم: الهاء تعود إلى عباد لنا إذ من الواضح أن مجمل الصراع يكون بين طرفين، بني إسرائيل وعباد لنا.

وقد يبادر إلى الذهن سؤال: لماذا أراد الله ذلك؟ لماذا ردّ لبني إسرائيل الكرة على عبادة الخاصين.

فالواقع يقول لنا إن الزمن المتراخي بين الانتصار الإسلامي الكبير على بني إسرائيل وبين عودة اليهود إلى القوة من جديد، يصل إلى أربعة عشر قرنا ونيف. وإذا درسنا ما أصاب المسلمين من الابتعاد عن دين الله وسنة نبيّه أدركنا أن ضعفاً عقيدياً وأخلاقياً وسلوكياً حل بالمسلمين، وعدم نصر دين الله واتباع منهجه جعلا المسلمين يصابون بالوهن والرعب والتفرق والتفسخ والانكسار أمام أعدائهم اليهود. ولكن انتصار اليهود هذه المرة حوى من الأسباب الموضوعية الكثير.

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ فهناك ثلاثة أسباب مهمة مكنت اليهود من الانتصار: المدد بالمال، المدد بالبشر، المدد بقوة النفير.

إن دارسة تاريخ بني إسرائيل استناداً على أخبارهم في التوراة وفي كتب التاريخ القديم والوسيط، لا تشير قطعاً إلى وجود ثلاثة أسباب مجتمعة تجعلهم أقوى

من المسلمين إلا في الوقت الحاضر. فلأول مرة يسيطر اليهود على مال العالم، ولأول مرة يجتمع اليهود في فلسطين بهذه الكثافة وهذا العدد. فالهجرة بلغت ذروتها إلى فلسطين، والمهاجرون اليهود جاؤوا من أقطار الدنيا يحتشدون بقوة المال والسلاح، ولأول مرة يستطيع اليهود أن يكونوا أكثر قوةً وأكثر نفيراً من جميع العرب والمسلمين مجتمعين.

ويقول تعالى موضحاً ذلك: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ آل عمران 112. وعندما ندرس واقع اليهود اليوم نرى أن قوتهم تُستمد من أمريكا بكامل طاقتها الفكرية والعسكرية والمالية.

ومن الواضح جداً أن اليهود اليوم يتفوقون على أمة العرب بالسلاح والمال والنفوذ والإعلام، لا لسبب إلا لأن الأمة ابتعدت عن منهج الله الذي رسمه في قرآنه العظيم، ونعتقد أننا بغنىً عن تعداد ما لدى الكيان الصهيوني اليوم من عتاد متفوق وأموال ونفوذ في العالم.

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ فالخطاب موجه لبني إسرائيل. فقد أصبحوا أكثر قوة ونفيراً، ومُدوا بالمال والبنين، وبمعنى آخر أصبحوا في قمة علوهم. فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فإن إساءتهم تقع على أنفسهم أيضاً.

لكن الذي يُفهم من السياق أنهم لن يحسنوا إلى أنفسهم، بل تشابك علوهم مع فسادهم، ولذلك حكموا على أنفسهم بأنفسهم بالهلاك والتدمير. وهم الذين خلقوا الأسباب لذلك. وعندما نتوقف عند قوله تعالى: ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ لابد لنا من وقفة طويلة متأملين ماذا تعني إساءة الوجه لهم بعد أن وصلوا الذروة في العلو والفساد.

وقبل أن ندخل في التفاصيل لابد أن نشير إلى أن إساءة وجوههم هذه المرة ستكون بدايةً في الأرض المباركة، حول المسجد الأقصى الذي هو محور الصراع. فكلمة المسجد وردت في الآية الأولى ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾. ووردت في الآية الأخيرة ﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فهنا نرى أن كلمة المسجد الثانية لا تحتاج إلى تعريف أكثر، فيكفي دخول أل التعريف عليها لترشدنا إلى المسجد الذي ورد في الآية الأولى. ومما يلفت النظر أن المرة الأولى التي انتصر عباد الله فيها على اليهود وهي في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾. لم يرد فيها ذكر للمسجد، لأن الواقع يقول لنا إن المسجد آنذاك لم يكن ظاهر المعالم كما في المرة الثانية. إننا نرى المسجد الأقصى اليوم واضح المعالم، وأخذ من الأبعاد المكانية ما لم يكن قد أخذه عندما دخل المسلمون أرض فلسطين المباركة زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ ماذا تعني بعد أن وصل اليهود الذروة في العلو والإفساد؟ شعب الله المختار.. هكذا بدأت الأسطورة منذ دوّن الأحبار قصص أسلافهم من أتباع اليهودية وأخبارهم. ومنذ ذلك الوقت يعيش اليهودي حالة من الخدعة الكبرى بأنه الأرقى بين شعوب العالم والأنقى من بين كلّ المخلوقات حتى الملائكة. ومنذ ذلك الوقت أغلق على نفسه الأبواب لأنه يرى العالم كله من منظار فوقي عنصري فهو لا يريد الاختلاط بالآخرين ليبقى دمه نقياً، ويكره الإنسانية جمعاء؛ لأنه يظن أن أبناءها دونه وهم أشبه بالحيوانات المسخرة لأغراضه. وبعد مرور هذا الدهر الأسطوري على مقولة التفوق الكاذبة تقف أمامنا الشخصية اليهودية كتلةً من العُقد النفسية التي يصعب على العلماء تحليلها وكشف علاجها والتخلص منها ومن عقدها.

ويبقى العلاج الحقيقي في إطار علم النفس القرآني الذي تغافل عنه الكثيرون، ولم يستطيعوا الوصول إلى مقاصده ومعانيه النفسية.

وعود على بدء، نرجع قليلاً إلى الوراء لنرى الشواهد الكثيرة على ما آلت إليه هذه الشخصية من تضخم عنصري مرضي.

وبعيداً عن البعد التوراتي في تصوير هذه الشخصية يستطيع المرء أن يقف على مئات الشواهد الحديثة والمعاصرة المفصحة عن هذه الحالة المرضية من التضخم والانتفاخ الشخصي.

صحيح أن الدين اليهودي قد ترك خصائص نفسية مشتركة بين اليهود في شتى بقاع العالم، ولكن الدين ليس وحده مصدر المقولات في المجتمعات، ومن ثَمَّ فإنه إلى جانب الخصائص النفسية المشتركة الناجمة عن الدين، هناك خصائص نفسية أخرى ليست مشتركة بين اليهود، ناشئة عن ارتباط كل جماعة منهم بالبيئة الاجتماعية التي تعيش فيها.

غير أن الشيء الذي تتميز به الخصائص الناجمة عن الدين اليهودي ذلك أن الدين اليهودي في حد ذاته، وكما هو مدوَّن في أسفار التوراة وفي التلمود، تنطوي على العنصرية والعنف تعبيراً عن الروح الأنانية. ولم يكن ذلك بمحض المصادفة إذ إن التجربة اليهودية في التاريخ كانت تجربة دموية أنانية إلى أبعد الحدود. وهذه التجربة تتخذ في حقيقتها طابع العقدة النفسية بكل ما تعنيه هذه العبارة من معنى.

والواقع أن الحركة الصهيونية تحاول إعطاء وهم القومية اليهودية مضموناً فكرياً محدداً يرفعها إلى درجة الأيديولوجيا السياسية، ويستند هذا المضمون في أحد مكوناته، على الزعم بالنقاء الجنسي المزعوم للعرق اليهودي، المضاف إليه الزعم بتفوق الجنس اليهودي تفوقاً نوعياً على الشعوب الأخرى.

وينتج عن خرافة النقاء العرقي للجنس اليهودي خرافة التفوق النوعي اليهودي، لكنها تظل بالنسبة للحركة الصهيونية مجالاً أوسع في إتاحة الفرصة للادعاء، ذلك

أن لها أصلها الديني في فكرة «الشعب المختار» ومن ثمَّ، فهي إن عجزت عن إثبات نفسها واقعياً سرعان ما تلتجئ إلى نصوص التوراة التي تدعمها.

يقول بن غوريون بعد انتهاء عمليات العدوان الثلاثي عام 1956 في رسالة وجهها إلى الجيش الصهيوني: «لقد أنجزتم أشياء ربما كانت أهم من أي مسألة سياسية أو دفاعية، لقد أعدتمونا إلى أعظم لحظات حياتنا الحاسمة في تاريخنا، لقد أرجعتمونا إلى المكان الذي أعطينا فيه القانون، وفيه كلفنا الرب بأن نكون شعباً مختاراً».

فهذا النص مثلاً يجعلنا نتساءل عن علاقة بن غوريون واليهود المعاصرين بموسى عليه السلام. وبن غوريون نفسه لا يستطيع أن يوضح أنه هو نفسه سليل آل يعقوب مثلاً. لكن هذا يوضح لنا كيف أن الحركة الصهيونية تحاول الاستفادة من النص ولو لم تنطبق الشروط، لأنه لا توجد بين الرب وعبيده محكمة نقض، وإبرام معاهدة أرضية، وإذا عدنا إلى النصوص الصهيونية المعاصرة نرى أن الوهم بالشعب المختار يبلغ حداً مَرَضياً لا يخفى على أحد.

يقول برنارد كوهين: «إننا نحن المختارون، إن لنا الحق في المطالبة بتبجيل خاص، إننا لا نريد أن نكون مساوين لغيرنا في الحقوق، بل نريد أن تؤثرنا الشعوب الأخرى بامتيازات خاصة».

ويقول آشير جنز برج: «سيسود شعبنا اليهودي كل الشعوب الأخرى. إن إسرائيل هذه هي الأمة العليا التي تملك القدرة على التوسع، وأن تصبح سيدة العالم دون النظر بعين الاعتبار إلى ما يمكن أن يكلف هذه الشعوب الأدنى مقاماً. لأن الأمة العليا وحدها فقط هي زهرة البشرية وذروتها، وما خُلقت الأمم الأخرى جميعاً إلا لتخدم هذه النخبة»[1].

---

(1) هيثم الكيلاني، المذهب العسكري الإسرائيلي، مركز الأبحاث بيروت 1969 ص 25.

ويبلغ الحس بالتفوق والعنصرية مداه حين نقرأ لـــ هربرت شيف وهو يقول بكل بساطة: «إسرائيل هي الخلق الثاني للعالم، إلا أن الإسرائيليين يعملون بسرعة أكبر، بصورة جوهرية من سرعة الله عند الخلق الأول للعالم في ذلك الوقت».

ولا شك في أن هذا المرض الانتفاخي وهذا الوهم الذي سيطر على عقول اليهود في العصر الحديث لم يكن منشؤه عن طريق رواد الفكر الصهيوني وحدهم، بل اشترك العلمانيون والمتدينون في صنعه. واختلط الفكر الصهيوني بالدين كما فسره حاخامات اليهودية في أوروبا الشرقية خاصة وفي العالم عامة.

فجابوتنسكي يقول: «كل إنسان آخر على الخطأ وأنت اليهودي وحدك على الصواب، لا توجد حقيقة واحدة في العالم وهي بكاملها ملكك أنت». ويقول: «إن التوراة والسيف أنزلا من السماء معاً» مشيراً إلى العقيدة والقوة المعتمدة على السيف والسلاح. أما ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي الأسبق، فيقول: «لقد أعطت أمتنا اليهودية ثلاثة من العباقرة تتوقف على علمهم ثقافات الأمم ماركس وفرويد وإنشتاين».

ويقول الحاخام شنيؤورسن أحد قياديي حاباد: «إن الفرق بين اليهودي وبين غير اليهودي كما الفرق بين الروح الإلهية والبشر. فشعب إسرائيل صفوة الشعوب، إذ هو مخلوق من روح الله، بينما أرواح الشعوب الأخرى مخلوقة من النجاسات الثلاث». ولعلنا لا نستطيع أن نحصر كل ما قاله اليهود من مفكرين وحاخامات، وغيرهم من المنظرين السياسيين الصهاينة، لكن ما أوردناه هو شواهد لعدد من هؤلاء الذين وقعوا في عقدة الانتفاخ الذاتي المرضي.

وحين نطلع على ما قاله قادة الكيان الصهيوني منذ استيلاء الصهاينة على فلسطين عام 1948 نرى أنهم دوماً يتصاعدون إلى التماهي مع الفوقية والعنصرية. فمنْ عام 1948 حتى عام 1967 ركز بن غوريون وشاريت ووايزمان وقادة صهاينة

غيرهم على الإنجاز والتفوق والقدرة الذاتية المزعومة في تحقيق تشكيل الكيان الصهيوني. وفي عام 1956 حشد الإعلام الصهيوني مقولات بالمئات لزعماء الكيان الصهيوني على اختلاف توجهاتهم الحزبية، يعربون فيها عن إعجابهم بالعبقرية الفريدة التي استطاعت إلحاق الهزيمة بالمصريين على حد زعمهم. وبلغت ذروة الأنا المرضية عند الزعماء الصهاينة في عام 1967 عندما استطاع الجيش الصهيوني احتلال سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس، وبات من المؤكد أن التضخم النفسي لدى اليهود كافةً بلغ حده المرضي. وأصبح من المستحيل على أي يهودي أن يصدق أن جيشه يقهره أحد، فهو السيد المطلق في المنطقة، وهو الأسطورة التي لا تقهر، إلى ما هنالك من مقولات التضخم الذي طالت كلّ الأوساط اليهودية في فلسطين المحتلة وفي العالم. وبسبب الأوضاع السيئة والمتردية في أقطار الوطن العربي استطاع الإعلام الصهيوني المكثف والمركز والمعتمد على علم النفس أن يروض العقل العربي ويغرس في شخصيته قناعات اليهود ذاتها، والقائلة بتفوق العنصر اليهودي ومضاهاته حتى للملائكة على حد قول أحد الحاخامات.

وحين ننظر إلى الواقع العربي بعد عام 1967 نرى أن كثيراً من أبناء العرب أصبحت لديهم قناعات راسخة بأن اليهودي لا يمكن أن يُقهر وما على العرب إلا التسليم بذلك وقبول الأمر الواقع.

وبانتهاء هذه المقولات وتوصيفها بشكل موجز نعود إلى الجانب الأهم في رؤيتنا لمفهوم العقدة الاستعلائية وكيفية القضاء عليها.

والواقع أن فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً ودقيقاً يوصلنا إلى رؤية متكاملة، تحدد فيها ملامح الشخصية اليهودية، وكذلك أسس الرؤية القرآنية للقضاء على إفسادها وشرورها وتضخمها المَرَضي.

عندما يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء العظيمة ﴿ لِيَسُتُـُٔوا وُجُوهَكُمْ ﴾ كان يخاطب سبحانه بني إسرائيل ومن ينطبق عليهم هذا الاسم.

وعودة إلى النص القرآني تعلمنا ربط القضايا ربطاً دقيقاً يوصلنا إلى نتائج في غاية الأهمية.

يقول تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾. ويقول في الآية السابقة: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

وما دمنا في سياق دراسة الانتفاخ المرضي في الشخصية اليهودية والحل القرآني للقضاء عليها، فإن وقفتنا هنا تتحدد في مسألتين هامتين: إفساد بني إسرائيل وعلوهم علواً كبيراً. وإساءة وجوههم قبل الانتصار عليهم وتدمير ما علوا به من قوة وتحصين وإفساد.

فالإفساد في الأرض وفي الإنسانية كلها كان سبيل اليهود ومازال، فهو إفساد تتبدى مظاهره على مساحة العالم كله. إفساد بالمال وبالجنس، وبالثقافة والعلوم، بالعقائد والمعتقدات. إفسادٌ في السياسة الدولية والمجتمعات العالمية. إفساد بالمافيا والاغتيال والتدمير. وبمعنى واحد إفساد يوازي الشر بأكمله، والعلو والاستعلاء والاستكبار والعنصرية والفوقية، تندرج كلها في إطار واحد هو الظن بالتفوق على البشرية، الظن بأفضلية عنصر اليهود على كل العناصر التي خلقها الله.

وضمن سياق التحليل النفسي فإن حقن الإنسان حقنا يومياً بمقولات التفوق والعنصرية سيجعله يصدق أنه فعلاً متميز عن غيره، ولا يمكن أن يخطر في باله أن ينتصر أحد عليه أو يذله، ويقمع شهواته العنصرية التي تسير حسب هواه دون ضوابط. في هذه الحال لابد من الاعتراف بأن شخصاً يعتز بنفسه اعتزازاً يصل حد العنصرية لا يمكن أن تنتصر عليه قبل إذلاله؛ لأن الإذلال وضعٌ نفسي صعب وقاس، فالاستعلاء والكبر والاستكبار لا يوازيه في القاموس النفسي إلا الإذلال. ومن هنا، كان قول الله تعالى: ﴿لِيَسُـٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾. وقدم إساءة الوجه على أي عمل آخر. وإساءة الوجه تعني الكثير من الإذلال بعد الاعتزاز وتعني الاستصغار بعد

الاستكبار. وتعني تصغير المارد حتى يصبح فأرا تدوسه الأقدام. وهنا فإن إساءة الوجه أكبر انتصار نفسي للمسلمين وأكبر انكسار وذل لليهود.

وأعتقد أن هذه الإساءة في المنظور النفسي تعني أن اليهودي يتحطم نفسياً ويصبح بلا حول ولا قوة. وأعتقد أيضاً أن عملية الإساءة هي الأهم في دائرة الصراع النفسي بين المسلمين واليهود. فاليهودي الذي تربى على أنه العنصر الأفضل في العالم، وأنه شعب الله المختار، وأنه صفوة المخلوقات سيتحطم وتتحطم في شخصيته هذه المقولات الكبرى والقيم المضخمة التي تربى عليها توراتياً وسياسياً.

هذه الإساءة إن تركت له مجالاً للتفكير ولو للحظات سيدرك أن مقولات توراته كاذبة وخادعة وأن مقولات زعمائه الصهاينة هي مقولات زائفة بُنيت على التضليل والخداع، وسيدرك أن الأحلام الوردية الوهمية التي راودته طوال حياته ما هي إلا سراب وأشواك. فهو يسقط بهذه الإساءة من (السوبرمان) إلى أحط إنسان في الوجود، وسيدرك ساعتها أن كل إفساد لابد له من حق يوقفه، وأن كل عُلوّ لابد له من انخفاض يهبط به. وطبيعة الأشياء والحياة هكذا. فلا يمكن أن يدوم إفساد ولا يمكن أن يبقى علو ولو كان في أرقى حضارات البشرية.

والواقع أن الشخصية اليهودية عبر التاريخ كانت شخصية مرتعبة مهزوزة ذليلة، ولعل أهم سبب في ذلك ارتهان هذه الشخصية للحرص على الدنيا. فأي اهتزاز في مكونات الحلم الدنيوي اليهودي يعني بالنسبة له فقدان أرقى أهدافه وفقدان مبرر وجوده. ولهذا السبب لجأ اليهود في الماضي والحاضر إلى القوة في تحقيق توازنهم النفسي الدنيوي. في زمن رسول الله ﷺ تحصنوا في حصون وقلاع وظنوا أنهم يحمون أنفسهم. لكن إرادة الله شاءت أن تحطم الحلم بالتحصين والقوة. وكذلك فهم اليوم يرتكزون في توازن شخصيتهم النفسي من خلال السلاح النووي والأسلحة المتفوقة الأخرى.

ويدركون أن الإذلال المطلق الذي صبه عليهم الله تعالى في خيبر وقريظة سيصبه عليهم مهما كانت قوتهم. وهم يحاولون بشتى السبل غير المشروعة إثبات قدرتهم في درء الإساءة لوجوههم وإذلالهم.

وفي الواقع النفسي اليهودي ترى ازدواجية في تركيب الشخصية اليهودية. فهي في قراءة النفس ذليلة مستكينة، وفي الوجدان العنصري الاستكباري تريد أن تقلل من هذا الشعور بالذل، ولكن المسألة تأخذ أبعاداً أخرى حيث تساعد الظروف الواقعية العربية على شعور اليهودي بالتفوق، إذ إن هذا الواقع العربي كان أكبر مساعد على تصديق اليهودي نفسه أنه الأقوى والأجدر بالبقاء.

الإذلال التمهيدي مقدمات صغرى:

مما لاشك فيه أن اليهودي الذي عانق الوهم عام 1967 وسيطر عليه التضخم بالأنا فقد التوازن النفسي والعقلي، وبات الواقع لا يشكل في ذهنه سوى طرق سهلة للانتصار السريع. لكن التحليل النفسي يقول إن مرض التضخم ينذر بالخطر أكثر، حتى إن بعض الحاخامات اليهود من فرق شرقية رأت في حرب 1967 إنذاراً إلهياً بأن نهاية «إسرائيل» قد اقتربت. وحسب تفسيراتهم نصوص التوراة وخاصة نبوءات دانيال وحزقيال فإنهم يرون في حرب 67 تجاوزاً لحدود الرب. وهذا التجاوز لن يمر بسهولة بل هو قمة الهرم في العلو والإفساد اليهوديين. بمعنى أن قوة اليهود بلغت ذروتها في هذه الحرب وستبدأ بالانهيار رويداً رويداً. وما إن يتعرض اليهودي لأية هزة جديدة يفقد فيها عناصر من الجيش أو من الجمهور ستكون صدمة قاسية تعيد عنصر الرعب إلى الظهور، بعد أن كان قد اختبأ في اللاشعور اليهودي.

ومنذ 67 بدأ عنصر الرعب يظهر من جديد، وذلك من خلال ضربات المقاومة الفلسطينية التي أشعلت في بعض مراحلها ثورة صحيحة وحقيقية ضد المحتلين اليهود. ويأتي عام 1973 فتندلع حرب حقيقية بين العرب والكيان الصهيوني قتل فيها الكثير من جنود الجيش الصهيوني وضباطه. ولأول مرة في تاريخ المنطقة يؤسر الجندي اليهودي ويُذل، وتقام عشرات المقابر الجماعية لمن قُتلوا في الحرب.

وما يهمنا هنا تفسير ظاهرة إساءة الوجه التي تحدث عنها القرآن الكريم وهي، كما قلنا، الإذلال التمهيدي لانكسار هذا العدو المتضخم نفسياً.

غولدا مائير صرخت في اليوم الرابع للحرب وعبر الإذاعة: بأننا ـ أي اليهود ـ لا نحتاج شيئاً الآن سوى أن نطلب الرحمة من الرب. وكانت تبكي بكاء مراً في تلك اللحظة، كثير من المجندات اليهوديات صرحن للصحافة العبرية وأجمعن فيها على أنهن كن يصدقن أن تطبق السماء على الأرض ولا يصدقن أن جندياً من الجيش الصهيوني يقع أسيراً في أيدي العرب.

فهذا إن دل فإنه يدل على أن الانتفاخ المرضي لدى الشخصية اليهودية يتحول إلى صدمة نفسية عارمة لا تكاد توصف.

وعندما نحلل وجوه القادة الصهاينة وتصريحاتهم بعد كل عملية جهادية فلسطينية أو بعد سقوط قتلى من الجيش في جنوب لبنان نرى أنها شخصيات مرتبكة لا تستطيع أن تصدق الذي يجري. هذا اليهودي الذي بالأمس عام (1967) هزم العرب في ساعات، هو نفسه يتساقط ويتهاوى وتتناثر جثث أفراده هنا وهناك في بيت ليد وديزنكوف والقدس وعسقلان والجنوب اللبناني!!.

إن الناظر إلى وجه نتنياهو والزعماء الآخرين يرى خطوط الذل تجتاحه ويرى شفتيه جافتين ويديه هابطتين وفي كلماته لعثمة وارتجافاً.

كل ذلك ليس إلا إشارة لإساءة الوجه اليهودي. وتمهيداً لما هو قادم، والقادم هو أعظم بكثير، وإذا عدنا إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ ندرك أن ذلك قضاء الله سبحانه كما ورد في ما سبق من آيات ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ هو قضاء نافذ لا راد له، ولكن إساءة الوجه هنا ستكون شاملة مطلقة ـ وجوهكم ـ والكاف والميم الجمعية تدل على ذلك. وإن لم يكن هناك إذلال جماعي لليهود كافةً فإن ذلك يفتح احتمال عدم تمكن المسلمين من أن ينتصروا ويدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، ولذلك جاء الخطاب موجهاً بصيغة جمعية لا بعضية.

ولعلنا حين نتذكر آيات قرآنية أخرى تتحدث عن ذات الموضوع ندرك أن الله سبحانه قد كتب على اليهود الذلة والمسكنة، وأنه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب. فالذل والمسكنة تعنيان إساءة الوجه النفسية المستقرة في أعماق الشخصية اليهودية. لكن إساءة الوجه الوجهية أي الظاهرية، هي ظهور الذل والمسكنة ظهوراً تاماً على الشكل والسحنة، على الوجه بما فيه من عينين وفم وأنف، وإذا نظرنا إلى شخص ما أُذلّ إذلالاً تاماً سنرى وجهه غير وجهه الحقيقي، وفمه غير فمه الطبيعي وكذلك عينيه وأنفه. كل شيء سيتغير في وجهه. وهذا التغيير ليس بالأمر السهل على مخلوق وصل القمة في علوه وعنصريته وإفساده وتحكمه وقوته. وهذه الإساءة الوجهية لمثل هذا النوع من البشر تفقده أية قدرة على التحرك، فإما أن ينتحر وإما أن يُساق إلى حتفه وخلاص البشرية منه.

ولنا هنا أن نتذكر ما كان عليه هتلر وزعماء النازية، في أوج الانتصارات وفي أوج الانكسار. أكثر القادة النازيين ينتحرون، من رومل وغوبلز وهملر، حتى هتلر نفسه. ونعتقد أن الشيء ذاته ينطبق على بني إسرائيل واليهود الذين أفسدوا في الأرض وعلوا كما أفسدت النازية وعلت.

القدر الإلهي وإساءة الوجه:

عندما ننظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـࣳٔـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ نرى أن الله سبحانه ربط مجيء المرة الثانية بإساءة الوجه. والفعل ليسؤوا هو في الواقع فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد اللام أي لأن يسؤوا. وهذا يعني في شرح الآية أن مجيء وعد الآخرة يقترن بإساءة وجوهكم قبل أن يدخل عباد الله المسجد الأقصى. في هذا السياق تدلنا الآية الكريمة على أن هناك ثلاث مراحل متتالية تعقب مجيء وعد المرة الثانية. مرحلة إساءة الوجه، وهي الإذلال، ومرحلة دخول المسجد الأقصى وهي مرحلة النصر وعودة الأرض، ومرحلة التتبير وهي مرحلة تدمير كل مظاهر العلو والإفساد التي بلغ فيها اليهود ذروة مجدهم في البناء والعمران والقوة العسكرية والعلمية وما شابه ذلك.

فلا دخول للمسجد إلا بمرحلة الإذلال الكاملة. ولا تدمير لمظاهر العلو والإفساد إلا بتطهير المسجد الأقصى. ويلفت نظرنا هنا أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبهنا إلى أمر هام، وهو أن الإذلال الكامل يتبعه دخول الأقصى وهو دخول يعني بالنسبة لليهود التدمير الكامل لكل مشروعهم القائم على الإدعاء بأن المسجد الأقصى بني على ما يسمى الهيكل. فأعز مكان وأهمه بالنسبة لهم يحرر على أيدي الموحدين عباد الله. يُذلون ثم يزول هذا الوهم الذي صنعوه عن ارتباطهم بالمسجد الأقصى. واستكمالاً للإذلال تدمر لهم كل مظاهر علوهم وقوتهم، فيفقدون كل شيء. يفقدون النفس التي تأصلت على العنصرية والاستكبار والاستعلاء، ثم يفقدون الرمز الذي يربطهم به حاخاماتهم وهو المسجد الأقصى أي «الهيكل» الذي زُعم أنه تحت هذا المسجد، ثم أخيراً إفناء كل مظهر من مظاهر علوهم على أرض فلسطين.

وبمعنى آخر، فإن قضاء الله سبحانه يتحتم عليه عملية ثلاثية الأبعاد لابد أنها ضرورية ومهمة، وخاصة في تسلسلها القرآني وتسلسلها الفعلي الواقعي.

يبقى لنا أخيراً أن نقول: إن قدرية مجيء وعد الآخرة لا يعني استكانة المسلم وانتظاره لهذا القضاء، بل يعني أن تلك الساعة القدرية هي من خصائص الله سبحانه في توقيتها الزمني. فلا يعرف أحد متى ستبدأ ومتى ستنتهي لكن الفاهم لآيات القرآن الكريم يدرك أن من يسومهم سوء العذاب موجود في الواقع ولاشك، ولا تتخيل العذاب بمعناه التعذيب الجسدي المباشر بل هو عذاب نفسي متواصل. ولو دققنا في واقع اليهود منذ زمن بعيد حتى الآن نرى أنهم، وعلى الرغم من مظاهر القوة والعلو يعانون نفسياً معاناة يومية، فالقلق من المصير المجهول لا يفارقهم مطلقاً، فلهذا يعملون ليل نهار كي يظلوا متماسكين إلى أقصى حد، ولهذا أيضاً نرى علماء النفس لديهم يخوضون مع الجنود والمستوطنين جولات نفسية متواصلة حتى يبقى جمهورهم، إلى حد ما، متقبلاً لما يجري في جنوب لبنان، ولما يجري من عمليات استشهادية داخل فلسطين نفسها.

وإذا كان العذاب الذي يمرون فيه ساعة بساعة لم يبلغ مداه فإن ذلك لا يعني أن يتوقف الجهاد. فالجهاد متواصل، وكل إساءة لوجوههم مهما بلغ حجمها هي في المحصلة خطوة أخرى نحو وعد الآخرة الذي فيه تساء وجوههم جميعاً، ويذلون إذلالاً لا تقوم لهم بعده قائمة، لأنه كما قلنا، سيكون خطوة متسارعة وسريعة نحو دخول المسجد الأقصى وتدمير كل مظاهر علوهم وإفسادهم. فإذا تم ذلك فإن الإنسانية جمعاء ستبارك تنفيذ ذلك الوعد لأنها في المحصلة خلصت من عنصر الشر الأساسي في الوجود. وانتهى إلى الأبد عصر اليهودية الفاسدة التي دمرت العالم بشرورها وإفسادها وتدميرها القيم والعلاقات الروحية والإنسانية.

وقفة مع اللغة:

في الآيات السبع الأولى من سورة الإسراء قضايا لغوية لابد من التوقف عندها لتوضح لنا الأمور المتعلقة بفساد بني إسرائيل وعلوهم، وبعباد الله الذين هم الطرف المقابل في الصراع. ولعل الجدول الآتي يوضح ما نرمي إليه:

الآية الأولى المسجد الأقصى	الآية السابقة المسجد
لتفسدنّ	اللام واقعة في جواب قسم
عباداً لنا	عليهم الهاء تعود إلى عباد
ليسوءوا	الواو تعود على العباد
ليدخلوا	الواو تعود على العباد
ليتبروا	الواو تعود على العباد
عليكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
لكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
أمددناكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
جعلناكم	الكاف تعود على بني إسرائيل
أحسنتم	تم: تعود على بني إسرائيل
لأنفسكم	كم: تعود على بني إسرائيل
وجوهكم	كم: تعود على بني إسرائيل
علّوا	الواو تعود على بني إسرائيل ـ دليلها لتعلُن
فإذا	ظرفية زمانية تدل على المستقبل وليس على الماضي أو الحاضر
جاء	فعل ماض ولكنه مقيد بإذا الشرطية الزمانية

فمن خلال ما تقدم نرى أن هناك طرفين في دائرة الصراع لا أكثر. الطرف الأول عباد لنا والطرف الثاني بنو إسرائيل. تتكرر الضمائر في الآيات لتحدد أن الطرفين هما وحدهما المقصودان في هذا الصراع.

1) توضيح: يرى بعض المفسرين أنه ليس شرطاً أن يكون العباد هم المسلمون فكل مخلوقات الله من البشر عباد الله. وللتوضيح نرى أنه لو كان المقصود غير المسلمين لما قال (لنا) بمعنى أن العباد يمتلكون من الخصوصية ما لم يمتلكْها غيرهم. ولو كان المقصود البابليين أو غيرهم كما يرى المفسرون لكان الأولى وصف بني إسرائيل بالعباد. فنحن نرى أن عباداً لنا خاصون لله وميزهم عن بني إسرائيل وغيرهم من البشر.

2) عبر التاريخ لم يتكرر صراع بين بني إسرائيل وفئة أُخرى مرتين. فالبابليون غزوا بني إسرائيل وأخذوهم أسرى ومكثوا في بابل سبعين سنة. ولكن لم يتكرر أن تقابل الطرفان مرة أخرى. إذ إن الفرس قضوا على الدولة البابلية وكان اليهود في بابل.

3) لو كان المقصود بعباد لنا غير المسلمين فما الذي يميزهم عن بني إسرائيل؟ فهؤلاء وثنيون غير موحدين، واليهود منحرفون فاسدون. فلا يمكن أن يوصف هؤلاء وهؤلاء بعباد لنا.

ونشير إلى رأي لمجلة الأزهر نقلاً عن كتاب الشيخ عبد الحميد كشك (نفحات من الدراسات الإسلامية) إن الثابت أن الإسراء وقع لرسول الله وهو بمكة قبل الهجرة، وسورة الإسراء نزلت في مكة كذلك فهي مكية الآيات. وكان المسلمون آنذاك قلةً مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، فلم يكن لبني إسرائيل يومئذ شأن مع المسلمين، ولم يكن لهم أثر بمكة ولا خطر يقتضي أن يتحدث الله عنهم في سورة مكية بمثل هذا التفصيل. فما السر في أن يخبر الله سبحانه عن إسرائه برسوله في آية واحدة ـ أول السورة ثم ينقطع بعدها الحديث عن الإسراء جملة إلى آخرها، ويبدأ الحديث عن بني إسرائيل وما أنعم الله عليهم وعهد إليهم، وعن دور خطير يكون

لهم؟ ما وجه المناسبة بين هذه الآيات والأحداث؟ السر في ذلك أن الله عز وجل يتحدث عن الإسراء بقدر ما يبشر به نبيه والمسلمين المضطهدين في مكة المستضعفين في الأرض، بأن أمرهم سيمتد ويعلو وشيكاً حتى تدين لهم عاصمة الشرك في مكة وعاصمة أهل الكتاب، فهو سبحانه يقول: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ولم يقل من مكة إلى بيت المقدس كما هو واقع الحال.

وقد أشرنا من قبل إلى أن مكة أو الكعبة لم تكن مسجداً بل كانت بيتاً تقوم حوله الأصنام ويطوف به العائذون والمشركون، ولم يكن هناك معبد داود وسليمان في دولة يهودا مسجداً بالمعنى الإسلامي بل كان المعبد هيكلاً يأكل بنو إسرائيل من حوله السحت ويعيثون الفساد، بل يضعون فيه الأصنام ويبيعون فيه الحمام ويجتمع فيه اللصوص في زمن السيد المسيح.

لكن الله عز وجل تحدث عن هذا الإسراء بأنه انتقال من مسجد إلى مسجد تبشيراً للمسلمين، بأن أمرهم سيعلو بحيث يصبح البلد الذي استضعفوا فيه وهانوا، وأُحلت حرماتهم فيه مسجداً حراماً ودار أمن وسلام، ثم يستمر الرأي المنشور بمجلة الأزهر ويورده الشيخ كشك في كتابه قائلاً في تفسير آية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذي قاموا به على عهد النبي وأصحابه وما عاقبهم الله وسلط عليهم فيه، ثم يقول: هذه المرة هي الأولى ولا تنطبق أوصافهم إلا على أصحاب رسول الله وذلك للأسباب التالية:

أ ـ فهم، أي أصحاب رسول الله، يستحقون شرف هذه النسبة (عباداً لنا)، لأنهم الموحدون أتباع (عبده) الذي ورد في أول السورة وهو الرسول الذي أسري به، أما أتباع بختنصر وسابور وسنحاريب، فاضطربت فيهم أقوال المفسرين، فقد كانوا عبّاد وثن ولا يستحقون شرف الاختصاص بالله في قوله عز وجل (لنا).

ب ـ وهم الذين وصفهم الله في كتابه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

جـ ـ وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلاَّ أن جاسوا خلال الديار، أما أتباع بختنصر فقد ذكروا أنه قَتَلَ منهم سبعين ألفاً، وأنه دخل بيت المقدس في أهله

وسلب حليه، فهو اجتياح وليس جوساً. ويستمر رأي الأزهر على نفس المنوال ليؤكد عنوان المقال (سورة الإسراء تقضي نهاية إسرائيل) والواقع أن الآيات الكريمة تشير إلى عدة أمور:

1 ـ يعلو بنو إسرائيل في الأرض مرتين مصحوبتين بإفساد، ومن المؤكد أن العلو الذي عاشوه في ظل بعض رسلهم لم يصحبه إفساد.

2 ـ ينتج عن هذا العلو والإفساد صراع ودمار وخراب في الوقت الذي يضع فيه القرآن بني إسرائيل طرفاً واضحاً وأكيداً في المرتين، فإنه يؤكد أيضاً على وجود طرف آخر يتكرر نفسه في المرتين تماماً كما يتكرر بنو إسرائيل طرفاً أول. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الطرف باسمه مرة واحدة في أول الآيات (عباداً لنا) ثم استمرت الإشارة إليه بضمير الغائب إلى آخر السياق تأكيداً على أنه نفس الطرف الذي يواجه بني إسرائيل في المرة الأولى فبعد قوله تعالى: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ ﴾، ﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾، ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ ـ أكثر منهم ـ ثم تأتي الأفعال المضارعة في قوله﴿ لِيَسُـُٔواْ ﴾، ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ ﴾، ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ ﴾ فالضمير محل فاعل أو مفعول يعود في جميع الأفعال إلى كلمة ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ التي بدأ بها السياق القرآني، والضمير فاعل الأفعال الثلاثة الأخيرة﴿ لِيَسُـُٔواْ ﴾ ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ ﴾ ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ ﴾ عائد كما هو واضح على ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ ما يؤكد أنها في الحالين معركة بين طرفين فقط أي بين المسلمين واليهود.

3 ـ من الواضح أن التفسيرات الأخرى تشير إلى مواجهة بني إسرائيل لأكثر من قوم، فمرة نبوخذ نصر، ومرة سنحاريب، ومرة الروم، ومرة الفرس، حتى العرب، وهذا يغاير ما اقتضته الآيات من أن المواجهة بين طرفين يتكرران في المرتين بمعنى، إذا كان صراع المرة الأولى مع الفرس أو الروم، فصراع المرة الثانية (الأخير) أيضاً معهم.

4 ـ لم يُعد الله سبحانه لليهود الكرة لا على نبوخذ نصر ولا على سنحاريب ولا الروم ولا الفرس، ولم يجعلهم الله أكثر نفيراً من هؤلاء. (فالآيات إشارة إلى أن اليهود يصبحون أكثر نفيراً، وما كان اليهود أكثر نفيراً من الروم أو البابليين. أما الآن

فقد استطاعوا أن يستنفروا كل أمم الأرض. ولم يكن اليهود في يوم ما أكثر نفيراً وناصراً منهم اليوم، ولم يتمتع اليهود في تاريخهم بمثل ما يتمتعون به اليوم[1].

5 ـ لقد رد الله الكرة لبني إسرائيل على المسلمين (العرب) كما هو واضح منذ سقوط القدس وقيام كيانهم واستمرار علوهم وإفسادهم.

6 ـ إن ردة الكرة على الرغم من أنها تجيء بعد زمن من القضاء على الإفساد الأول كما أن (ثُمّ التي تفيد العطف مع التراخي الزمني فإن ردة الكرة لن تستمر طويلاً كما تفيد الفاء في ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ ﴾، التي تفيد الترتيب والتعقيب، أو عندما يصلون بعد ردة الكرة إلى ذروة علوهم وإفسادهم، يكون هذا نفسه إيذاناً بالقضاء على هذا العلو والإفساد ومن قبل نفس العباد ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾، وبالطريقة التي حددها القرآن الكريم إذلالهم ودخول المسجد الذي دخله هؤلاء العباد قبل ذلك في المرة الأولى، وهذا ما حدث في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهذه الطريقة في الانتصار كما حددها القرآن الكريم تختلف عن الطريقة التي تم بها الانتصار الأول وهي أن يجوس العباد ذوو البأس الشديد خلال الديار.

وهكذا فإن (ثُمّ) التي سبقت ﴿ رَدَدْنَا ﴾ والفاء التي سبقت ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ تشيران إلى الواقع الملموس، أي المسافة الزمنية بين القضاء على علوهم وإفسادهم الأول في الجزيرة العربية، وبين ظهورهم وهيمنتهم أي علوهم وإفسادهم الثاني، وكذلك إلى المسافة الزمنية القصيرة التي يستمر فيها علوهم وإفسادهم الثاني حتى يحين وعد الآخرة والقضاء على علوهم وإفسادهم.

7 ـ إن فعل الابتعاث الوارد في مطلع الآيات يحمل من المعاني والدلالات ما ينبغي الوقوف عنده، فالفعل هنا يحمل إيحاءات الرضا، والرضا لا يكون من الله على الوثنيين والمشركين، بل يكون على المؤمنين، وقد جاءت كلمة ﴿ بَعَثْنَا ﴾ في القرآن الكريم سبع مرات كان الفاعل فيها جميعاً هو الله، وكان المفعول به أي المبعوثين هم الأنبياء والمؤمنين والصالحين.

---

(1) فأمريكا القوة العظمى في العالم والغرب الصليبي جميعهم مع اليهود. وهم يمتلكون كل أسباب القوة والنفير من أسلحة دمار ومال.

فقد وردت في سورة المائدة الآية 12 ، وفي الأعراف الآية 103 ، ويونس الآية 74 ويونس 75 ، والنحل 36 ، والإسراء الآية 5 ، والفرقان الآية 51 .

ووردت كلمة ﴿ بَعَثَ ﴾ أيضاً سبع مرات في مجال الرضا والمديح في البقرة مرتين الآيتين 213 ـ 247 ، وفي آل عمران 164 ، وفي المائدة 31 ، والإسراء 94 ، والفرقان 41 ، والجمعة آية 2 .

فلا يُعقل أن ينسب كلمة﴿ بَعَثْنَا ﴾ إلى غير الموحدين لأن الوثنيين لم يُمدحوا في القرآن الكريم ، بل ذمهم الله لأنهم حلفاء الشر والشيطان ، وأعداءٌ لله وتعاليمه وأنبيائه . أما قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ فمعناه أن الله سبحانه عندما يعيد الكرة لبني إسرائيل يمدهم بأموال وبنين . وكل مراقب يرى هذا الإمداد في الأموال والبنين . والواقع أنه لولا الدعم الأمريكي الغربي المالي لبني إسرائيل لما قامت لهم قائمة ، ولولا تدفق المهاجرين وخاصة من الاتحاد السوفياتي السابق ، لما كان عدد اليهود على ما هو عليه اليوم . فالعدو الصهيوني لا يعتمد اقتصادياً على ذاته على الرغم من تقدمه العلمي النسبي ، وإنه بدون إمدادات المليارات من الدولارات كل عام لا يستطيع الصمود والوقوف على رجليه . وقد كان أساس المشروع الصهيوني في الهجرة بشتى أشكالها .

والواقع أن العدو الآن أكثر قوة من العرب جميعاً ، وأكثر نفيراً على الرغم من كثرة العرب المتفرقين ، فالعدو يستطيع أن يهدد كلَّ الأقطار العربية بما يملكه من أسلحة ، ولكن قوة العدو تأتي على حساب ضعف العرب والمسلمين .

ويلاحظ المرء أنه لأول مرة في التاريخ يبدأ تجمع اليهود من كلّ أقطار الدنيا في فلسطين ، والإحصائيات تشير إلى أن اليهود يتشكلون الآن في فلسطين من أكثر من ثمانين عرقاً ومنهم من يمتلك الأموال التي تتحكم بالعالم ، إضافة إلى أن المهاجرين الروس وغيرهم من الأوروبيين مؤهلون علمياً إلى أعلى المستويات ، ويبلغ مجموع اليهود في فلسطين الآن حوالي خمسة ملايين يهودي ، وهذا العدد من اليهود يجتمع لأول مرة في التاريخ في فلسطين .

ولا يُنسى أن اليهود خارج فلسطين يسيطرون على المال والإعلام ويتحكمون بتوجهات السياسة الخارجية لأقوى البلدان الأوروبية وأغناها. وكل ذلك خدمة للمشروع الصهيوني الذي مركزه الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ .

فإن ذلك يعني قضاء الله بانتصار المسلمين على اليهود وتدميرهم ما شيدوه، وقد أكد ذلك حديث رسول الله ﷺ حين قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)[1] وفي رواية أخرى (ستقاتلون اليهود أنتم شرقي النهر وهم غربيّه) وقيل أي نهر الأردن وقد أكد هذه الرؤية وهذا التفسير كل من المفكر الإسلامي محمد أبو القاسم حاج حمد في كتابه العالمية الثالثة. والدكتور سعيد البوطي حين علق على حادثة الإسراء في كتابه المهم فقه السيرة.

يقول الدكتور البوطي: (إن في الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات السبع، لدلالةً باهرةً على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضاً على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل به.

وفيه دلالة على مدى ما ينبغي أن يوجد لدى المسلمين في كل عصر ووقت من الحفاظ على هذه الأرض المقدسة وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين. وكأن الحكمة الإلهية تهيب بمسلمي هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة، وأن يطهروها من رجسهم ويعيدوها إلى

---

(1) صحيح البخاري ج3 كتاب الجهاد والسير.

أهلها المؤمنين[1]. وتؤكد الرؤية الإسلامية موقفها هذا من تفسير سورة الإسراء على ضوء بعض الآيات القرآنية الأخرى التي تؤكد انتصار المسلمين على اليهود.

يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ سورة الإسراء الآية 104.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف الآية 167.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الأعراف 168.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ...﴾ قال الذين يسومونهم سوء العذاب محمد وأمته إلى يوم القيامة، وفي قوله ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ قال هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس في الأرض بقعة ما إلا وفيها عصابة منهم وطائفة.

ويقول الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه (نقد التوراة: أسفار موسى الخمسة). وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الأمر - احتلال اليهود للقدس - في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ الكتاب هو التوراة والمرتان يكونان في المستقبل من بعد نزول القرآن، وبعد المرتين يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي إنه لابد من تحديد مرتين، وفي كل مرة إفساد وعلو، وإذا جاءت المرة الأولى ليفسدوا

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي. فقه السيرة ص 152 - 153.

ويعلوا يبعث الله عليهم عباداً له أولي بأس شديد لا يهزمون اليهود مرة واحدة بل بطريقة الجوس، وهو التردد، أي يطردونهم من أرض كنعان على مراحل رويداً رويداً لا مرة واحدة، حتى يتم تحرير الأرض التي أفسدوا فيها وعلوا، ثم بعد مدة من الزمان (دانيال 12 : 11 ـ 12 يأتي اليهود إلى أرض كنعان، كما أتوا في المرة الأولى ليفسدوا ويعلوا، وإذا تم لهم ذلك في المرة الثانية وأساؤوا وجوه المسلمين ودخلوا أرض المسجد الأقصى كما حدث في المرة الأولى عام 1967، سوف يهزمون إذا شاء الله، وإذا تمت هزيمة اليهود في المرة الثانية وعادوا بعدها للفساد والعلو سوف يقيض الله لهم من يهزمهم كما حدث في المرتين السابقتين.

ويتابع الدكتور السقا بقوله: هذا النص موجود في الإصحاح الثامن من سفر دانيال، هذا الإصحاح الذي لا يشك أحد في أنه بدء سفر دانيال الحقيقي، ذلك لأنه بدأه بقوله: في السنة الثالثة من ملك بيلشاصر الملك، ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء) ومن كلمات هذا النص [خرج قرن صغير وعظم جداً نحو الجنوب ونحو الشرق، وتعظم حتى إلى جند السموات، وطرح بعضاً من الجند والنجوم إلى الأرض وداسهم وحتى إلى رئيس الجند تعظم، وبه أبطلت المحرقة الدائمة وهدم مسكن مفسده، وجُعل جند على المحرقة الدائمة بالمعصية فطرح الحق على الأرض وفعل ونجح، فسمعت قدوساً واحداً يتكلم فقال قدوس واحد لفلان المتكلم إلى متى الرؤيا من جهد المحرقة الدائمة ومعصية الخراب لبذل القدس والجند مدوسين فقال لي إلى ألفين وثلاث مائة صباح ومساء، فيتبرأ القدس (دانيال 8 : 6 ـ 14). وقد بين دانيال في نفس الإصحاح أن الرؤيا لوقت المنتهى فرؤيا المساء والصباح التي قيلت هي حق. أما أنت فاكتم الرؤيا لأنها إلى أيام كثيرة، دانيال 8 : 26 وبيّن دانيال في الإصحاح الثاني عشر وهو يتحدث عن المرة الثانية أن المرتين تكونان بعد تشتت اليهود من أرض كنعان، والمعروف أن نفوذهم زال تماماً بعد استيلاء المسلمين على أرض كنعان في خلافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. يقول دانيال: (فإذا تم تفريق أيدي الشعب المقدس تتم كل هذه) دانيال 12 : 7، اذهب يا دانيال لأن الكلمات مخفية ومختومة إلى وقت النهاية، دانيال 12 ـ 9.

والإصحاح الثامن من سفر دانيال يتحدث عن ملوك اليونان وقد احتل الإسكندر بلاد الشام عام 333 ق. م، ودخل اليهود في طاعته. والنص يقول: إن المرة الأولى بعد ألفين وثلاثمائة، فيكون الحساب هكذا 2300-333=1967 بعد الميلاد[1].

ويقول محمد حسن شراب في كتابه بيت المقدس والمسجد الأقصى: إن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ليشير إلى أن اليهود الذين تسلطوا على بيت المقدس عند تعاونهم مع الفرس المجوس سوف يُجلَون عن القدس؛ لأنه مكان مقدس ينزه عن أمثالهم، لما ارتكبوا من الجرائم فيه، وأن المسجد الأقصى سوف يتولى حمايته أتباع محمد ﷺ وعلى أصحابه وسلم، ويُجمع لهم مركز الدعوة الإبراهيمية[2].

بعد عرض لبعض الآراء التي تفسر سورة الإسراء وتؤكد جميعها أن صراعاً قادماً سوف يحدث بين المسلمين واليهود، وأن المسلمين سينتصرون فيه ويحررون المسجد الأقصى مرة ثانية، لابد لنا من التوقف عند بعض الأسئلة التي تثير جدلاً حول بعض القضايا المرتبطة بهذا التفسير.

1 ـ الخطاب القرآني كان موجهاً إلى بني إسرائيل ويهود اليوم الذين يحتلون فلسطين هم خزريون أو متهوّدون من عدة أجناس، فما علاقتهم ببني إسرائيل؟ إن توجيه الحديث في القرآن الكريم كان لبني إسرائيل، وبنو إسرائيل كانوا قديماً وانقرضوا، وانقرضت معهم الأحداث، فكيف نوفق بين بشرى الله للسلمين بالنصر على بني إسرائيل واليهود اليوم ليسوا من بني إسرائيل؟

2 ـ لماذا كان يصلي رسول الله ﷺ باتجاه المسجد الأقصى ولم يصلِّ باتجاه البيت الحرام على الرغم من أن البيت الحرام أقدم من المسجد الأقصى؟ ثم لماذا بُدِّل اتجاه القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام؟.

---

(1) أحمد حجازي السقا: نقد التوراة. أسفار موسى الخمسة صفحة 164 ـ 165.

(2) بيت المقدس والمسجد الأقصى، محمد حسن شراب صفحة 71.

3 ـ لم يرد نص قطعي في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحدد الإفساد الثاني متى جرى، ولم يرد أيضاً أي نص قطعي يحدد زمن انتصار المسلمين على اليهود. فكيف نوفق بين الرؤية الإسلامية التي تفسر سورة الإسراء بهذا المنحى وبين هذه الثوابت؟.

الإشكال الأول:

من المعروف أن اسم إسرائيل أطلق على يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعنى كلمة إسرائيل عبد الله، حسب ما جاء في القواميس وحسبما تعارف عليه المفسرون المسلمون. وبنو إسرائيل أطلقت على أسباط إسرائيل الأثني عشر الذين ينتسبون إلى أولاد يعقوب الاثني عشر، ومعنى السبط القبيلة أو العائلة. وقد تعني أيضاً تحديداً أولاد يعقوب: يهودا وشمعون ورأوبين وجاد وإشير ويساكر وزبولون ونفتالي ولاوي ودان وبنيامين ويوسف، وقد ذكروا بالأسماء في التوراة ولم يذكروا بالأسماء في القرآن الكريم، بل أشار إليهم بأنهم أسباط بني إسرائيل.

وقد اعترفت التوراة بأن يعقوب عندما استدعي من قبل ابنه يوسف أيام وجوده في مصر ذهب إليه أبوه ومعه أولاده ونساء أولاده وبعض أحفاده، وقد بلغوا بضعةً وسبعين نفراً بين رجل وامرأة، وسموا بأبناء إسرائيل أي أبناء يعقوب. وحين نطالع عصر النبي موسى عليه السلام نجد الخطاب يتجه إلى بني إسرائيل. وهذا يعني أن بني إسرائيل ظلوا في مصر، وتكاثروا، وحين تعرضوا للاضطهاد أنقذهم موسى من فرعون بمعونة الله سبحانه وتعالى. وعندما دخلوا سيناء ظل الخطاب موجهاً إليهم على أنهم بنو إسرائيل.

وعلينا أن نلاحظ أن الذين خرجوا مع موسى من مصر لم يكونوا بني إسرائيل وحدهم بل كان قد آمن بموسى آخرون، منهم السحرة الذين غُلبوا وآمنوا برب موسى، وهؤلاء السحرة لم يكونوا من بني إسرائيل بل هم من بلدان متناثرة في مصر، وقد اعترفت التوراة بذلك. ولا ننسى أن السحرة كانوا كثيرين، وإذا افترضنا أنهم هربوا مع عائلاتهم فإنهم بذلك يشكلون مجموعة كبيرة هاجرت مع موسى وبني إسرائيل.

وعلى الرغم من ذلك أيضاً فقد هرب مع موسى بعض العبيد المصريين الذين آمنوا بديانة التوحيد، وعلى الرغم من هذا وذلك ظل الخطاب موجهاً إلى بني إسرائيل دون أن يوجَّه إلى غيرهم على الرغم من أن معهم الكثير ممن ليسوا من بني إسرائيل.

وبعد موت موسى ومرحلته، تأتي مرحلة داود وسليمان، وظل الخطاب موجهاً إلى بني إسرائيل، وكذلك الأمر في مرحلة السيد المسيح عليه السلام، فقد بعثه الله لبني إسرائيل بعد أن انحرفوا انحرافاً كلياً عن تعاليم التوراة، وحرفوا الحق إلى الباطل والتوحيد إلى الشرك.

وبعد هذه المراحل نرى أن الخطاب أصبح يتوجه إلى اليهود إضافة لبني إسرائيل، وهذا يعني أن اليهودية عقيدة تطورت حسب الظروف وكسب اليهود صفة ما كان عليه أجدادهم من بني إسرائيل الذين عايشوا النبي موسى وما بعده.

ولنسر مع الآيات القرآنية حسب ما وردت في المراحل التي مر بها الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل.

أ ـ الخطاب القرآني في الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ سورة آل عمران الآيات من 65 ـ 68.

وفي الخطاب القرآني أثناء الحديث عن يعقوب عليه السلام: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ سورة البقرة 133 ـ 134.

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن الأنبياء الأوائل والأسباط :

يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة آية 140 .

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن موسى عليه السلام : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ الإسراء 2 .

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن داود عليه السلام : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ المائدة 78 .

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن بني إسرائيل وداود عليه السلام :

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ البقرة 246 .

في الخطاب القرآني أثناء الحديث عن مريم وعيسى المسيح عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ آل عمران الآيات 45 ـ 49 .

إن الآيات القرآنية كثيرة في هذا السياق ، ولكن اكتفينا بهذه الآيات لتكون دليلاً على ما قلناه من أن الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل بدأ بشكل واضح منذ النبي موسى عليه السلام وانتهاء عند النبي عيسى عليه السلام .

أما خطاب القرآن لليهود فقد جاء في سياق الصراع بين النبي محمد ﷺ واليهود في المدينة.

وقد جاء خطاب أهل الكتاب ليشمل اليهود والنصارى بعد أن نزلت التوراة وبعد أن نزل الإنجيل، وأصبحوا متميزين عن غيرهم من باقي البشر.

فعلى سبيل المثال يقول تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ آل عمران 69 وواضح أن الخطاب موجه إلى أمة الإيمان أمة محمد ﷺ.

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ آل عمران 98.

ويقول تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المائدة 18.

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة 51.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ المائدة 64.

لقد وردت كلمة بني إسرائيل حوالي إحدى وثلاثين مرة موزعة على القرآن كله.

ووردت كلمة أهل الكتاب أكثر من سبعين مرة مشتملة على اليهود والنصارى.

ووردت كلمة هود ثلاث عشرة مرة مشتملة كلمة (هادوا).

ووردت كلمة يهود تسع مرات فقط، معرفة ونكرة.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ البقرة 113.

نعود إلى المسألة الخاصة بهذا الخطاب، فالواضح أن بني إسرائيل أطلقت على من اتبع إسرائيل وأبناءه حتى موسى عليه السلام، لأن نزول التوراة عليه حدد العقيدة اليهودية التوراتية فأصبح الخطاب مزدوجاً، إذ إن الحديث عن بني إسرائيل صار يتضمن الحديث عن يهود أي عن أتباع العقيدة التوراتية.

وخلال الصراع بين النبي محمد ﷺ واليهود في المدينة أصبح الحديث موجهاً إلى أهل الكتاب؛ أي الذين نزل على نبيهم كتاب، ويشمل ذلك أتباع موسى عليه السلام وأتباع عيسى عليه السلام. والخطاب بأهل الكتاب في هذا السياق لم يأت عبثاً بل كان مقصوداً ليذكّرهم بأنهم أصحاب كتاب منزل من السماء ويدعو إلى التوحيد، فلمَ لا يقرون بهذا الكتاب ـ القرآن ـ الذي بيّن تعاليم التوراة والإنجيل وأنبأ بها رسول الله عليه الصلاة والسلام وهي من أنباء الغيب؟ وما كان رسول الله ﷺ ليعلمها لولا القرآن العظيم.

ومع ذلك كله فقد أشار القرآن الكريم إلى تشتت بني إسرائيل ونهاياتهم الأولى.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الأعراف 167 ـ 168 فهذه إشارة واضحة إلى تشتيتهم فرقاً بل أمماً ينتشرون في الأرض.

بنو إسرائيل انتشروا في الأرض، ولكن هل بقي هؤلاء على نقاء عنصرهم إذا كانوا يدّعون أنهم من عنصر واحد؟

الواقع أن بني إسرائيل الذين أصبحوا يهوداً وأهلَ كتاب بعد نزول التوراة نشروا عقيدة اليهودية في أوساط عالمية كثيرة. نشروا اليهودية في أوساط الحكام العرب في اليمن زمن ذي نواس الذي اعتنق اليهودية نكاية بالمسيحيين الأحباش،

وأجرى مجزرة بالمسيحيين العرب من أصحاب الأخدود الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم. ومن اليمن تسربت اليهودية إلى الحبشة سراً، وتبعها بضعة آلاف من زنوج الحبشة حتى أصبحوا فيما بعد يهود الفلاشا. وفي الغرب تبنت مملكة الخزر العقيدة اليهودية وعلى رأسها ملكها، وفرض هذا الملك اليهودية على شعبه وانتشرت بشكل أوسع حتى قضي على هذه المملكة، فهاجر يهود الخزر إلى أوروبا الشرقية وأنشؤوا ما يسمى الغيتوات أي الحارات اليهودية المغلقة.

فإذا عدنا إلى سورة الإسراء والحديث عن قضاء الله لبني إسرائيل فإنه يعني كل من تبنّى التوراة كتاباً وتبنى اليهودية عقيدة. ولم يعد مصطلح بني إسرائيل ينحصر في أبناء معينين بل هو يطلق على أصحاب عقيدة أساسها بنو إسرائيل. أساسها هم في الانتشار وقصص التاريخ وما إلى ذلك.

وهذا يقاس أيضاً على خطاب الله سبحانه لمن تبع محمد ﷺ. فهم الذين آمنوا وظل يطلق عليهم اسم الذين آمنوا على الرغم من أنهم في غالبيتهم من العرب القرشيين ومن العرب الأنصار من الأوس والخزرج. وليس هذا معناه أن كل من آمن بالإسلام ديناً لم يكن عربياً لا ينطبق عليه هذا الاسم. فأمة الإيمان هي الأمة التي آمنت بالله واحداً وبالرسول محمد نبياً، وتشمل هذه الأمة كل العروق والأجناس والشعوب المنتشرة في كل الأرض وما ينطبق على هذا ينطبق على ذاك.

2 ـ الإشكال الثاني في توجُّه رسول الله ﷺ نحو القدس في صلاته مدة ستة عشر شهراً على أكثر الأقوال، ثم تحوله بالصلاة نحو المسجد الحرام.

فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو أخواله من الأنصار، وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت الحرام، وأنه ﷺ صلى أول صلاة العصر وصلى معه قوم. فخرج قوم ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة فداروا كما هم قِبَل

البيت، وكان اليهود قد أعجبهم، إذ كان يصلي قِبَل بيت المقدس. فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك)[1].

ومن طريق أخرى عن البراء بن عازب «كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فتوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من اليهود: «ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

فصلى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر يصلون نحو بيت المقدس، فقال: من يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة[2].

وقد أورد ابن عباس أن الرسول ﷺ كان يصلي باتجاه بيت المقدس وهو في مكة قبل الهجرة، لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فقد أخرج الطبري وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة واليهود يستقبلون بيت المقدس أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يستقبل بيت إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت. ومن طريق مجاهد قال إنما كان يحب أن يتحول إلى الكعبة لأن اليهود قالوا: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا فنزلت.

وإذا عدنا إلى آيات القرآن الكريم رأيناها تتحدث عن المسألة بشكل مفصل ومهم.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ

(1) صحيح البخاري. كتاب الإيمان باب الصلاة من الإيمان.

(2) كتاب الصلاة. المصدر السابق.

ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة 143 ـ 146.

وقد سبق هذه الآيات الآية 142 التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

بداية الآيات هذه الآية وهي من أخبار الغيب، والحكمة من الإخبار بما يقوله المجرمون قبل وقوعه توطين نفوس المؤمنين على الصبر إذ المفاجأة بالمكروه أشد، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم.

ومعنى الآية أن السفهاء من الناس سيتساءلون لماذا صُرف المسلمون عن الصلاة والتوجه نحو القدس.

يأتي سياق الآية الأخرى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فاختيار الله سبحانه الكعبة مكانا للتوجه هو بمنزلة الاختيار الوسط لأمة الإيمان. فاليهود يتوجهون في صلاتهم نحو المسجد الأقصى، والنصارى يستقبلون مطلع الشمس، والمسلمون يستقبلون الكعبة، وسياق الآية يدل على حكمة إلهية المراد من تحويل القبلة فيها هو الامتحان للمؤمنين، ولتأليف قلوب اليهود. وقد توجه الرسول في استقبال الأقصى بأمر من الله ليمتحن الله به الناس ويميز من يتبع الرسول في التوجه إليها ممن يرتد عن دينه شكاً وتحيراً. وتقول الأخبار إن بعضهم

قد ارتد، لقد كان التوجه إلى الكعبة امتحاناً كبيراً وشاقاً على ضعفاء الإيمان، لكن الذين كتب الله لهم السعادة ثبتهم على الإيمان واتباع الرسول ﷺ، فلم يرتابوا. وقد ذكرت كتب السيرة أن النبي ﷺ كان يحب بطبعه أن يستقبل الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأقدم القبلتين وأدعى للعرب للإيمان، ومخالفة اليهود الذين ناصبوه العداء، وقال لجبريل: وددت لو حوّلني الله إلى الكعبة فقال جبريل إنما أنا عبد مثلك وجعل عليه الصلاة والسلام يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل عليه السلام بما يحب من أمر القبلة، فأنزل الله الآية القائلة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ . . .﴾ واليهود كما قالت الآية الكريمة يعرفون أن ما قام به الرسول من تحويل القبلة هو بأمر رباني هو الحق من ربهم، ويعرفون أن من صفات النبي أن يتوجه نحو قبلتين الكعبة وبيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ تعني أن صفة النبي يعرفونها كما وردت في توراتهم مثل معرفتهم أبناءهم، وقد قال عبد الله بن سلام وهو من اليهود الذين أسلموا وحسن إسلامهم: لقد عرفته كما أعرف ابني ومعرفتي محمداً أشد فقال له عمر رضي الله عنه ولمَ؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت. . فقبّل رأسه.

وإن فريقاً من أهل الكتاب ليكتمون الحق وينكرون صفات النبي الموجودة في كتبهم أما قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾. فهي توضح أن اليهود لن يؤمنوا ولو أتى النبي ﷺ بكل الآيات البينات على نبوته. ولن يتبعوا قبلة الرسول. ولذلك لن يتبع الرسول قبلتهم نكاية بهم. وهم بطبيعتهم لن يتبعوا قبلة بعضهم وهذا يعني أنهم يتوجهون نحو عدة أمكنة وليس إلى مكان واحد. وقد ذكرنا سابقاً أن اليهود انقسموا في التوجه إلى المعبد المركزي حين أقام آخاب بن عمري الملك اليهودي معبد زربابل في دويلة يهودا، وظل بعض بني إسرائيل يتعبدون في ما يسمى الهيكل حسب ما أوردته التوراة.

وإن معبد زربابل صار مهوى اليهود في غالبيتهم. إضافة لذلك فالآية تشير إلى أن اليهود لن يتبعوا قبلة النصارى ولا النصارى سيتبعون قبلة اليهود وهم جميعاً أهل كتاب.

وفي هذا السياق يرد سؤال: كيف يتوجه الرسول ﷺ نحو الكعبة آنذاك وهي مليئة بالأصنام؟.

الواقع أن توجه المسلمين نحو الكعبة هو توجه نحو رمز التوحيد الذي بناه إبراهيم، والأصنام طارئة عليه بعد إبراهيم، وأن الرسول ﷺ عندما فتح مكة حطم جميع الأصنام الموجودة في مكة وداخل الكعبة. وعندما أشار القرآن الكريم إلى الكعبة بلفظ المسجد الحرام كان يعني تماماً إرجاع هذا البيت إلى ما كان عليه قبل دخول الوثنية فيه. ووجود الأصنام الطارئ لن يغير من حقيقة هذا البيت وعلاقته بالتوحيد؛ فهو أقدم من الصنمية وأثبت. وهذا بالفعل ما جرت به الأمور منذ فتح مكة وإلى هذا العهد.

وقد يرد سؤال آخر يقول: كيف توجه رسول الله ﷺ نحو المسجد الأقصى وقد كان بأيدي الرومان آنذاك أو كان أثراً بعد عين لا يُعْرَف مكانُه بعد أن حوله الرومان إلى أرض خراب؟

وحقيقة الأمر أن رسول الله ﷺ توجه نحو بيت المقدس باعتباره ذا علاقة محددة بالأنبياء الذين سبقوه كداود وسليمان وعيسى عليهم السلام، وهو معروف آنذاك من قبل مجموع الشعوب المحيطة به. فتحويله أو حرث أرضه لا يلغي وجوده السابق في هذه المنطقة. ثم إن الإسراء برسول الله ﷺ ترك أثراً مادياً وهو حائط البراق والصخرة المشرفة. وما إن حرر المسلمون بيت المقدس حتى شرعوا يقيمون المسجد فوق الصخرة المشرفة، وأعادوا الاعتبار للقدس من خلال إعادة المعبد الخاص بالأنبياء، الذين دأبوا على التعبد لله فيه، وقد سبق القول عن ذلك أثناء الحديث عن ورود كلمة محراب في أربع آيات خاصة بداود ومريم وزكريا عليهم السلام.

ملاحظة:

إن صلاة الرسول ﷺ وتوجهه فيها نحو بيت المقدس ونحو الكعبة، واعتراف اليهود أنفسهم بأن هذا النبي سيصلي باتجاه قبلتين لهو دليل مهم على استكمال دائرة التوحيد التي أتمها الرسول محمد ﷺ. فهو جمع بين قبلتين، الكعبة وبيت المقدس ليؤكد أنه أولى الناس باستكمال ما جاء به الأنبياء جميعاً من عقيدة التوحيد، وأن المسلمين أحق الناس بحماية الكعبة وبيت المقدس والإشراف عليهما؛ لأنهم حملة رسالة التوحيد كما جاءت، كاملة مكملة لما سبق. والآية الكريمة التي جمعت بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى تأكيدٌ لذلك واستشراف رباني للمستقبل بأن هذين المكانين سيكونان مسجدين مقدسين لأمة الإسلام.

الإشكال الثالث: طرحنا سؤال الإشكال الثالث الذي يقول: إنه لم يرد نص قطعي في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحدد زمن الإفساد الثاني، ولم يرد أي نص قطعي يحدد زمن انتصار المسلمين على اليهود، فكيف نوفق بين الرؤية الإسلامية التي تفسر سورة الإسراء بهذا المنحى، وبين هذه الثوابت؟.

نقول: إن القرآن الكريم نزل على محمد ﷺ بعد المسيحية بـ حوالي 570 عاماً، وإن الحديث عن إفساد بني إسرائيل يعني أمة الإسلام بحاضرها، أي منذ بدء الدعوة واستمراراً للزمن الآتي بعد محمد ﷺ.

ويفسر معنى الإفساد الأول، سورة الحشر إذ يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الحشر الآية 2ـ4.

فأهل الكتاب هم اليهود الذين كانوا يساكنون الأوس والخزرج في المدينة وما حولها، ومعروف أن اليهود كانوا من عدة قبائل، كبني عوف، وبني النضير، وبني قريظة، وبني قينقاع وغيرهم.

وقد بلغ اليهود ما بلغوه من الإفساد والعلو. وتذكر وقائع التاريخ كيف كانوا يسخرون من الأوس والخزرج وبأيديهم الأموال التي يرابون بها. وكانت لهم حصونهم القوية. فعندما نقضوا العهود مع رسول الله ﷺ وحاولوا قتله والغدر به أكثر من مرة حاصرهم الرسول ﷺ بضعة وعشرين يوماً حتى أجلوا من المدينة.

وقوله تعالى: ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ أي إن الرسول عليه الصلاة والسلام حاصرهم وحشرهم حتى استسلموا ورُحّلوا من المدينة. وأول الحشر تعني أن هناك حشراً آخر. وقد أجمع بعض علماء التفسير المعاصرين ومنهم المفكر الإسلامي العربي السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد، على أن الحشر الثاني يفسره قول الله تعالى في سورة الإسراء ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾.

ولشدة قوتهم ظن المسلمون أنهم لن يستطيعوا عليهم لكثرة عددهم ووفرة عدتهم ومَنَعة حصونهم. وقد ظن اليهود أيضاً أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وقوة جنوده. وحصونهم كما ذكرت في كتب التاريخ والسيرة هي: الوطيح والنطاة والسلالم والكتيبة. فعلى الرغم من ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب وأُخرجوا من المدينة وقد أخذوا يقتلعون أبواب بيوتهم وما حُسن من الأعمدة الخشبية، وفي كلمة جلاء في الآية عبرة. حيث لا يُجلى الناس إلا لأنهم غرباء في الأصل، ونقول جلى المستعمر أي خرج ولم يعد له أثر. وهكذا فقد قضى الله عليهم بالجلاء وليس بالخروج. وقد دخل المسلمون مدن اليهود وقلاعهم فجاسوا خلال الديار كما جاء في سورة الإسراء.

ويرى بعضهم أن جوس الديار أيضاً حدث في بيت المقدس حيث دخل عمر رضي الله عنه القدس صلحاً، ودخل المسلمون معه. وهذا أيضاً هو جوس الديار المعنية بالقدس والله أعلم.

وعلى هذا يكون الإفساد الأول هو الإفساد الذي حدث في المدينة المنورة زمن الأوس والخزرج ثم ما تبع ذلك من انتصار المسلمين عليهم.

ومنذ ذلك الوقت لم يتجمع اليهود في أي مكان من الأرض العربية، فقد امتدت الفتوحات الإسلامية، وحرر الأقصى، وظل محرراً حتى العصر الحالي، أي إلى عام 1948 حين احتل الصهاينة فلسطين وأقاموا على أرضها كيانهم الغاصب.

والواقع أن اليهود الآن يشكلون قوة هائلة في المنطقة، وبسبب ضعف المسلمين وابتعادهم عن روح القتال والجهاد، استطاع الصهاينة أن يهددوا الأمة بأسرها، ويستجلبوا البنين من يهود العالم، ويجمعوا الأموال اللازمة لصناعة السلاح وتطوير أرقى أشكال التكنولوجيا.

وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ الإسراء 6.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ الإسراء 7.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ سورة الإسراء الآية 104.

والمعروف أن أول دخولٍ للمسلمين إلى المسجد الأقصى حدث في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد تحرير القدس وأراضي فلسطين والشام. ولم يُجمَّع اليهود مرة أخرى بعد تجمعهم الأول الذي كان في المدينة إلا في الوقت الحاضر. وعلى ذلك فإن الحشر الثاني أو كما ورد في سورة الإسراء ﴿ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ سيكون حتماً في فلسطين والقدس؛ وإن انتصار المسلمين على اليهود ودخول جيوشهم الموحدة القدس مرة أخرى مرهون بعودة حقيقية لجوهر العقيدة الإسلامية ولمنهج الجهاد القرآني، وهذه أصبحت حقيقة مجربة على مدار التاريخ الإسلامي.

فلن يتم النصر ودخول الأقصى إلا بعودة الأمة إلى جوهر عقيدتها ووحدتها وتضامنها في درب الجهاد.

وفي أحاديث رسول الله ﷺ إشارات لما سيؤول إليه الأمر من صراع المسلمين مع اليهود.

فقال أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن طلحة، عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «منزل الدجال في هذه السبخة، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى زوجته وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه، فيسلط الله المسلمين عليه فيقتلونه ويقتلون شيعته، حتى إن اليهودي ليختبئ تحت الشجرة والحجر فيقول الحجر والشجر للمسلمين هذا يهودي تحتي فاقتله».

وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله».

أما المسجد الأقصى في السنة النبوية الشريفة فقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك. وجميعها يوضح فضل هذا المسجد ومكانته عند المسلمين وصلته بعقيدة التوحيد.

- روى الإمام أحمد عن ذي الأصابع قال: (قلت يا رسول الله إن ابتُلينا بعدك بالبقاء أين تأمرنا قال: عليك ببيت المقدس، فلعله أن ينشا لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون) (4/ 67).

- وعن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: (يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال: أرض المنشر والمحشر ائتوه فصلوا فيه فإنّ صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه قالت: أرأيت من لم يُطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: فليهد إليه زيتاً يسرج فيه فإن من أهدى له كان كمن صلى فيه) رواه أحمد 6/ 463، وابن ماجة 1/ 429.

ـ وقال ﷺ: «من أهَلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله ما تقدم من ذنبه، أو وجبت له الجنة». رواه أبو داود في سننه.

وفي سنن ابن ماجه «مَنْ أهَلّ بعمرة من بيت المقدس كانت كفارة لما قبلها من ذنوب».

«ـ وعن جابر أن رجلاً قال يا رسول الله، أي الخلق أول دخولاً إلى الجنة قال: الأنبياء قال ثم من قال: الشهداء، قال: ثم من، قال: مؤذنو المسجد الحرام، قال: ثم من، قال: مؤذنو بيت المقدس، قال: ثم من، قال: مؤذنو مسجدي هذا، قال: ثم من، قال سائر المؤذنين على قدر أعمالهم».

ـ وروى البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء رفعه (الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة) قال البزار، إسناده حسن.

«ـ قال ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى».

وفي رواية أخرى: «المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي». وقد رُوي الحديث عن ست عشرة طريقة. ورواه ستة من أصحاب رسول الله ﷺ.

ـ وقد صح الحديث النبوي أن النبي ﷺ عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى صلى بالأنبياء جميعاً.

وأشهر ما قيل في ذلك ما نقله السيوطي في الآية الكبرى. وقال ابن أبي حاتم في تفسيره وهو حديث طويل اقتطف منه ما فيه زيادة عن غيره (عن أنس بن مالك قال: ولما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل حمله جبريل عليها.. فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يُقال له باب محمد (في حائط البراق) أتى إلى الحجر الذي ثّمة فغمزه جبريل بإصبعه فنقبه ثم ربطها ثم صعد فلما استويا في صرحة المسجد.. ثم

انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير. ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة قال فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم فلما انصرفت قال جبريل يا محمد أتدري من صلى خلفك قال: لا. قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله).

وروى البيهقي في دلائل النبوة 2/ 143 ـ 149 والطبري في تفسيره حديثاً طويلاً وجاء فيه: «أتى بيت المقدس فربط فرسه إلى صخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قُضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك. ؟ قال هذا محمد رسول الله خاتم النبيين قالوا: وقد أرسل إليه، قال نعم قالوا حيّاه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء».

وقد علق المفسرون والعلماء على الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس، فقال السيوطي: في الآية الكبرى ص 115 تكلم الناس في الحكمة من الإسراء بالنبي إلى بيت المقدس قبل المعراج، فقيل ليجمع تلك الليلة بين القبلتين.

وقيل لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله فحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أشتات الفضائل.

وقال سيد قطب في ظلال القرآن 15/ 12 (والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعاً).

ما العلاقة بين النبي داود عليه السلام وبني إسرائيل والقدس؟

لعل شخصية النبي داود عليه السلام، من أكثر الشخصيات النبوية بروزاً في الإرث اليهودي والمسيحي والإسلامي، وقد أثيرت حول هذه الشخصية تساؤلات

عديدة وإشكالات وقف الدارسون دونها مواقف متباينة متناقضة، قد تصل أحياناً إلى حد وجود شخصيتين لا تتفق الواحدة منهما مع الأخرى. ففي التوراة المدوّنة يجري الحديث عن النبي داود في أكثر من سفر وتنسب له عشرات المزامير.

وهو في التراث اليهودي الملك الذي وحد بين قبائل بني إسرائيل وأسس مملكة دامت حوالي أربعين سنة، حسب ما نصت عليه التوراة المدونة أيام السبي البابلي، وقد أتى القرآن الكريم على ذكر النبي داود في ستة عشر موضعاً، يستطيع الدارس فيها معرفة أبعاد شخصيته الحقيقية في إطار من عقيدة التوحيد والنبوة عبر الزمان المفتوح والأبعاد العقيدية الواسعة.

وحين ندرس النصوص التوراتية والمزامير التي نسبت إلى داود نرى أن هذه الشخصية أحيطت بعالم غريب متناقض. وعلى الرغم من كل التناقضات التوراتية يتناول اليهود شخصية داود عليه السلام على أنه رمز أساسي من رموز الملكية والدولة التي عاصمتها القدس. على ذلك أيضاً يرون فيه رمزاً لرأس التجمع اليهودي قديماً، وعلى خطاه فإن دولة الكيان الصهيوني تربط قيامها بالتراث الداودي الذي يعيد حسب رؤيتهم صياغة قيام هذا الكيان وجعل القدس عاصمة أبدية له.

ومن ناحية أخرى فإن الهدف السياسي يختلط بالهدف الديني، فيصبح داود رأس الهرم اليهودي باعتباره حقق لبني إسرائيل كياناً سياسياً دينياً لم يألفوه من قبل، لا في زمن موسى عليه السلام، ولا غيره من القضاة وأشباه الملوك من بني إسرائيل. وإذا نظرنا اليوم إلى الدراسات التي تناولت التراث اليهودي وجدنا أنها تتناول شخصية النبي داود لتصل بالنتيجة إلى استنتاجات مختلفة.

فالمستشرقون المنحازون لليهود، وكذلك دارسو ما يسمى العهد القديم، يرون في داود ملكاً مهماً لليهود تمتع بالحكمة والملك، وبنى دولة لأول مرة في تاريخ بني إسرائيل بينما يرى بعض الدارسين أن داود ما هو إلا مرتزق استطاع من خلال أسلوب

الاغتيالات والخداع أن يصل إلى ما يسمى بناء دولة يهودية. ويستندون على بعض ما أوردته التوراة، فيصفونه بأوصاف سيئة، ويتهمونه بأعمال منافية لكل الأخلاق والتعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام. على أية حال فإن اليهود اليوم على شتى انتماءاتهم الدينية والعلمانية يرون في داود اليهودي الأول والملك المعظم الذي غير مجرى تاريخ قبائل بني إسرائيل السياسي والديني. ولذلك فهم يتخذون من النجمة السداسية شعاراً لهم على اعتبار أنها نجمة داود، ويسمون كثيراً من مؤسساتهم وأماكنهم باسم داود ومملكة داود، كالفنادق وبعض المؤسسات الطبية وكذلك الشوارع والساحات العامة وما إلى ذلك.

وحتى تظهر الحقيقة ويصفّى النقاء من الغش كان لابد لنا من تسليط الضوء على شخصية النبي داود عليه السلام؛ لنعرف من هو ومدى علاقته باليهودية.

فهل حقاً ينتسب داود إلى اليهودية؟

هل هو ملك فحسب أم هو نبي موحد قبل أي اعتبار آخر؟

من أحق بداود، المسلمون الموحدون أم اليهود؟

ما هو ملك داود وأين مملكته وما معنى الملك والحكمة.

هذه الأسئلة نطرحها ليجيب عنها ما يسمى العهد القديم، ويجيب عنها القرآن الكريم.

1 ـ نسب داود، ماذا يعني حسب النص التوراتي، وماذا يعني حسب النص القرآني؟

تورد التوراة سفراً يسمى راعوث وهو السفر الثامن حسب ترتيب هذا الكتاب. وفي هذا السفر قصة عن راعوث المرأة المؤابية التي تزوجت من بوعز، وهو جد النبي داود، وأنجب منها بوعز عوبيد، وعوبيد ولد يسَّى، ويسّى ولد داود. وعلى هذا الأساس فإن نسب داود من حيث جدته ليس من بني إسرائيل بل من بني مؤاب. وهناك قانون يقول إن نسب اليهودي يتم عندما تكون أمه يهودية، وليس شرطاً أن يكون أبوه يهودياً. وعلى هذا الأساس فإن داود لا ينتسب هو وجده وأبوه إلى اليهود، لأن القانون اليهودي

لا يجيز يهودية أحد إذا كان أصل أمه غير يهودي، ويبقى كذلك حتى الجيل العاشر.
وهذا يعني أيضاً أن سليمان عليه السلام لا ينتسب إلى اليهودية مطلقاً. أما نسب داود حسب القرآن الكريم فإنه نسب نبوة لا نسب أم أو أب. فهو حسب النص القرآني من آل إبراهيم أي من بيت النبوة الذي اصطفاه الله ليكون منه الأنبياء والملوك.

يقول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الأنعام 84 - 85. فالآية توضح سلسلة النبوة التي بدأها إبراهيم عليه السلام ولا يعنينا في هذا المقياس سلسلة النسب الأبوي أو الأمومي. فقد لا يكون والد داود أو إلياس أو أيوب نبياً لكن الله سبحانه جعل سلسلة النسب مترابطة بحيث يخرج منها الأنبياء كما خرج داود وسليمان عليهما السلام.

2 - عقيدة داود ونبوته: تركز نصوص التوراة على أن داود ملك وليس نبياً، وقد ورد في التوراة أن أنبياء وجدوا في زمن داود، بل عايشوه، وكانت له بهم علاقات، وكان أكثرهم التصاقاً بداود النبي المدعو ناثان.

وبما أنه ملك فقد نسبوا إليه كثيراً من الأعمال المشينة، ولو كان داود نبياً في عرفهم لحاولوا أن يمنحوه صفات أخرى.

ففي التوراة أن داود غدر بالمدعو أوريا الحثي وهو جندي من جنوده حينما بعثه إلى حرب مع بني عمون ليقتله ويستولي على امرأته التي رآها داود تستحم عارية على سطح بيتها. ويُقْتل أوريا ويتزوج داود من (بتشبع) امرأته. فما تذكره التوراة هنا ليس من صفات الأنبياء.

ويأتي في التوراة أيضاً أن داود حاصر إحدى مدن بني عمون ثم أخرج شعبها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد فأمرّهم في أتون آجر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون. فأخلاق النبوة تردع النبي داود من أن يجمع شعب قرية ويقطع رؤوسهم ثم يضعهم في أفران ويحرقهم.

أما نبوة داود في القرآن الكريم فلها صفات مختلفة تماماً. فالقرآن الكريم يشير إلى نبوة داود قبل الملك، وهذا منطقي إذ إن النبوة أسبق على الملك ما دامت أن غاية الله سبحانه في بعث أنبيائه هداية البشر أولاً ثم الحكم لهم ثانياً.

فداود موحى إليه مثل بقية الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وقد ورد ذلك في سورة النساء الآية 165 يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾.

وعلامات نبوة داود عليه السلام، لم تذكرها التوراة، بل ذكرها القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ سبأ 10 ـ 11.

ويقول تعالى: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾ سورة ص 17 ـ 20.

فعندما يخاطب الله سبحانه رسوله محمداً ﷺ يقول له: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ فقد ضرب الله للنبي مثلاً داود عليه السلام لأنه تعرض أيضاً للكثير من الأذى القولي والفعلي على أيدي بني إسرائيل. لكن الله أيده ونصره عليهم وسخر له الجبال والطير وشدد ملكه وآتاه الحكمة وفصاحة اللسان.

ومن صفاته النبوية أيضاً استغفاره الله والخضوع له: يقول الله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ۝٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ ص 24 ـ 25، ولو كان داود ملكاً فحسب لما سخّر له هذه الأمور، فالنبوّة إلى جانب الملك هي ما أهّلت داود كي يكون كذلك، لقد اقتضت حكمة الله أن يكون داود نبياً وملكاً وقاضياً وحكيماً وفصيح اللسان. فالنبي له صفات وكذلك الملك، والملك يحتاج إلى القوة والمنعة، فلذلك سخّر له الحديد، ليصنع منه الدروع والسلاح، وشدد

ملكه بمؤهلات مادية واضحة، حسبما جاء في القرآن الكريم، والنبوّة - كما قلنا - تحتاج إلى مؤهلات أيضاً فلذلك سخر له الجبال يسبحن معه رب العالمين، وكذلك الطير. والقضاء يحتاج إلى حكمة وتمييز فلذلك منحه الله سبحانه حكماً وعلماً.

يقول تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ الأنبياء 78.

وهنا لابد أن نتوقف ملياً حتى ندرك الأسباب التي من أجلها منح الله داود هذه الصفات مجتمعة. يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ المائدة 44.

فهذا البيان الإلهي يحدد لنا أن الأنبياء الذين بعثهم الله ليطبقوا ما جاء في التوراة الحقيقية هم مسلمون أسلموا لله قلوبهم وعقولهم. وواضح أنهم كانوا يحكمون بالتوراة على من هادوا، أي الذين هم من اليهود أو من الذين ارتجعوا عن كفرهم وهداهم الله إلى الدين الحق. وداود الذي حكم بالتوراة كما نزلت على موسى بعث إلى بني إسرائيل ليحكم لهم من خلالها. لكن حكم بني إسرائيل لا يأتي بالسهل الهين. فهم الذين آذوا موسى عليه السلام، وقتلوا الأنبياء وأفسدوا في الأرض. ونوعية كهذه من البشر لا تُحْكَم بالنبوة فحسب بل بالنبوة والقوة. فلذلك منح الله سبحانه داود النبوة والحكمة والفصاحة والقضاء حتى يستطيع أن يحكم بني إسرائيل. ولولا تأييد الله له بكل تلك المؤهلات لما استطاع أن يحكمهم، لأن طبعهم جُبِل على الكفر والقتل والفساد، ولذلك نستخلص أن داود بنبوته رسول مسلم بعثه الله ليحكم قوماً من أشد الأقوام قسوة وغلظة وعناداً وكفراً، ولذلك احتاجت نبوته إلى ملك وقوة مادية. وعلى الرغم من كل ذلك فإن داود عليه السلام لاقى منهم الكثير الذي يعجز عنه الوصف، فلعن الذين كفروا منهم لأنهم لا يتناهون عن منكر

وقتل وفساد. يقول تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ المائدة 78.

إذاً لماذا لعن داود الذين كفروا من بني إسرائيل؟ لأنهم عصوه وعصوا حكم الله الذي أنزله في توراة موسى عليه السلام.

وقد اتسعت دائرة دعوة داود عليه السلام ومنحه الله أن يكون قاضياً بالعدل بين الناس جميعاً وأن يجعله الله خليفة يحكم بين الناس بالحق وليس بالهوى يقول تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ ص 26.

فنبوته كانت في بني إسرائيل، وخلافته كانت في الأرض، وقضاؤه كان بين الناس جميعاً. لقد خاطب الله سبحانه ملائكته قائلاً: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. وكان المقصود بذلك آدم عليه السلام ونسله. والخلافة لا تُمْنح جزافاً، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، يرتبط بعمل هذه الخلافة، وهذا العمل هو الحكم بين الناس جميعاً بالحق. فداود عليه السلام مكلف من الله سبحانه بالخلافة والحكم بين الناس بالعدل، وهذا ما لا يروق لبني إسرائيل، لأنهم يريدون كما وصفهم القرآن الكريم، أن يكونوا متميزين عن الناس وأن يكون الحق لهم ومعهم دائماً.

وقد وصفهم الله سبحانه بذلك فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ آل عمران 75. وحين نعود إلى ما ذكرته التوراة عن صفات داود نرى أنها ركزت على حروب داود الكثيرة واتساع ملكه حتى وصل خليج العقبة، ودانت له البلاد التي حولها، فافتتح بلاد الفلسطينيين على قول التوراة، وأخذ دمشق عاصمة الآراميين بعد حرب شديدة، وحارب الأقوام التي على الفرات وانتصر عليهم. لكن التوراة نفسها تذكر أموراً تتناقض كلياً مع طبيعة النبوة التي كان عليها داود. فقد ذكرت كما قلنا سابقاً، أن داود رأى امرأة تستحم على سطح بيتها فجلبها وزنى وأنجب ولد حرام، وبعث بزوجها المدعو أوريا الحثي ليُقْتَل في الحرب. وقتل

الرجل فجلبها داود إلى مجموع نسائه ثم ضاجعها فولدت له سليمان بعد أن مات الطفل الأول.

فهذا المنطق التوراتي لا يتوافق مطلقاً مع النبوة. والأنبياء معصومون والعصمة إلهية فكيف بداود يرتكب فاحشتين كبيرتين هما الزنا والقتل بغير حق؟ إن هذا الخبر لم يرد في القرآن الكريم، لأنه تلفيق من خيال من كتبوا التوراة بعد داود بمئات السنين، وحسب التوراة فإن داود استخدم أخس الأساليب ليقتل أوريا الحثي. تورد التوراة أن نبياً يدعى (ناثان) جاء وقَرَّع داود بفعله فكيف يصح أن يقرِّع ناثانُ داودَ وكيف يمكن أن يكون ناثان نبياً أرفع شأناً من داود والتوراة نفسها لا تعطي أي وزن لناثان إلا في هذه الحادثة؟

وتخفي التوراة دور الملائكة الذين جاؤوا إلى داود ليحكّموه في أمر النعاج، وقد أورد القرآن الكريم القصة بوضوح. فليس هناك وجود لنبي اسمه ناثان بل هناك وجود ملكين على ما صح من أحاديث رسول الله ﷺ. والملكان دخلا على داود بهيئة رجلين وقد فزع داود منهما وكان يتعبد في محرابه. وقد أجمع المفسرون وكذلك الدارسون لمنطق الحدث، أن فزع داود جاء بسبب أن المحراب مسور، فكيف جاء الرجلان ودخلا فجأة واجتازا الحراس والأبواب على اعتبار أن داود ملك؟

ويعلق البيضاوي على ذلك بقوله: وأقصى ما في هذه القصة الإشعار بأن داود عليه السلام ود أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله، فنبهه الله سبحانه بهذه القصة، فاستغفر وأناب، وما روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان، وما قيل إنه أرسل أوريا الحثي مراراً إلى الحرب وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء، ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين. مئة حد القذف وستون زيادة لأن المقذوف نبي. وبعيد من الحكمة أن يكون الحكيم فاسقاً قاتلاً من

غير حق ولا برهان، وداود نبيٌّ معصوم لا يمكن أن يقع بمثل هذه المغريات وقد شهدت له التوراة نفسها بصدقه وخوفه من الله وطهارته.

وعلى ذلك فأين داود من بني إسرائيل وأين نبوته الكريمة مما قاله اليهود فيه؟ إن داود النبي المعصوم المسلم لا يصح أن يكون على دين هؤلاء الملفقين القاذفين من اليهود.

أما إذا عدنا إلى الحديث عن ملك داود، فإننا لا نرى في القرآن الكريم سوى أن الله سبحانه آتاه الملك دون أن نعرف أين ملكه، وفي أي أرض كان. وقد من الله عليه بالحكمة والقضاء وتسبيح الجبال والطير معه لكثرة ما كان يسبح الله. وقد وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ص الآية 17. فهو المؤيد من الله سبحانه وكان أوّاباً متبتلاً.

وإذا ناقشنا مُلك داود وحلَّلنا وقائع التوراة فإننا سنجد كثيراً مما يفاجئنا.

فلو نظرنا إلى التسرب اليهودي إلى فلسطين لوجدنا أن أكثر تجمعاتهم وجدت في منطقة الخليل، وفي الشمال الشرقي من فلسطين، وبقي سكان الساحل في مناطقهم الفلسطينية. وإذا ناقشنا قول التوراة الذي يورد أن داود عليه السلام حكم في الخليل سبع سنين فكان يمكن له أن يبقى في الخليل أو أن يصنع مدينة تكون له عاصمة ملكه في الشمال لكنه ترك الخليل، ولم يذهب إلى الشمال أيضاً واختار جبل الزيتون أو جبل صهيون المطل على مدينة القدس، ليبني له قصراً كما تقول التوراة.

والواقع لو حلَّلنا أقوال التوراة نرى أن داود عليه السلام لم يكن من عائلة قوية حتى ينافس غيره على الملك. وقد كان معه حسب قول التوراة أربعمائة رجل ثم ستمائة، وأخضع يهودا لملكه، ثم حارب قبائل إسرائيل زمناً طويلاً حيث أخذ الملك من ابن شاؤل (طالوت) ودان له بنو إسرائيل. وفي المحصلة فإن قبائل يهودا وقبائل إسرائيل كانوا على عداء سابق مع داود، وداود لن يأمن غدرهم وشرهم فاختار منطقة بعيدة عن هؤلاء وهؤلاء، أي إنه اختار جوار القدس، وفضل مجاورة اليبوسيين على مجاورة يهودا وإسرائيل، وهذا ما يلفت النظر إلى أن عقيدة داود لم

تكن كعقيدة اليهود. فقد استطاع إخضاعهم لملكه وعقيدته، وقد ساعده في ذلك أناس لم يكونوا من بني إسرائيل كأوريا الحثي وبعض الأدوميين وبعض اليبوسيين، ولم يكن على عداء مع اليبوسيين. وقد منحه الله الخلافة في الأرض ليحكم بين الناس بالعدل فقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ص 26.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ المائدة 44.

فداود الخليفة العادل المسلم يحكم بقضائه للذين كانوا يهوداً وللناس جميعاً، وداود يدرك أن هؤلاء اليهود لن يحكمهم ملك أو نبي من أبناء عقيدتهم، لأنه سيضل كما يضلون. والتوراة أكبر شاهد على ذلك. لقد حكم بني إسرائيل في عهد القضاة عشراتٌ منهم، لكنهم فسدوا وعملوا الشرّ في عين الرب. وكذلك لو نظرنا إلى العهد الذي جاء بعد سليمان لوجدنا أن ملوكهم أقاموا عقائد الوثنية وأحلوا الحرام، ولم يتمكن سوى داود وسليمان من حكمهم حسب العقيدة الصحيحة، لأنهما كانا مسلمين على ملة إبراهيم وموسى ولم يكونا يهوديين.

وعلى الرغم من هذا وذاك فإن علم الآثار والمكتشفات يرى أنه لا توجد مخلفات كثيرة خارج القدس تعود إلى عهد داود؛ لأنه في الحقيقة لم يشتهر بتشييد الأبنية. والواقع أن داود كان مشغولاً بأهم من البناء والتشييد، فهو مشغول بالدفاع عن عقيدة التوحيد والقضاء بين الناس حسب الشريعة التوحيدية الحقة. ولعل القرآن بعدم إشارته إلى جغرافية ملك داود دليل واضح على أن الملك لدى داود كان ملكاً يستند إلى قوى العقيدة التوحيدية ونشرها، وليس إلى قوة التشييد والبناء الحضاري المادي. ولعل علماء الآثار الذين لم يكتشفوا آثاراً تدل على عصر داود لا يدركون أن ملك الأنبياء ليس بشرط فيه إقامة البنيان

والحضارة المادية بقدر ما هو بنشر الدين التوحيدي ومحاربة المعتدين والفاسدين والذين ينقلبون بين يوم وليلة من عقيدة إلى أخرى .

وحين يحكم داود بالعدل بين الناس كافة فإن ذلك يعني أن عصره عصر قضاء وقانون . عصر يحتاج للقضاء والقانون ، وهذا إن دل فإنه يدل على أن اليهود في ذاك العصر قد كثر فيه الظلم والاعتداء حتى بلغ أشده ، وإلا لما منح الله داود الحكمة والقضاء ، ودعمه بالتأييد الإلهي حتى يستطيع أن يحل المشكلات الاجتماعية التي انتشرت آثارها المدمرة بين بني إسرائيل . لقد احتاج عصره إلى قوة القانون والقضاء حتى يستطيع مجابهة الظلم والاعتداء بشتى أشكاله . ولعله من قبيل المنطق أن نقول : إن مجتمعاً يعيش بسلام وعدل وأمن لا يحتاج إلى كثير من القوانين والقضاة . وهذا يعيد إلى الأذهان أن خشونة بني إسرائيل ومكرهم واعتداءاتهم بعضهم على بعض من جهة وعلى غيرهم من الناس من جهة أخرى بلغ حداً لا يطاق ، مما يستدعي وجود القوة النبوية الملكية التي تتمتع بفهم القانون وفهم الحكم بالعدل بين الناس ، ولولا كون داود نبياً وملكاً عادلاً لكان كأي من بني البشر أو كأي من بني إسرائيل ، لكن الله اصطفاه نبياً مسلماً يحكم بالحق والعدل . اختاره ليكون اليد القوية والعقل الناضج المليء بالحكمة ، حتى يحكم هؤلاء اليهود ويخضعهم بالقوة لسلطان الحق والعدل . وبعد هذا كله تستوقفنا أمور تثير كثيراً من الإشكالات ويحلها القرآن الكريم دون سواه .

1 ـ لنرى كلمة داود ـ وكذلك سليمان . لماذا لا نجد في التوراة هذين الاسمين قبل عصر داود وسليمان؟ فمنذ السفر الأول في التوراة حتى سفر الملوك لا نعثر على اسم داود ولا اسم سليمان فيها . ثم لو نظرنا إلى أسماء المعاصرين لهما من أبناء إسرائيل لرأيناها أسماءً عبرانية . فداود اسم غير مألوف بين أسماء بني إسرائيل ، فنحن نرى أن أسماء إخوته كما وردت في التوراة هي أسماء عبرانية ، فالأول اسمه ألبآب والثاني آبيناداب والثالث شمه . بينما اسم داود لا يمت بصلة إلى هذا اللسان ، إن ذلك يذكرنا بقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ولعل الاسم أقرب إلى

اللسان البابلي أو الآشوري (دا ـ أود) ولنقارن اسمه باسم شاؤل، وصموئيل أفرايم، أبنير يوناثان، أبشالوم، إمنون إلى آخر ما هنالك من أسماء لنرى الاختلاف.

2 ـ لقد مر في التوراة النص التالي (وأخرج داود الشعب الذي فيها ووضعهم تحت المناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد فأمرَّهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون) ولعمري ألا يذكّر هذا القول بما يزعمه اليهود اليوم عن محرقة أجراها هتلر عندما وضعهم في أفران الغاز؟ ويبدو أن كاتب التوراة لفق هذه المسألة على داود لينضح من جوفه الحقد الدموي على الشعوب، وداود بريء من ذلك كله. لقد ظلت صورة المحرقة في أفران الآجر ملتصقة باللاشعور اليهودي حتى أظهروها عندما اتهموا هتلر بإحراقهم بأفران الغاز إبان الحرب العالمية الثانية. والواقع أن ما أوردته التوراة عن حرق الناس في أفران الآجر ما هو إلا صورة نازية قديمة أو صورة يهودية حاقدة منذ زمن بعيد. من خلال ما تقدم نرى أن داود بأخلاقه وسلوكه النبوي يتنافى مع أخلاق اليهود وسلوكهم وهو أيضاً ملك أيده الله ومنحه العلم والحكم والقضاء وأيده ليتمكن من حكم هؤلاء القساة القاتلين الغادرين الفاسدين.

وما لفقته التوراة عنه من أنه زنى وقتل ووضع الناس في أفران الآجر ما هو إلا حقد راسخ لدى اليهود على داود عليه السلام. فهم يريدون تشويه صورته وسلوكه وإخراجه من دائرة النبوة والعدل والعفة والطهارة. وإذا تساءلنا لماذا؟ نقول لأن داود حكم بالعدل بين الناس وهم لا يريدون ذلك، ولأن داود حماه الله من مؤامراتهم فلم يستطيعوا اغتياله وقتله كما فعلوا مع غيره من الأنبياء.

وداود بالمحصلة نبي من أنبياء الله مثله مثل سائر الأنبياء الموحدين وهو نبي بأخلاقه وخلافته وعدله وقضائه وقوته، مسلم أسلم قلبه لله، ونحن المسلمين أولى بداود من هؤلاء اليهود الذين لعنهم داود ولعنهم اللاعنون.

أين العلاقة بين الهيكل المزعوم والنبي سليمان عليه السلام

سليمان عليه السلام بين الحقيقة القرآنية والتحريف اليهودي:

النبي سليمان عليه السلام، أكثر الأنبياء عرضة للاستغلال من قبل اليهود، فعليه بنوا أساطير تبدأ ولا تنتهي، وعليه صنعوا أوهاماً سياسية ليس لها حدود. وجعلوه فيما مضى مؤسس هيكلهم المزعوم كرمز لدولة يهودية قائمة على أرض فلسطين، وابتدعوا بينهم وبينه صلة سياسية ظلت تخدع جمهورهم ومَنْ وَالاهم إلى وقتنا الحاضر.

فإذا كانت الحركة الصهيونية الاستعمارية قد انخرطت في المشروع الاستعماري الغربي، فإن استغلال الجانب الأسطوري الديني بلغ ذروته حين ربطت هذه الحركة بين تطلعاتها الاستعمارية وبين ما قيل عن سليمان ومملكته اليهودية الغابرة. ويدخل في ذلك ما قيل عن هيكل نسبوه إلى سليمان ويريدون اليوم اقتلاع المسجد الأقصى وتدميره وبناء ذلك الهيكل مكانه، حتى تكتمل دائرة نظرتهم ورؤيتهم حول الأرض المباركة ـ فلسطين ـ ومن ثم إقناع العالم بأنهم استعادوا مملكتهم الغابرة، وشيدوا الدولة اليهودية القديمة الجديدة، استناداً إلى حق ديني وتاريخي وجغرافي ابتدعته التوراة التي كتبها حاخاماتهم في أيام الانكسار والذل والتشرذم، التي عاشها اليهود في بابل تحت السيادة البابلية.

إذاً، ما العلاقة الحقيقية بين اليهود والنبي سليمان عليه السلام؟ وهل حقاً بنى هذا النبي هيكلاً يرمز إلى وحدة العقيدة اليهودية وكذلك الكيان اليهودي السياسي؟ وهل حقاً كان سليمان يمثل اليهودية في عصره والعصور اللاحقة حتى زمننا المعاصر؟ كيف تناولت التوراة شخصية النبي سليمان وكيف جاء النص القرآني موضحاً الحقيقة التي طمسها التوراتيون ولفقوا باطلاً بدلاً عنها؟

اختار النبي داود ابنه سليمان ليرث الملك، ولم يقع اختياره على غيره على الرغم من أن أبناءه كثيرون ممّن كانت أمهم يهودية من بني إسرائيل. والواقع فإن عدم اختيار داود غير سليمان وريثاً لملكه كما تذكره التوراة، يوحي بأن داود لربما لم يكن يثق بمن كانت أمه إسرائيلية أو وثنية، وذلك ربما بسبب تجربته المرة مع بني إسرائيل المتقلبين بين

لحظة وأخرى من عقيدة إلى عقيدة ما دفع والده النبي داود عليه السلام إلى لعن كثير منهم ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ المائدة 78، ويظهر أن أكثرية بني إسرائيل هم ممن كان يعصي ويعتدي ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ سبأ 10.

وعند الحديث عن سليمان نرى التوراة وهي تورد سيرتين له. ففي البداية تقول: (وأحب سليمان الرب سائراً في فرائض داود أبيه) وتقول على لسان الرب: (هوذا قد فعلت حسب كلامك هوذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك). وتتحدث التوراة بشكل مفصل عن حكمة داود وسليمان تلك التي انتشرت سمعتها بين الناس.

ثم تنقلب التوراة على سليمان فتقول: (وأحب الملك سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب).

وتكرس التوراة الحديث عن بناء سليمان ما يسمى الهيكل منذ الإصحاح الخامس من الملوك الأول، حتى نهاية الإصحاح السابع. وفي الإصحاح الثامن يدخل سليمان تابوت الرب إلى الهيكل فتقول: (فأدخل الكهنة تابوت الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس).

وإذا عدنا إلى نصوص القرآن الكريم وجدنا أن سليمان ذكر فيها في سبعة عشر موضعاً كذكرها لداود في ستة عشر موضعاً.

وإذا تتبعنا سيرته كما وردت في القرآن الكريم نرى ما يلي:

يقول تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ سورة ص آية 30.

ويقول تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ ﴾ سورة الأنبياء 78 ـ 79.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ سورة النمل 15 ـ 16.

ويقول تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ سورة ص، 31 ـ 39.

ويقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ سورة سبأ، 12 ـ 13.

وقال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ سورة النمل 17.

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ سورة النمل، 18 ـ 19.

ويقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ سورة سبأ، 14.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة سليمان وطائر الهدهد ومملكة سبأ في سورة النمل من الآية 20 حتى الآية 44.

فتبدأ سيرة النبي سليمان بقوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾. فهنا نرى اختياراً ربانياً يتدخل ليصطفي سليمان وريثاً لأبيه النبي داود، يأخذ بتعاليم الكتاب الحقيقية التي ورثها عن أبيه وتلقاها مباشرة منه.

إن القرآن الكريم لم يأت على ذكر أبناء داود الآخرين ففي هذا أهداف القرآن الكريم وغاياته، ليست المسألة مسألة تسجيل التاريخ والأنساب، بل المسألة في كليتها تسير ضمن دائرة التوحيد ودين الله الذي أقامه الأنبياء الموحدون ودافعوا عنه. ولذلك فكما وهب الله لإبراهيم إسماعيل وإسحاق وهب لداود سليمان ليقيم ما سار عليه أبوه داود عليه السلام.

وقد منح الله داود النبوة والملك والقضاء وجعله خليفة يحكم بين الناس بالعدل ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ سورة ص 26. وهذه السمات ورثها سليمان، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ فإذا كانت هذه صفات سليمان فكيف يكون سليمان منحرفاً عن عقيدة التوحيد وسائراً وراء آلهة وثنية متعددة ومتنوعة حسب زعم التوراة؟

إن المدقق في التوراة يرى أنها لا تطلق على سليمان صفة النبي، بل تطلق عليه صفة الملك تارة، وصفة الحكيم تارة أخرى. ولكن سليمان الذي حمل صفة النبوة وصفة الملك والحكمة لا يمكن له أن ينحاز عن طريق الله. فالنبوة خاصية لا يتمتع بها بقية البشر، إنها تقع في دائرة الاختيار الرباني ودائرة الصون والحفظ والعصمة.

والواقع أن سليمان لازم أباه داود ليتعلم منه القضاء ولأنه مؤمن بربه، ونبي لله منحه الله قوة التفوق القضائي على أبيه فقال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ حيث أورد قصة غنم القوم التي نفشت في الحرث، ووهب الله لداود وسليمان علماً خاصاً فشكرا الله على نعمته. وهنا لابد أن نتوقف أمام أسئلة كثيرة:

- لماذا ذكر القرآن الكريم المحاريب ولم يذكر ما يسمى الهيكل؟
- لماذا تذكر التوراة أن سليمان تزوج ألف امرأة ولم يرد ذلك في القرآن الكريم؟
- لماذا تذكر التوراة أن سليمان بنى لنسائه معابد وثنية لعبادتهن ولم يذكر القرآن الكريم ذلك؟

لقد ورد اسم المحراب في قصة النبي داود، وقد عرفنا من خلال آيات القرآن الكريم أن داود كان يتعبد في هذا المحراب، كما ورد المحراب معرفاً مع زكريا ومع مريم مما يشير إلى وجود مكان للعبادة معروف للجميع، لكن اللافت أنه لم يرد في القرآن ذكر لسليمان عليه السلام وعلاقته بهذا المحراب، أو أن له اهتماماً خاصاً به، بل على العكس من ذلك نرى القرآن يذكر أن الجن تبني لسليمان عليه السلام محاريب متعددة وليس محراباً واحداً مميزاً ومحدداً، ولتكون هذه المحاريب أمكنة يتعبد بها لله ورمزاً لعقيدة التوحيد والقضاء العادل، وليس كما أوردت التوراة، أنه بنى لنسائه معابد وثنية في كل معبد صنم يرمز لعقائد النساء الوثنية المتعددة.

فما أورده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ سورة سبأ، 12 ـ 13 ينفي تماماً ما أوردته التوراة من بناء ما يسمى هيكل سليمان، ولو قرأنا بإمعان سيرة النبي سليمان لوجدنا أن هذا النبي سخر كل مظاهر الماديات لنشر عقيدة التوحيد، وأمده الله بعناصر القوة الروحية والمادية كي يرسخ في الأرض تلك العقيدة التوحيدية.

وهذا ما يقودنا إلى النظر في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ سورة النمل 35 ـ 36.

ويقول تعالى: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ سورة النمل 38.

ويقول تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ سورة النمل 44.

فملكة سبأ حاولت اختبار النبي سليمان على عادة الملوك، فبعثت له بهدايا، عله يقتنع ويكف عنها وعن قومها. لكن غاية سليمان لم تكن مادية، فهو يريد أن ينشر عقيدة التوحيد. فقال: (فما آتاني الله خير مما آتاكم) لذلك كانت غايته ترك عبادة الشمس والأصنام والدخول في دين التوحيد. ولما تبينت ملكة سبأ أن غاية سليمان كما ظنت أدركت دعوته، فأسلمت معه وأسلمت وجهها لله رب العالمين.

وعودة إلى آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن ملكة سبأ وعظمة عرشها ترشدنا إلى كثير من القضايا الهامة التي يجب التوقف عندها:

يقول تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ النمل 29 ـ 31. فالله الذي منح سليمان النبوة والحكمة علمه طرق الهداية وأساليبها. فقد ابتدأ كتاب دعوته باسم الله الرحمن الرحيم. ثم طلب من ملكة سبأ وقومها أن لا يعلوا أو يعاندوا أو يستكبروا ويعلنوا إسلامهم، ويبطلوا عقائد الوثنية.

وتبين الآيات اللاحقة طرق الحكم التي كانت تتبعها ملكة سبأ في ملكها:

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فملكة سبأ احتارت في أمرها لأن القضية أكبر من الماديات جميعها. وتدل الآيات الكريمة على حكمتها وذكائها

وحدسها، فهي أدركت أن ما حواه كتاب سليمان ليس فيه طمع بملك ولا مال، بل فيه دعوة إلى الله ودينه، ولذلك ندرك أن حيرتها إنما تنم عن شك في سوء عبادتها وانحراف عقيدتها. فهي من هذه اللحظة مالت إلى دين الحق دون أن تفصح عنه وتعلنه وأرادت أن تلقي مسؤولية القبول أو الرفض على عاتق الجميع.

وقد ظن قومها أنهم قادرون على صد سليمان. ففي مقياسهم المادي هم أصحاب قوة وبأس شديد ومنعة. لكنها وبحسها الذكي أدركت أن من يوجه مثل ذلك الكتاب لن يُغلب، لأنه يستمد قوته من الله الرحمن الرحيم، وليس من كونه يمتلك سلاحاً متفوقاً أو غيره. فهو يدعو إلى الله وليس في غايته احتلال أرض أو إذلال إنسان.

وقد رد سليمان عليه السلام رسل الملكة وأبلغهم تهديده إن لم يرشدوا إلى دين الله، فإذا كانوا أصحاب قوة وبأس فإنه سيأتيهم بجنود لا قبل لهم بها. فجنود سليمان ليسوا من البشر وحدهم، بل هم من الجن والإنس والطير وكل ما سخره الله لسليمان ليكون في خدمة عقيدته.

وبفضل الله واعتماد سليمان على قدرة خالقه جلب كرسي الملكة وأُحضر بين يديه، وجاءت ملكة سبأ لسليمان خاضعة مستسلمة بإرادتها. وأراد أن يثبت لها أن ما منحه الله له أقوى بكثير مما ملكت من قوة، فنكَّر لها كرسي ملكها وأدخلها عليه لتراه. فسألها هل هذا هو عرشك؟ فبهتت وقلبته فقالت كأنه هو. واندهاشها وذهولها جعلاها في شك شديد. وبقدرة الله وعلمه استطاع سليمان فعل المعجزة بنقل عرشها من بلد إلى بلد قبل أن تصل هي نفسها إلى مكان وجود سليمان. ويستوقفنا قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾.

فما هو الصرح. وأين ذلك مما يزعمه كتبة التوراة عن هيكل سليمان الخيالي؟

فقوله تعالى: ادخلي الصرح يشير إلى بناء مميز صنع من الزجاج الذي يكشف ما تحته من الماء المتموج، وليس ذلك بغريب على النبي سليمان ما دام يحكم الجن

الذين يغوصون في قاع البحر يجلبون الماس واللؤلؤ وكل شيء مبهر. لقد ظنت ملكة سبأ أنها أمام لجة من الماء المتموج، ولكي تتأكد كشفت عن ساقيها خوفاً من أن يصيبها ويصيب ثيابها بلل من هذه اللجة. لكنها لم تصب بماء لأن الصرح الممرد لم يكن لج ماء بل كان صرحاً مصنوعاً من الزجاج الشفاف الكاشف عما تحته، فلما تبينت الحقيقة خرت انبهاراً مما شاهدته، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والذي جعلها تؤمن هو كتاب سليمان الذي يدعوها فيه إلى الإسلام. ثم جَلْبُ عرشِها بقدرة فائقة جبارة، ثم ذلك الصرح الممرد، وإدراكها أن قوة سليمان وعظمته هي منحة من الله.

وهو ما يشير إلى أن هذا الصرح الممرد الذي أذهل ملكة سبأ ليس الهيكل المزعوم، فهذا الصرح وإن كان له علاقة بالبَرّ، إلا أن علاقته الأبرز كانت مع البحر، حيث المياه تتموّج وتندفع تحت الزجاج الشفاف الذي بني على شاطئ البحر. فهو صرح بعيد عن بيت المقدس، حيث يقال إن الهيكل قد بني هناك، بل هو على البحر حيث الجن الذين يغوصون في البحر ويبنون على اليابسة، وحيث منطلق رحلة السفن التي تسير في رحلات منتظمة وفقاً للرياح التي سخرها رب العالمين لسليمان عليه السلام، التي غدوها ورواحها شهر. ويأتي قوله تعالى ليؤكد علاقة قوة سليمان بمنحة الله وفضله ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

إن ملك سليمان الذي نعرفه من خلال سياق آيات القرآن الكريم لم يكن ملكاً مستقراً في مكان مغلق. فهو تارة يمتلك الجياد الصافنات التي تحتاج إلى سهول وصحراء مترامية كي تخدمه في نشر دعوته. وتارة يحكم الريح واتجاهاتها حتى يسافر في البحر ويعود. وتارة يحكم الجن في صنع الصرح الممرد كي يظهر ما منحه الله من قدرات خارقة ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾. وكل ذلك يناقض ما لفقته التوراة وتوهمته عن هيكل سليمان المفترض.

وعلى الرغم من كل ما منحه الله إيّاه يبقى النبي المتواضع الذي يرجع كل نعمة إلى فضل الله ولا ينسى في لحظة هذه النعمة. يقول تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ سورة النمل، 18 ـ 19.

فعظمة الملك وقوة الجيش والجنود وتسخير الحيوان والطير والريح لسليمان لم تُنْسِهِ فضل ربه. لقد قال: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ إذاً هو منطق النبوة وليس منطق الاستعلاء والنرجسية ونسيان فضل الله.

ولو نظرنا إلى ما قالته التوراة في وصفها سليمان وهيكله المزعوم لوجدنا أن كل ذلك يأتي في دائرة مظاهر الدنيا من مال وزينة ونساء وما إلى ذلك. فحسب زعم التوراة فإن الهيكل الذي بناه سليمان كان كل جزء منه مغشى بالذهب، وكان مستودعاً مالياً ضخماً يجمع فيه المال، حتى إنها قالت إنه عندما غزا البابليون القدس أخذوا من هيكل الرب آنية الذهب وتماثيل الذهب، وكل شيء في هذا الهيكل كان من الذهب.

وإضافة إلى ذلك كله، فإن التوراة حين تتحدث عن ملكة سبأ وعلاقتها بسليمان تركز فقط على الهدايا دون دعوة سليمان لها إلى دين التوحيد. تقول التوراة: (وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة جداً، وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان). «ملوك أول إصحاح 10».

ونرى أن النص القرآني يركز على دعوة سلمان إلى عقيدة التوحيد. والواقع أن ملكة سبأ آمنت برب سليمان، ولم يصل سليمان وجنوده إلى اليمن، ولكن الظاهر أن ملكة سبأ عادت إلى بلادها ولم تقع بين الطرفين حروب أو غزو أو احتلال. فيكفي

النبي سليمان من ملكة سبأ وهي رأس الحكم في بلادها أن تؤمن بالله الواحد وتنبذ عبادة الشمس والأصنام كي يتبعها شعبها فيصير شعباً موحداً. والذي يظهر أنه أنشىء خط بحري منتظم ما بين سبأ وبين مقر سليمان البحري، مداه شهر من الزمن بين الموقعين. وهو ما يوحي به قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾.

فإننا نرى عدة أمور عظيمة سخرها الله له. فالريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض المباركة، وهذه الريح المسخرة غدوها شهر ورواحها شهر. وقد سخر له إذابة المعادن كي يصنع منها ما يشاء. ولو قارنا ما مَنَّ الله عليه بما مَنَّ على أبيه داود لوجدنا أن القوة التي يحتاجها سليمان هي قوة النبوة إضافة إلى قوة الملك والحكم. وقد هيأ الله له الأسباب جميعها حتى ينفذ مشيئة الله. لقد سخر الله لداود الحديد وسخر لسليمان إذابة المعادن كي يكيفها فيما يصنع. وسخر لداود الجبال والطير تسبح معه، بينما سخر لسليمان الريح التي تحمل الغيث إلى الأرض المباركة، وتسهل له الانتقال في البر والبحر. وقوله تعالى: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ وقوله يلفت انتباهنا إلى قوله ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾. فسليمان صنع السفن وسخر الله له الريح كي ينتقل بسفنه ذات الأشرعة إلى أمكنة بعيدة يدعو فيها إلى عقيدة التوحيد. وكل ذلك إضافة لتربيته الخيول حيث الحاجة للسهول الواسعة وعلاقاته بمملكة سبأ وتجواله. وصنعه المحاريب يدل على أن سليمان كأبيه داود سخر الملك للنبوة وللعقيدة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل على مدى اتساع الجغرافية الطبيعية والبشرية التي تفاعل معها عليه السلام. وكل ما آتاه الله من مؤهلات ومقويات الملك لم تكن لتلهيه عن عبادة الله الواحد والشكر له، وهذا ما نجده متكرراً في القرآن الكريم. يقول: (إن هذا لهو الفضل المبين) ويقول: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لقد كان نبياً أوّاباً ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ مَهيباً وزاهداً بعيداً عن مغريات المادة. ولعل في موته كامل الدلائل على ذلك، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾ سورة سبأ 14.

لقد حرفت التوراة سيرة هذا النبي العظيم، وتناست كل هذا الربط بين النعمة الإلهية لسليمان والشكر لله. وركزت همها على البعد السياسي والملكي حيث لم تعترف بنبوته، بل اعترفت بملكه، وجعلت من بنائه هيكلاً قصة القصص في حياته، وكأن سليمان سخر لليهود كي يبني لهم ملكاً دنيوياً فحسب. بينما الواقع القرآني يوضح لنا أن سليمان سار على نهج أبيه داود في الحذر من هؤلاء اليهود المتقلبين، وقد ورث عن أبيه العلم والحكمة. وهذا يستدعي حتماً أن يكون ذا معرفة تامة بطبع اليهود ومعاداتهم للأنبياء والرسل. فداود لعن الذين كفروا من بني إسرائيل، وسليمان بما آتاه الله من قوة الملك وحجة النبوة نحَّاهم جانباً بل سخرهم عبيداً بسبب طبيعة نفسيتهم.

ولو دققنا كثيراً في آيات القرآن الكريم لوجدنا أنه لا ذكر لبني إسرائيل في ملك سليمان، فملكه وعدله وحكمته لا تعني هؤلاء. بل هي أشمل وأوسع لأن النبوة خاصية من خصائص اختيار الله واصطفائه.

لقد دفعتهم أحقادهم على سليمان إلى القول بأن سليمان كان يعلم السحر ولا أحد يستطيع أن يجاريه في هذا العلم، وإلا كيف يتمكن من حكم الجن والريح ومعرفة منطق الحيوانات والطيور؟ يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ وقد جاءت الآية في سياق قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ سورة البقرة 102.

والحديث واضح حين يركز على بني إسرائيل. لقد رفض بنو إسرائيل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، على الرغم من أنه جاء مصدقاً لما في كتاب موسى عليه السلام، لكنهم رفضوا الصدق واتبعوا الضلال وساروا وراء الشياطين الذين كانوا يتناجون ويتحدثون ويلفقون ما يشاؤون على ملك سليمان، ويدّعون أن سليمان لم يُؤْتَ هذه القدرة والقوة إلا من خلال السحر. وراحوا يطبقون ما يلقنهم إياه الشياطين من كفر وخداع وعمل سوء وتفرقة بين الناس. وقد فضحهم الله وفضح خداعهم إذ قال: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾. فسليمان لم يكن ساحراً بل كان نبياً صادقاً، ولكنها طبيعة هؤلاء الذين أرادوا تشويه سليمان ونفي النبوّة عنه وتلبيسه ثوب السحر والكفر بالله. لقد أوردت التوراة ذاتها أن سليمان أمر بأن تُجمع كل كتب السحر وعلومه حتى لا يضل الناس، وقد جُمع له الكثير وخبأ الكتب تحت عرشه أي كرسي الملك. وعندما توفّاه الله جاء بنو إسرائيل بمساعدة الشيطان وسرقوا هذه الكتب وراحوا يعملون بالسحر في كل حدب وصوب. وأشاعوا أن سليمان كان عظيم السحرة فكفّروه. والواقع أن الذي حدث هو أنهم أخذوا بما قالته الشياطين ولم يأخذوا بتعاليم سليمان التوحيدية. فرد الله سبحانه على قولهم وافتراءاتهم وصدهم صداً عنيفاً.

والواقع أن المنطق التوراتي الذي جاء به الكهنة أيام السبي البابلي ودونوه لم يكن سوى انعكاس لعدة أمور هي في مجملها منطق المتخبط الذي يبحث عن شخصية فذة يتماهى بها المسبيون بعد أن ركبهم الذل والتعذيب والتسخير.

إن ملك سليمان كان ملك العدل والحكمة ونشر دين التوحيد، ولم يجد هؤلاء المسبيون ما يستندون عليه في تاريخهم ليظهروا أنهم أصحاب هيكل أو صروح حضارية.

والواقع أنهم لفقوا قصة هيكل سليمان استناداً على ما رأوه في بابل من عظمة البناء والحضارة. ولم يجدوا في تاريخهم شخصية يتماهون بها مثل ما وجدوا في سليمان، فهم يريدون تشويهه، وينسبون إليه ما لا يُنسب إلى نبيّ. ويقومون بعدة ثورات ضده علهم ينالون منه. وفي الوقت نفسه وبعد أن أخفقوا في كل محاولاتهم اخترعوا قصة الهيكل وحولوا حقيقة عظمة سليمان إلى أساطير ليس لها أساس من الصحة، هم يحقدون على سليمان وفي الوقت نفسه لا يجدون مهرباً من ربطهم به وبملكه؛ لأنهم لا يملكون إلا أن ينسبوا أنفسهم إليه حتى يتماهوا مع الملك والحضارة والقوة.

ولو عدنا إلى آيات القرآن الكريم لوجدنا أن سليمان بعيد كل البعد عن طبيعة حياة بني إسرائيل. فهو نبي يدعو إلى الله، وملك يحكم بقوة ليقيم العدل بين الناس. فهو في هذا ليس يشغله عن الله بناء هيكل يحصر فيه دينه وعقيدته، ويجعله ممنوعاً إلا على كبار الكهنة والأحبار كما تدعي التوراة.

على أية حال، فالمنطق التوراتي الذي تحدث عن سليمان عليه السلام هو منطق يحتاج منا إلى وقفة حتى يتبين الحق من الباطل.

فالتوراة دونت بعد أن سبي بنو إسرائيل إلى بابل، أي بعد سليمان بأكثر من أربعمائة سنة. وهم في هذه الحال المزرية والضعف والذل، أراد الكتبة منهم أن ينسبوا أنفسهم إلى عصر قوي ورجل قوي، حتى يصنعوا لدى المسبيين حافزاً للتمسك بماض مجيد يدفعهم إلى مستقبل مجيد. فما وجدوا إلا النبي سليمان ينسبون أنفسهم إلى مجده، ولكنهم كانوا يعرفون أن سليمان قد أذلهم وسخرهم واستعبدهم بسبب طبعهم اللعين، فأوقعهم الله في حديث يفضحهم ويكشف خبايا نفوسهم المعقدة. فلفقوا على سليمان قصصاً لا تليق بالأنبياء، ولكنهم من جانب آخر وجدوا في شخصية سليمان كما هم يصورون ويتخيلون - شخصية تناسب طبعهم؛ لأنهم لو لم يلفقوا على هذا النبي ما قالوه في توراتهم لبرزت شخصية سليمان الحقيقية، شخصية غير عنصرية، شخصية نبي ملك عادل يحكم بين الناس بالحق، يدعو إلى عقيدة التوحيد. وهذا

لا يتناسب مع عقليتهم. فهم يريدون سليمان يهودياً عنصرياً يحكم لهم ضد غيرهم، ولو كانوا على باطل، فما وهبه الله لسليمان لا يرتبط بما يسمى الجانب المادي الثابت في الحضارة، فقد حشر له الجنود من الإنس والجن والطير وسخرت له الريح. ولو كان الأمر مرتبطاً بالثبات بالمكان لما كان سليمان في حاجة إلى ريح غدوها شهر ورواحها شهر، فسليمان لا يعرف الثبات في المكان، إنه شخصية نبوية متحركة بحركة دائمة. وكل ذلك في سبيل نشر دين التوحيد.

ولو عدنا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

لقد أراد الله أن يذكّر سليمان بأن الملك لا يدوم لأحد مهما بلغت قوته. وأن الملك هو هبة الله لأجل إقامة العدل بين الناس ونشر دين التوحيد، ولما تنبه سليمان استغفر ربه وأناب وقال (رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي). فمكنه الله من السيطرة على الجن وعلمه منطق الطير وسخر له الريح. فلماذا قال سليمان (من بعدي) أليس ذلك إدراكاً منه بأنه ميت لا محالة؟ فلماذا لا يحب سليمان أن يبقى ملكه لمن بعده ويحكم فيه رجل غيره؟ أليس المنطق الظاهري يقول لنا إن أي ملك يرسخ الملك لأبنائه وأحفاده. فلماذا لا يريد سليمان أن يكون هناك مُلك من بعده يشبه ملكه؟ فالواقع المسألة ليست أنانية وحب الذات، بل المسألة ترتبط بسر لم يدركه إلا سليمان وهو أنه إن جاء من بعده من يتحكم بالجن والطير والريح فإنه سيسخرها في سبيل الذات والشر وظلم الآخرين. وإلا ما المغزى من قوله من بعدي، ما دام الأمر أنه سيموت ولا يهمه من يأتي من بعده وكيف يحكم ومدى اتساع حكمه.

ونلاحظ في هذا السياق قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ سورة سبأ 14.

فهل ندرك أن دعاء سليمان ربّه (رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) يرتبط ارتباطاً أساسياً بموته؟ لقد دخل سليمان ليتعبد وهو عجوز يتوكأ على عصاه فأماته الله وهو واقف متوكئ على عصاه، وظل كذلك لا ندري كم يوماً أو شهراً حتى أخذت دودة الأرض تأكل عصاه من داخلها فتنخرها حتى ضعفت فسقط سليمان. وتبين الجن والإنس موته، وكانوا يظنون أنه حي وهو متوكئ على عصاه. وهذا ما يفسر قوله تعالى: (هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) فقد حكم الجن والإنس في حياته ومماته، والله أعلم كم هي المدة التي استغرقت دودة الأرض وهي تنخر منسأته حتى سقط. ولو كان الجن والإنس يعلمون أن سليمان ميت لفرّوا من ذلك العذاب وذلك الحكم الذي حكمهم به سليمان. فلنتصور حال المملكة، أي مملكة، عندما يموت ملكها، فقد تنقلب انقلاباً جذرياً خاصة إذا كان الملك نبياً والمحكومون متقلبين بين عقيدة وأخرى. فكيف سارت أمور ملك سليمان طوال مدة موته؟ إنِ الرعب الشديد داخَلَ قلوب الجن والإنس فظلوا خائفين مترقبين عاجزين عن فعل أي شيء ما داموا لا يستطيعون الاقتراب من سليمان وهو متكئ على عصاه. فلنتصور هذه الهيبة السليمانية النبوية وهذه الشخصية الفريدة.

هذا هو سليمان النبي القرآني الأواب، وليس ذلك الذي تصورته التوراة فجعلته زير نساء وجامع ضرائب وقاتل أبرياء. هذه هي محاريب سليمان التي تشهد على نشره معابد التوحيد في كل أرض يصل إليها. وليس ذلك الهيكل الذي صنعوا فيه أصنام ألف امرأة وثنية نسبوها زوراً وبهتاناً إلى سليمان. هذا هو سليمان الذي ورث داود وعدل بين الناس؛ فهل من شبيه لاسم سليمان في توراتهم؟ وهل هم لم يجدوا أحداً من العظماء يتماهون بشخصيته سوى ذلك النبي الموحد العظيم؟

فأين سليمان من قتلة الأنبياء ومحرفي التوراة؟ أين سليمان من شعب قساة الرقاب كما وصفهم موسى عليه السلام؟ أين سليمان من قلوب قاسية وطباع جبلت على الذل وأكل الحرام والعنصرية، وعدم التناهي المطلق عن الحرام؟.

وقفة مع بعض المغالطات حول المسجد الأقصى

هل انقضى عصر الإسرائيليات؟ أو هناك إسرائيليات لكل عصر؟

مصطلح الإسرائيليات عرف منذ أن بدأ علماء المسلمين بتوسيع بحوث التفسير والحديث النبوي الشريف. ولم يعرف عن واحد من علمائنا أنه لم يحذر من الوقوع في هذه الإسرائيليات.

وبداية نعتقد أن غالبية المسلمين القارئين والباحثين يعرفون بشكل عام ماذا تعني الإسرائيليات، على الرغم من أن هذا المفهوم فيه من الضبابية والتشويش ما يجعل الكثيرين من أبناء أمتنا يقعون في تصديق بعض الإسرائيليات، وهم غافلون أو غير منتبهين.

وعودة لا بد منها إلى جذور هذه الظاهرة تعرفنا المصطلح زمانياً ومكانياً. وتعرفنا الأسس والأشخاص والأساليب التي عايشت هذه الظاهرة منذ بدء البعثة حتى يومنا هذا.

قد يظن بعضنا أن الإسرائيليات شاعت كظاهرة في زمن محدد. فأصبحت من الأمور التي تدرس ضمن سياق تاريخي محدد. إلا أن البحث في جوهر الظاهرة يقول لنا إن الإسرائيليات ما تزال تتحرك في عقولنا وكتاباتنا وفتاوينا إلى يومنا هذا.

- البدايات: عندما ظهرت الدعوة الإسلامية بظهور سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، رأى بعض اليهود القاطنين في المدينة (يثرب) وما حولها أن هذا النبي هو الذي بشر به الأنبياء في كتبهم، وخاصة النبي موسى عليه السلام، وكذلك عيسى عليه السلام فدخلوا الإسلام وحسن إسلامهم. ومن اليهود من أظهر إسلامه وأبطن يهوديته، وذلك لغاية في نفوسهم، ومن أمثلتهم عبد الله بن سبأ.

وعلى الرغم من ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمر المسلمين أن لا يتخذوا كلام هؤلاء مرجعاً من مراجع العقيدة أو التاريخ. فقال فيما معناه

استمعوا لهم دون أن تصدقوا أو تكذبوا. وإذا تفحصنا نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأخذ من أهل الكتاب، وخاصة اليهود الذين أسلموا، أدركنا خطورة المسألة.

فقد تحدثت المصادر عن شخصيات بارزة من هؤلاء اليهود الذين أسلموا وكان على رأسهم عبد الله بن سلام وكان حبراً يهودياً. ومنهم كعب الأحبار، ووهب بن منبه. وثلاثتهم كانوا على علم واسع بالتوراة والأنبياء وتاريخ بني إسرائيل. ولما كان كتاب التوراة الذي تداولوه هو الذي كتبه عزراً الكاتب أيام السبي البابلي، أي التوراة المحرفة عما نزل على موسى وأنبياء بني إسرائيل، فقد حفظوا ما فيه من أسفار وما حوته من انحراف وتشويه وتخريف وأسطورة، فاختلطت في عقولهم الحقيقة بالخرافة. ولم تكن هذه الأمور بِنْتَ ساعتها، بل توارثها بنو إسرائيل منذ عام 570ق. م، حتى بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد تراكمت في التعاليم والعقول والنفوس حتى أصبحت جزءاً من العقلية اليهودية. وحين تناول القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قصص الخلق والأنبياء والأمم السالفة راح بعض هؤلاء اليهود يدلون بدلوهم في الحديث عنها مستندين على ما تعلموه من كتاب التوراة وتعاليم الأحبار. لذلك أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم خطورة ذلك لما فيه من انحراف عن الحقيقة، ولما فيه من تناقض مع العقيدة الصحيحة، ولذلك جاء نهيه واضحاً عن الأخذ من هؤلاء اليهود.

وإذا حاولنا أن نرصد هذه الإسرائيليات التي بثت بأسلوب أو بآخر بين المسلمين الأوائل وجدنا أنها تنقسم إلى قسمين كبيرين:

1 ـ القسم الأول ويتعلق بالخلق والغيبيات.

2 ـ والقسم الثاني وهو يتعلق بفلسطين وبيت المقدس.

أما الإسرائيليات الخاصة بالغيبيات، فقد كشف أكثرها علماء المسلمين، وكان على رأسهم ابن حزم الأندلسي وابن قيم الجوزية، وأسهَم في الكشف عن بعضها

المفسرون الحاذقون أمثال ابن كثير والطبري على الرغم من أن العالمين الأخيرين وقعا في بعض المطبات والمحظورات من الإسرائيليات، ولذلك قلنا أسهم في الكشف عن بعضها الحاذقون من المفسرين وليس كلهم.

ولعل الأخطر في ذلك أن ما تسرب من الإسرائيليات لم يكن كله مكشوفاً أو قابلاً للكشف إلا بصعوبة بالغة. لذلك وقع بعض المفسرين في المطب واستندوا في بعض تفسيراتهم على ما تسرب من هذه الإسرائيليات.

ولما كان هدفنا في هذا الإطار الوقفة المتأنية عند القسم الثاني من هذه الإسرائيليات؛ أي القسم المتعلق بفلسطين وبيت المقدس، فقد آثرنا أن لا نطيل في الحديث عن القسم الأول.

ومن أمثلة ذلك القسم الأول ما أورده الثعلبي النيسابوري في كتابه المسمى عرائس المروج - قصص الأنبياء - عن أن الأرض خلقها الله على قرني ثور. أو قوله عن عوج بن عناق الذي كان عملاقاً خرافياً. ومنها الحديث عن أشكال الجن والملائكة وما شابه ذلك.

وهذه الأمور تصدى لها المفسرون القدامى واستطاعوا باستنادهم على القرآن الكريم والسنة الشريفة أن ينسفوها من جذورها؛ لأنها تخالف العقيدة والمنطق والعقل ومسار التاريخ.

ولكنهم عندما تعرضوا للإسرائيليات غير الغيبية وخاصة ما يرتبط بحياة بني إسرائيل وعلاقاتهم بالمنطقة وفلسطين تحديداً وقعوا في مطبات وأشراك، كان لها الأثر السلبي البالغ على كثير من المسلمين، وظل هذا التأثير ملموساً حتى يومنا هذا.

قد يقول قائل إن تسريب الإسرائيليات كان في وقت مضى لأسباب كثيرة أهمها تشويه الإسلام في وقت كانت الدعوة الإسلامية في بدايتها. وظن هؤلاء أن التسريب توقف عند حدود تاريخية معروفة، فما حاجتنا اليوم لنفتح هذا الملف من جديد؟ نعتقد أن الحركة الصهيونية، وخاصة بعد احتلال فلسطين، ركبت موجة

الإسرائيليات بوصفها واحدة من الأساليب الإعلامية الكثيرة التي تروج لما يسمى أرض إسرائيل، والهيكل وأرض الميعاد الخاصة باليهود. والمستند الديني وكذلك التاريخي كانا وما يزالان من المستندات الهامة التي تحاول الصهيونية العمل فيهما بشكل كبير ومكثف؛ لتنسف كل مقولات الشعب الفلسطيني المسلم، ولتكرس الباطل على حساب الحق. وقد استطاعت وسائل الإعلام الصهيونية أن تسرب آلاف المقولات الخاصة بالقدس وأرض فلسطين، التي تركّز دوماً على ما يسمى الحق التاريخي والديني لليهود في فلسطين وما جاورها. ولكن وسائلها تنوعت واختلفت. وكان من بينها تسريب بعض المقولات لدى أوساط إعلامية وثقافية وتاريخية عربية إسلامية. وهذه المقولات ليست إلا امتداداً لتسريب الإسرائيليات في العصور الإسلامية الأولى. فهي تدخل في دائرة التفاسير القرآنية وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتراثيات الدينية والتاريخية الإسلامية.

ومن الإسرائيليات في كتب التفسير ما يذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي الآيات من 4 ـ 8 من سورة الإسراء.

فقد روي من الإسرائيليات اسم من سلط على بني إسرائيل وصفته، وكيف كان وإلام صار. وقد كانت الروايات في معظمها في بيان العباد ذوي البأس الشديد الذين سلطوا عليهم تدور حول بختنصر البابلي. وقد أحاطوه بهالة من العجائب

والغرائب والمبالغات التي لا تصدق، وقد أخرج هذه الروايات ابن جرير في تفسيره وابن أبي حاتم والبغوي وغيرهم عن ابن عباس وابن مسعود وعن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعن السدي وعن وهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهم، وخرّجها من غير ذكر أسانيدها مع عَزْوها إلى مخرجيها السيوطي في الدر المنثور. وفيها ولا شك الكثير من أكاذيب بني إسرائيل التي اختلقها أسلافهم، وتنوقلت عليهم ورواها أخلافهم من أهل الكتاب الذين أسلموا. وأخذها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسيناً للظن بهم، وقد أشاع أهل الكتاب أن إفساد بني إسرائيل حدث في الأيام الغابرة، وأنهم علوا علواً كبيراً فيما سبق. أي قبل الإسلام.

ونعتقد أن اعتماد هذا التفسير لدى بعض المسلمين يبعدهم عن حتمية الصراع المستمر مع اليهود، حيث إن قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لا ينطبق على الزمن الماضي بل على الزمن المستقبل، وكونه حدد المسجد بالمسجد الأقصى فقد وضح الأمر.

وكثير من علمائنا اليوم يعتمدون التفسيرات التي تقول بحدث الإفساد والعلو في الزمن الغابر، متغافلين عن الأفعال المضارعة التي تدل على المستقبل - يسوءوا - يدخلوا - يتبروا، ومتغافلين عن قوله - عباداً لنا - ومتغافلين عن تسمية الأقصى بالمسجد، ومتجاهلين التحليل التاريخي للأحداث على ضوء مفاتيح القرآن الكريم. ولو أن تلك الإسرائيليات والأباطيل وُقِفَ بها عند رواتها من أهل الكتاب الذين أسلموا، أو عند من رواها عنهم من الصحابة والتابعين لهان الأمر، ولكن عظم الإثم أن تنسب إلى المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم صراحة. ولا نشك في أن هذا الدس من عمل زنادقة اليهود أو الفرس.

يقول الشيخ العلامة الدكتور محمد أبو شهبة: إن المراد من سياق قصة الإفساد والعلو ما قضاه الله على بني إسرائيل أنهم أهل فساد وبطر وظلم وبغي. ودلت الآيات من سورة الإسراء على أن بني إسرائيل لا يقف طغيانهم وبغيهم

وإفسادهم، بل الآية توحي بأن ذلك مستمر إلى ما شاء الله، وأن الله سيسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب ويبطش بهم ويرد ظلمهم وعدوانهم واستهانتهم بالقيم والحقوق الإنسانية.

ومن أخطر ما سرب ويسرب في هذا العصر القول بأن الصخرة التي تحت قبة مسجد الصخرة. كانت قبلة اليهود. وقد نشر في مجلة الفرقان الكويتية في العدد 201 وبتاريخ 29 ربيع الآخر 1423هـ مقالة تحت عنوان أحكام قبة الصخرة، وأطلق على كاتبها اسم حاي الحاي. جاء في المقال ما نصه: الصخرة، التي في بيت المقدس هي قبلة اليهود، وكانت كذلك قبلة المسلمين في أول الأمر، ثم نسخت بالمسجد الحرام في مكة.

فهذا من الإسرائيليات المعاصرة التي يراد من ورائها القول إن لليهود حقاً دينياً في فلسطين لأن قبلتهم فيها. وما وراء ذلك دعوة للكف عن الجهاد وتحرير الأرض المباركة فلسطين من أيدي الصهاينة اليهود، ما دام هناك اعتراف بأن قبلتهم صخرة المسجد المسمى مسجد قبة الصخرة، الذي هو جزء من الحرم القدسي الشريف.

ولو عدنا إلى آيات القرآن الكريم ودرسنا سيرة النبي إبراهيم لأدركنا أنه عندما رفع قواعد البيت الحرام وبنى الكعبة دعا الناس جميعاً إلى الحج وليس المسلمين وحدهم. ولو كان اليهود يتبعون دين إبراهيم حقاً لاتجهوا نحو قبلته. ولكنهم ولغايات سياسية ودينية، أشاعوا أن الصخرة الواقعة تحت القبة في الحرم القدسي كانت قبلتهم. وجاء من المسلمين من يعزز هذه الإشاعات ـ الإسرائيليات ـ الخطيرة.

وعلى ذلك فإن سؤالاً يطرح نفسه: إذا كانت الكعبة قبلة الموحدين منذ زمن بعيد جداً ويعترف بمكانتها العرب والفرس وغيرهم، وإذا كان الله سبحانه اختارها لتكون كذلك بالنص القرآني الصريح، فما الذي جعل اليهود يقولون بأن الصخرة هي قبلتهم؟ هل بشرهم الله بذلك في توراتهم؟ إن توراتهم لم تشرْ لا من قريب ولا من بعيد إلى شيء اسمه قبلتهم، بل اخترعت ما يسمى الهيكل ونسبوه إلى سليمان

عليه السلام والهيكل غير موجود لا في الحقيقة ولا في الجغرافيا، بل هو اختراع تصوروه وبنوا عليه ادعاءاتهم وبهتانهم وتزويرهم التاريخ والحقيقة.

إن إبراهيم بنى الكعبة في وادي مكة الخالي من البشر بتاتاً؛ بينما كانت فلسطين عندما جاء بنو إسرائيل وتسربوا، كانت مسكونة بأهلها الذين لهم معابدهم وعقائدهم وأرضهم، فهل اختار الله أرض شعب فلسطين ليسلبها ويمنحها إسرائيل، ثم يأتون ليقولوا إن الصخرة هي قبلتهم؟ إن قبلة التوحيد هي الكعبة وهي لجميع الموحدين في الكون كله، فمن أراد أن يتبع ملة إبراهيم عليه أن يتبع قبلته ولا يخترع لنفسه قبلة أخرى. لأن قبلة إبراهيم اختارها الله. وما عداها اختيار بشري قابل للتغير أو التبدل. وشتان بين اختيار الله والاجتهاد البشري.

إن إسرائيليات اليوم أخطر بكثير من إسرائيليات الأمس. وما هي إلا من أخطر الوسائل الإعلامية التي يدرك أهميتها اليهود. لقد كانت إسرائيليات الأمس تدس في التفاسير لتؤسس في أذهان المسلمين مقولات كثيرة ترتبط بالمستقبل القريب والبعيد وإلى قيام الساعة. وما يخص فلسطين وبيت المقدس هو الأخطر في ذلك كله. وها نحن نسمع كل يوم مقولة جديدة هنا وهناك، يريدون من ورائها تثبيت وجود الباطل اليهودي والاعتراف به أمراً واقعاً.

لقد نسوا أو تناسوا وتغافلوا عن عمد عن آيات القرآن الكريم الحاثة على الجهاد وعدم موالاة الكفار من اليهود. وتناسوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تحض على مقاتلة الغزاة المحتلين وطردهم من ديار المسلمين. ولم يتذكروا في هذا الوقت بالذات سوى الإسرائيليات التي تريد تحطيم إيمان الأمة وجهاد شعبها في فلسطين، وتكريس الاحتلال الصهيوني الغاصب والاعتراف به أمراً واقعاً.

ولو عدنا إلى ما قاله المغالطون حول المسجد الأقصى لرأينا أنه لا بد لنا من وقفة متأنية حول المسألة لأنها بالغة الحساسية والخطورة.

لقد ابتلي المسلمون ببعض (المشايخ) الذين حجروا الإسلام في البداية، ثم ما لبثوا أن بدؤوا يبثون سموم المقولات الصهيونية التوراتية، ولا ندري ما الذي يفتون به في المستقبل. فلعله يصل حد الوقاحة والتجرؤ على الثوابت الإسلامية المعروفة. ففي مجلة الفرقان الكويتية العدد 201 وبتاريخ 29 ربيع الآخر 1423 هـ نشرت مقالة تحت عنوان أحكام حول قبة الصخرة، وكتب في رأس صفحتها الثانية اسم الكاتب تحت اسم الشيخ حاي الحاي. وعلى الأغلب فإن هذا الاسم مستعار وضع كي لا يفتضح أمر الكاتب الحقيقي، وإن كان الاسم حقيقياً فإنه يدل على شخص ينتمي للعقيدة اليهودية، فهو ليس من أمة الإسلام ولا ملتها.

جاء في بداية الفتوى سؤال يقول: هل تدخل قبة الصخرة ضمن القباب المنهي عنها وما حكم إطلاق لفظ المشرفة؟

ويأتي الجواب على الشكل التالي: الصخرة التي في بيت المقدس هي قبلة اليهود، وكانت كذلك قبلة المسلمين في أول الأمر، ثم نسخت بالمسجد الحرام في مكة، وأول قبة بنيت في الإسلام كانت على الصخرة في بيت المقدس.

وهذا الكلام الذي يفتي به الشيخ حاي الحاي ينم عن طعن في القرآن الكريم والإسلام، وينم عن جهل مطبق بالحقائق التاريخية، ثم ينم عن شخصية مشبوهة أرادت نشر هذا الكلام في هذا الوقت بالذات، ليخدم المقولات الصهيونية، بينما يشن الجيش الصهيوني أشرس جملة إبادة ضد الشعب الفلسطيني.

فالله سبحانه يقول في كتابه العزيز: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾ سورة الإسراء الآية 1.

فللتذكير فقط نعيد صاحب الفتوى إلى القرآن الكريم. فسورة الإسراء نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، وقد ارتبطت بحادثة الإسراء،

حيث أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

فإذا كانت بقعة المسجد الأقصى مباركة، فإن المباركة عمت ما حوله، والحرم القدسي الشريف يضم المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة وحائط البراق.. فالصخرة بقعة، وهي مباركة، وإذا كان الناس يطلقون عليها الصخرة المشرفة، فليس ذلك من باب التقديس أو الوثنية، وما سمعنا في تاريخنا أن مسلماً قدس هذه الصخرة من باب العبادة أو الإشراك.

وإذا كان المسلمون في فلسطين اليوم يقاتلون لأجل استرداد المسجد الأقصى وأرضهم المباركة فلسطين، فإن ذلك ليس من أجل هذا البناء، أي من أجل قبة الصخرة، بل من أجل البقعة المباركة التي تضم الحرم القدسي بأكمله.

وقد قال الشيخ كاتب الفتوى: الصخرة التي في بيت المقدس هي قبلة اليهود، فهل لديه دليل أن هذه الصخرة قبلة اليهود؟ هل عاد لدراسة تاريخ فلسطين قبل أن تظهر الغزوة العبرانية، ألم يكن الكنعانيون العرب الذين كان لهم صلة بالغة القوة مع إبراهيم أبي الأنبياء هم من عمروا مدينة يبوس (القدس) وأقاموا معابدهم فيها؟

وإذا رجعت إلى نصوص التوراة التي بين أيدينا رأيت أنه لا وجود لذكر الصخرة بتاتاً من بين معابد اليهود، فهم يدعون أن هيكلهم يقبع تحت المسجد الأقصى وليس تحت قبة الصخرة، فمن قال لك إن هذه الصخرة كانت قبلة اليهود؟

لقد بدأ الاهتمام بقبة الصخرة والمسجد، وبالصخرة نفسها منذ أن وقعت حادثة الإسراء وليس قبلها. وعندما دخل الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس سأل المسيحيين عن مكان المسجد الأقصى، فدلوه عليه، وكانوا يعرفون أن هذا المكان يخص المسلمين، لما له من علاقة بحادثة الإسراء، ولما له من علاقة بسورة الإسراء

والقرآن الكريم. وتؤكد كل المصادر الإسلامية أن الخليفة نظف مكان المسجد الأقصى، وأقام عليه ثمانية أعمدة مغطاة واعتبرت من ذاك التاريخ مسجداً، وظل قائماً إلى يومنا هذا.

أما قوله: وكانت كذلك قبلة المسلمين في أول الأمر ثم نسخت بالمسجد الحرام في مكة.. فإذا كانت قد نسخت قبلةً يتوجه نحوها في صلاتهم فإن المسجد الأقصى والحرم القدسي الذي يضم الصخرة وقبتها لم ينسخ مسجداً مباركاً. ومنزلته لا تقل عن منزلة المسجد الحرام بسبب اختيار الله سبحانه وتعالى. المسجد الحرام والمسجد الأقصى مكانان يرمز بهما إلى عقيدة التوحيد، وذلك من خلال تسميتهما بالمسجد.. وأَلفتُ انتباه الشيخ إلى أن تسمية مسجد للأقصى تعني أن الإسلام نسخ العقائد السابقة بما فيها العقيدة اليهودية، فإذا كان الشيخ يتخيل أن الصخرة كانت قبلة اليهود فإن الإسلام نسخ اليهودية، ونسخ كل ملحقاتها من معابد وطقوس، هذا إذا كانت الصخرة قبلة لليهود وهو أمر مرفوض تاريخياً وعقيدياً وعلمياً.

ويقول الشيخ: وأول قبة بنيت في الإسلام كانت على الصخرة في بيت المقدس، ويورد أقوالاً لابن تيمية رحمه الله منها قوله: وأما الصخرة فلم يُصَلِّ عندها عمر - رضي الله عنه - ولا الصحابة، ولا كان على عهد الخلفاء الراشدين عليها قبة، بل كانت مكشوفة في خلافة عمر وعثمان وعلي ومعاوية ويزيد ومروان، ولكن لما تولى ابنه عبد الملك الشام سنة 86هـ - ووقعت بينه وبين ابن الزبير الفتنة كان الناس يحجون، فيجتمعون بابن الزبير، فأراد عبد الملك أن يصرف الناس عن ابن الزبير. فبنى القبة على الصخرة وكساها في الشتاء والصيف ليرغب الناس في زيارة بيت المقدس، ويشتغلوا بذلك عن اجتماعهم بابن الزبير، وأما أهل العلم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فلم يكونوا يعظمون الصخرة فإنها قبلة منسوخة الفتاوى 27/ 12.

ويعلق الشيخ كاتب المقالة بقوله: فبناء القبة على هذه الصخرة فيه تعظيم لها، وهذا مخالف لما عليه أهل العلم من الصحابة والتابعين، كما قال ابن تيمية، ويتابع قوله كما لو أن في بناء القبة على هذه الصخرة تشبُّهاً باليهود الذين يقدسون الآثار والأحجار ونحوها. ومعلوم أن اليهود تقدس هذه الصخرة لأنها قبلتهم.

أما قوله بأن سبب تشييد القبة خلاف بين عبد الملك وابنه الوليد من جهة، والزبير من جهة ثانية، فهذا أحد الآراء، وهناك رأي آخر أجده الأصح والأقوى، وهو أن النصارى في مدينة القدس كانوا يتفاخرن بقبة كنيسة القيامة لكونها البناء الأعلى في المدينة، وكانوا يستخفون بالمسلمين ويتهمونهم بالتخلف وعدم القدرة على مضاهاتهم في البناء العمراني والحضارة العمرانية، فاشتكى المسلمون إلى الخليفة الأموي، الأمر الذي دفعه لبناء قبة الصخرة التي يراها الناس من أربع جهات، بينما قبة كنيسة القيامة كانت لا ترى إلا من ثلاث جهات، وكان علوها قد فاق علو قبة الكنيسة، وقد ورد ذلك في عدة مصادر إسلامية، وبناء قبة الصخرة لا يزيد هذه البقعة شرفاً وبركة فهي مباركة منذ زمن بعيد، والناس إنما تتبارك بالبقعة المباركة، وليست قبة الصخرة إلا جزءاً من هذا المكان المبارك، ومن الجدير ذكره أن قبة الصخرة أصبحت على مر الأجيال رمزاً للمسلمين على أصالتها الإسلامية، والدفاع عنها ليس دفاعاً عن كومة أحجار وصفيح، بل الدفاع عنها لأنها تحمل من المباركة والتاريخ ما تحمل.

يقول استناداً على قول آخر لابن تيمية رحمه الله: قصة بناء الكعبة على الصخرة في أيام عبد الملك، قيل ليكثر قصد الناس لبيت المقدس، لينصرفوا عن ابن الزبير خصم عبد الملك، ويعلق قائلاً: فبناء القبة على هذه الصخرة فيه تعظيم لها، وهذا مخالف لما عليه أهل العلم من الصحابة والتابعين.

فإذا كان بناء القبة فوق الصخرة تعظيماً لها، فما قولنا في توسيع بناء الحرم في مكة، وما بالنا في تجديد بناء الكعبة مرات عدة، وما بالنا في المآذن العملاقة الموجودة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل هي أيضاً مخالفة لما عليه أهل العلم والصحابة والتابعين، وإذا كانت مخالفة فلم يقوم الحكام في الجزيرة على تجديد بنائها وتوسيعها وما إلى ذلك؟

إن وجود قبة فوق الصخرة ليس معناه أنها صارت وثناً نعبده، ولكنها أمر يتوافق مع تطور العمران وتطور الحضارة العمرانية.

وبناء القبة على الصخرة لا يؤدي إلى تعظيمها والمبالغة في الصلاة عندها، ونحن نعرف قبل غيرنا أن الصلاة في المسجد الأقصى (الحرم القدسي الشريف كله) كخمسمائة صلاة في غيره من المساجد، فإن كانت القبة موجودة أو غير موجودة فإن أهمية الصلاة في الحرم القدسي لا تنقص.

وقد ورد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الكثير عن فضل الصلاة في بيت المقدس، منها حديث ميمونة الذي رواه أحمد في مسنده ورواه ابن ماجة. ومنها حديث معقل الأسدي الذي رواه أحمد أيضاً. ومنها ما رواه البزار والطبراني. ومنها حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، وقد روي من ستة عشر طريقاً.

فقدسية بيت المقدس قدسية ربانية خصها بها الله سبحانه، المسلمين، وأما القبة فهي تشمخ بمهابة تفوق مهابة أكثر الأماكن قدسية في مدينة القدس، ووجودها تأكيد أن الإسلام قد أتى ليستمر، والقبة كما يرى الكثير من الباحثين والمؤرخين تأكيد للهوية الإسلامية لمدينة القدس وفلسطين، حتى إنها أصبحت نموذجاً لجميع المباني الإسلامية فيما بعد.

أما لماذا اطلع علينا هذا الشيخ بهذه الفتاوى في هذا الوقت بالذات فللقصد ظلال نتعرف عليها: فالصراع بين المسلمين وبين اليهود هو صراع عقيدي بالدرجة الأولى، وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ملامح هذا الصراع من خلال سورة الإسراء وسورة الأعراف المكيتين، ومن خلال سياق الحديث الكلي عن بني

إسرائيل ومن لف لفهم في القرآن الكريم والسُّنّة المطهرة فاليهود يقاتلون ليلاً ونهاراً ويحفرون الأرض والجدران ليعثروا على أي أثر لهم في جوانب المسجد الأقصى، ليقولوا إنهم أصحاب حق في فلسطين - ولم يعثروا على شيء، فإذا كانوا حائرين تائهين في كيفية تصدير خداعهم وكذبهم، فيا للعجب من شيخ يأتي اليوم ليقول إن الصخرة هي قبلة اليهود! إن هذا الكلام يدفع ثمنه اليهود كل المليارات من الدولارات، خاصة إذا صدر عن شيخ محسوب على الأمة الإسلامية.

وكأني بهذا الشيخ يقول: لماذا يا فلسطينيون تقاتلون (إسرائيل واليهود) من أجل الحرم القدسي الشريف والصخرة الموجودة تحت القبة وهي قبلة لهم؟ وعليكم يا عرب ويا مسلمون أن توقفوا صراعكم مع هؤلاء اليهود، لأن لهم حقاً دينياً في القدس وفلسطين، وما هذه الدعوة إلا من مغرضين مستسلمين خانعين أذلاء، بل من أناس رهنوا دينهم وشخصيتهم للصليبيين الأميركيين واليهود الصهاينة.

ولو أن فلسطين اليوم ليست واقعة تحت الاحتلال اليهودي الصهيوني لما سمعنا مثل هذه الأقاويل والترهات. ولكن كيف تؤجّر النفوس لليهود والصليبيين إن لم يكن موضوع القدس وفلسطين هو المحور في ذلك؟

إن فلسطين وفي قلبها القدس أرض مباركة من الله سبحانه، والمسجد الأقصى ليس أقل أهمية في قدسيته من المسجد الحرام. فإذا كان المسجد الأقصى يئن تحت نير الاحتلال فليس أمامنا نحن العرب والمسلمين إلا تطبيق أمر الله سبحانه، في الجهاد لاستخلاص حقنا.

وحبذا لو يكرس هذا الشيخ المتمشيخ كل كتاباته لإظهار فتاوى الجهاد من أجل أرض غالية عزيزة على قلوب المسلمين جميعاً. ولست أدري أيجرؤ مثله على إبراز فتاوى الجهاد أم أنه موظف في الإدارة الأميركية الصهيونية ليشغل المسلمين بقضايا دون قضايا. فإن كنت يا شيخنا حريصاً على الإسلام وأرض الإسلام فما عليك إلا أن تكتب ما أمر الله به من الجهاد والقتال حتى تتحرر القدس وفلسطين المباركة.

تدويل القدس وتقسيم فلسطين في ميزان الرؤية الإسلامية:

مضى على قرار تقسيم فلسطين ما يقارب الخمسة والخمسين عاماً. وعلى الرغم من أن هذا القرار لم ينفذ على الأرض، إلا أن الكثيرين من أبناء الشعب الفلسطيني، اعتبروه التمهيد الثاني لقيام الكيان الصهيوني بعد تمهيد بلفور واتفاقيات سايكس بيكو.

في قراءتنا لقرار التقسيم، نرى أن تنفيذ اتفاقيات سايكس بيكو ووعد بلفور، ظلا محور الرؤية الغربية منذ ما قبل عشرينيات القرن العشرين، حتى قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين. فهذه الاتفاقيات قسمت الوطن العربي وأوقعته تحت ما يسمى الانتداب، وكانت فلسطين قد وقعت تحت نير الانتداب البريطاني لتنفذ وعود زعمائها بإقامة وطن لليهود في فلسطين، وليس كما جاء في نصوص الانتداب أنه يقع للأخذ بيد الشعوب نحو عالم سياسي واجتماعي أفضل.

لماذا أقرت هيئة الأمم المتحدة قرار التقسيم؟

تشير الوثائق إلى أن اليهود بعد أن دفعتهم الدول الغربية والوكالة اليهودية للهجرة إلى فلسطين، وتسهيل قدوم الآلاف منهم، صاروا يشكلون 32 بالمئة من مجموع السكان ويملكون 5 . 5 بالمئة من الأرض الفلسطينية، استولوا عليها من خلال عقود شراء وبيع مع سماسرة وإقطاعيين غير فلسطينيين.

لم يمض وقت طويل على تأسيس الهيئة الدولية، وجاء قرار التقسيم ليشير بوضوح ومنذ البدء، إلى أن هذه الهيئة لم تشكل لتحقيق طموحات الشعوب في الاستقلال بل لتكرس العدوان وترسخ الظلم والقهر.

فقرار التقسيم نص حرفياً على تقسيم فلسطين إلى قسمين، القسم الأول يهودي، والقسم الثاني عربي، وبموجبه يمنح اليهود 56 بالمئة من مساحة فلسطين، وقد انتقيت لهم أجود الأراضي وأخصبها.

وبالمقارنة نرى أن القرار يحشر الفلسطينيين الذين يشكلون عام 1947 ما نسبته 68٪ من مجموع السكان في أراض تساوي 44٪ من المساحة الكلية لفلسطين.

ومن الواضح جداً أن دول التحالف الغربي، أرادت من وراء هذا القرار إقامة دولة لليهود قابلة للحياة، بينما أعطت الفلسطينيين أراضيَ جبلية وصحراوية ليست

قابلة للحياة. وكان من الطبيعي أن يرفض الشعب الفلسطيني هذا القرار جملة وتفصيلاً. ليس لأن اليهود يحصلون بموجبه على أراض أكبر وأخصب، بل لأن القرار يسلب الفلسطينيين أراضيهم وحقوقهم الجغرافية والدينية والتاريخية. وبدا القرار مؤامرة وخيانة لمبادئ الأمم المتحدة التي نصت على عدم المساس بحقوق الشعوب.

آليات المشروع والمناورات الجشعة:

عندما اجتمعت الجمعية العمومية في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام 1947. بدا واضحاً أن الولايات المتحدة، تسيطر عليها سيطرة تامة، خاصة أن الدول المنتسبة لها في غالبيتها كانت جديدة العهد في الاستقلال.

وقد شهد التصويت على مشروع التقسيم مناورات جشعة. وبدا عداء أميركا والغرب لمصالح المسلمين والعرب واضحاً.

وقد تحدث لورنس سميث عضو الكونغرس الأميركي، قائلاً في الكونغرس: (لننظر إلى ما حدث في هيئة الأمم المتحدة إبان اجتماعها الذي سبق التصويت على التقسيم. كان لا بد من تأمين ثلثي الأصوات اللازمة لتصديق القرار. وقد أجل التصويت مرتين، كي يمارس الضغط على مندوبي ثلاث دول صغيرة هي: هاييتي وليبريا والفلبين، التي صوتت بالموافقة، فتم بذلك تأمين أغلبية الثلثين اللازمة. وكانت هذه الدول الثلاث قد عارضت مشروع التقسيم. ولكن الضغوط التي مورست عليها من قبل مندوبينا ومسؤولينا ومواطنينا الأميركيين كانت تصرفاً ذميماً يستوجب العقاب). ومن المعروف آنذاك أن الرئيس ترومان قد مارس ضغطاً لم يسبق له مثيل على أعضاء الدولة الأميركية كي يعملوا على تأمين الأغلبية اللازمة للاقتراع النهائي على التقسيم.

وأما وزير الدفاع آنذاك فورستال فقد أكد (أن الطرق التي استخدمت في الضغط بغية إرغام باقي الدول في هيئة الأمم على التصويت، كانت أقرب ما تكون إلى الفضيحة). وقد اعترف ترومان نفسه أمام فريق من الدبلوماسيين عام 1946 بوقائع الضغط الموجه من اللوبي الصهيوني فقال: (أنا آسف يا سادة ولكن عليَّ أن ألبي رغبة مئات آلاف الأشخاص الذين ينتظرون نجاح الصهيونية، وهذه الألوف المؤلفة من الناخبين الأميركيين ليسوا عرباً) ويشهد رئيس مجلس الوزراء البريطاني السابق (أتلي)

في مذكراته على أن سياسة الولايات المتحدة في فلسطين كانت توجهها أصوات الناخبين اليهود والمعونات المالية التي تقدمها عدة شركات يهودية كبيرة[1].

ومن المعروف أن قرار التقسيم صدر عن هيئة الأمم المتحدة وتبنته الجمعية العمومية، وليس مجلس الأمن، وبهذا الشكل لا يكون القرار ملزماً باعتباره توصية ليس أكثر وليس قراراً تنفيذياً. لقد رفض الفلسطينيون القرار رفضاً قاطعاً، لأنه سلبهم حقوقهم التاريخية والدينية والوطنية. بينما كان الصهاينة يقسمون أدوارهم بحيث يظهر بعضهم القبول ويظهر بعضهم الآخر الرفض. وقد أعلنت آنذاك عصابة الأرغون بقيادة مناحيم بيغن أن هذا التوزيع غير عادل ولن تعترف به أبداً، ولم تَدْعُ الأرغون إلى طرد العرب فحسب، بل دعت إلى الاستيلاء على فلسطين كلها.

وفي ضوء قرار التقسيم الصادر عام 1947 فإن الهيئة أقرت أن القدس يجب أن تكون كياناً مستقلاً، يتبع نظاماً دولياً خاصاً تحت إدارة الأمم المتحدة. وسيؤلف مجلس وصاية يؤدي مهام السلطة الإدارية بالنيابة عن الأمم المتحدة. أما حدود الكيان المستقل فيشمل حدود بلدية القدس في ذلك الحين، إضافة إلى القرى والبلدات المجاورة، أقصاها شرقاً أبو ديس، وجنوباً بيت لحم، وغرباً عين كارم، وشمالاً شعفاط.

وللتذكير فقط فقد أورد برنادوت الوسيط الدولي، تقريراً آنذاك قال فيه: إن مدينة القدس تقع وسط الإقليم العربي، وإن أي محاولة لعزلها سياسياً أو غير ذلك، عن الإقليم العربي المحيط بها تنطوي على صعاب جمة. ولا يعني إدخال القدس ضمن الإقليم العربي، بأي حال، سيطرة العرب على اليهود أو غيرهم من الشعوب غير العربية أصحاب المصالح في تلك المدينة.

ماذا يعني التدويل؟

لقد خدع الكثيرون بمصطلح التدويل. والحقيقة أنه تنظيم إنشائي لكيان دولي جديد، يلبي حاجة المجتمع الدولي للاتفاق أو التراضي، لإخراج منطقة معينة من سيادة الدولة أو الكيان الذي كانت تتبع له من قبل، وإسناد ممارسة السيادة فيه إلى هيئة دولية تدير شؤونها بصفة دائمة.

---

(1) روجيه غارودي ـ فلسطين أرض الرسالات ص 262 ـ 263.

والتدويل الذي يخص القدس حسب ما جاء في القرار يحمل صفة الديمومة. وهو بذلك يختلف عن نظامي الانتداب والوصاية. وهو يتجه إلى فكرة الملك الدولي، لا يجوز حيازته في وقت من الأوقات، وذلك لغرض دولي أو حاجة دولية. ويشرف على هذا الكيان مندوبون من الدول الخمس في مجلس الأمن وأعضاء آخرون منتخبون من الجمعية العامة لمدة ثلاث سنوات. على أية حال فإن هذا القرار لم يطبق ولم تدول القدس. بل إن الكيان الصهيوني أعلنها عاصمة له، ثم قام باحتلال المدينة القديمة منها. واستولى على المسجد الأقصى والأماكن المقدسة وضربت كل القرارات الدولية عرض الحائط، خاصة بعد أن ترجم انحياز البريطانيين والأميركان إلى مساعدة فعلية لليهود ضد العرب والمسلمين. واستخدموا دوماً حق الرفض أو النقض كلما صدر قرار يطالب الصهاينة بالانسحاب من القدس، غير أن كل ذلك كان في اتجاه، وحقيقة القرار كانت في اتجاه آخر.

القرار والأماكن المقدسة:

خص القرار الأماكن المقدسة في القدس ببعض الفقرات فجاء في المادة الأولى: لا يجوز أن يلحق أي مساس بالحقوق القائمة المتعلقة بالأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية.

وجاء في الثانية: تضمن حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية، وحرية ممارسة العبادة، وفقاً للحقوق القائمة، شرط مراعاة حفظ النظام واللياقة.

وجاء في الثالثة: تصان الأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية، ويحرم كل فعل من شأنه أن يسيء، بأي صورة كانت، إلى قداستها، وإن رأى الحاكم في أي وقت ضرورة ترميم مكان مقدس أو بناء موقع ديني ما، فيجوز له أن يدعو الطائفة أو الطوائف المعنية إلى القيام بالترميمات اللازمة، ويجوز له القيام بهذه الترميمات، على حساب الطائفة أو الطوائف المعنية إن لم يتلق جواباً عن طلبه خلال مدة معقولة.

وجاء في الرابعة: لا تجبى أي ضريبة على مكان مقدس، أو مبنى أو موقع ديني كان معفى منها وقت إقامة المدينة (بوضعها الدولي) ولا يلحق أي تعديل في هذه الضريبة يكون من شأنه التمييز بين مالكي الأماكن والأبنية والمواقع الدينية أو

ساكنيها، أو يكون من شأنه وضع هؤلاء المالكين أو الساكنين من أثر الضريبة العام في وضع أقل ملاءمة مما كان عليه حالهم وقت تبني توصيات الجمعية العامة.

أرض فلسطين في المنظور الإسلامي:

منذ أن حررت فلسطين زمن الخليفة عمر، رضي الله عنه، من أيدي الرومان أصبحت إحدى ولايات الدولة الإسلامية. وقد سميت في البداية جند فلسطين. وأخذت مكانة مرموقة زمن الأمويين، حتى كادت أن تكون مدينة القدس أو الرملة عاصمة الدولة الأموية.

ومر العصر العباسي وفلسطين ولاية عربية من الولايات الهامة. وتعاقبت الدول والسلطنات حتى جاء الغزو الصليبي، ولم تستقر الأوضاع، وظلت المنطقة تشهد الحروب مع الصليبيين حتى حررت على يد صلاح الدين سنة 1187م، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى المماليك حتى جاء العثمانيون، وبقيت فلسطين ولاية عربية أو جزءاً من ولاية حتى الحرب العالمية الأولى.

ولو عدنا إلى مبدأ قرار التقسيم لوجدنا أنه يشكل جزءاً من حملة الغرب على أرض المسلمين لتفتيتها وتقسيمها. ولم يبرز مثل هذا المبدأ الغربي إلا بعد ضعف الخلافة الإسلامية والقضاء عليها. وخلال حكم الخلافة الإسلامية منذ صدر الإسلام حتى نهاية الخلافة العثمانية، كان الخليفة والعلماء المرجع في تقرير مصير العلاقات بين المسلمين وغيرهم من الأمم، وبالتحديد الرومان. ولم يكن المسلمون يسمحون لأي كان من غير العرب والمسلمين بالحديث عن وجود غريب في الأرض الإسلامية بغية التملك.

وبالنسبة لفلسطين كان الأمر أكثر حساسية؛ لما لهذه البقعة من قدسية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فعلى مدى قرون الدولة الإسلامية كان المساس بأرض فلسطين من المحرمات، ولم يخطر ببال خليفة أو سلطان أو أمير التنازل عن شبر من أرض فلسطين لأي كان. وقد اعتبرت لدى الخلفاء كافة أرض وقف إسلامي ليس لأحد الحق في ملكيتها، فهي ملك لله ولجميع أبناء الأمة الإسلامية. يحافظون عليها حفاظهم على أنفسهم، ويدافعون عنها وعن قدسيتها في حالتي السلم والحرب.

فقرار التقسيم الذي جاء في توصية الهيئة العمومية يقر باحتلال أرض إسلامية. وهذه الأرض هي فلسطين. ويعني ذلك أن المسلمين بشكل بدهي، مطلوب منهم رفض أي احتلال لبلادهم، والعمل على دفع المعتدي عن الأرض وتحريرها من أيدي المحتلين.

إن قرار التقسيم هجمة صليبية يهودية على ديار المسلمين، وقد غلّفته الصليبية بقرار من هيئة الأمم؛ للإيحاء بأن هناك إجماعاً أو شبه إجماع دولي عليه، ولكنه بالمقابل شبه إجماع صليبي صهيوني على احتلال أرض إسلامية. وماذا يعني المسلمين لو اجتمعت التوجهات الصليبية على احتلال أرض إسلامية سوى إذلال الأمة وغزوها في عقر دارها. وماذا يعنيها ذلك سوى استنفار أبنائها للجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض الإسلامية، التي تعرضت للاحتلال؟ ومتى كان المسلمون يقبلون بقرارات أو توصيات تفرض من أعدائهم على شعوبهم؟ فطبيعة المسلمين العقيدية والفكرية والسياسية تأبى على مر التاريخ الإسلامي، الإقرار بأي توجه يريد فرض تصورات غير إسلامية، على المنطقة وشعوبها. ولعل فرض الولايات المتحدة رؤيتها على أعضاء الجمعية العمومية آنذاك يعني شن الحرب على الإسلام والأمة الإسلامية، فهي تجمع الأمم غير الإسلامية لتقر اقتطاع أرض إسلامية، ومنحها لغير أهلها. ولو أن الأمتين العربية والإسلامية كانتا آنذاك في منعة وقوة وتوحد، لمنعتا مثل هذا القرار بالقوة. لكنهما كانتا ضعيفتين إلى حد الموات مقسمتين تعصف بهما الإقليمية والتخلف والفقر.

فلسطين في المنظور الوضعي وفي المنظور الإسلامي:

فلسطين في منظور قرار التقسيم أرض جغرافية متنازع عليها، وحل إشكالاتها يكون من خلال منظار دنيوي جغرافي. وإن تجاوز هذا المنظور الجغرافيا قليلاً قال بأن فلسطين لها مكانتها الدينية لدى طوائف ثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.

وفلسطين، حسب المنظور الإسلامي، مكان إسلامي تاريخاً وجغرافياً، ومقدس لله، لا يقرر مصيره إلا الله وحده والمسلمون أصحاب الأرض الذين يرتبطون بالمقدس الإلهي ارتباطاً وثيقاً. وفي الواقع فإن المقارنة بين القرارات الدولية والمنظور الإسلامي لفلسطين هو من المحال؛ لأن المنظور الإسلامي مستمد من المنظور القرآني الإلهي، والمنظور الإلهي منزَّه عن تصورات البشر والفلسفات الوضعية.

ولذلك فإن قرارات تصدر عما يسمى هيئة الأمم ومؤسساتها، تظل ضمن دائرة الفلسفة الوضعية البشرية القاصرة. فما بالنا إذا كانت هذه الفلسفة الوضعية من وضع أعداء الأمة الذين يقصدون استمرار الحرب الصليبية على أراضي المسلمين وديارهم؟

وهذا المنظور البشري قابل للتغيير والتبديل، حسب تغير الأمزجة، وتغير الظروف. والغريب في ذلك كله أن الضعفاء من الأمة العربية الإسلامية يظلون يتغنون بقرارات الأمم المتحدة وكأنها قدر إلهي منزل من السماء. وهو في حقيقته انتقاص فاضح لحق المسلمين بفلسطين. بل انتقاص واضح من حق القرآن الكريم على أبناء الأمة.

ماذا يعني قرار التدويل لمدينة القدس:

وباعتبار أن القرار الذي صدر ليقسم فلسطين ويذبحها من الوريد إلى الوريد ليشمل تقسيم القدس أيضاً، فإن هيئة الأمم غلفت قرار تقسيم القدس، بمصطلح التدويل الذي يعني تمهيداً لتقسيم القدس.

فقرار التدويل يعني إلغاء جذور القدس العربية الإسلامية. ويعني إلغاء كونها جزءاً من الدولة العربية الإسلامية على مدى ألف وأربعمائة سنة. ويعني أيضاً سلخها وسلخ علاقتها بالقرآن الكريم، وتحديداً بسورة الإسراء وبالآيات الأخرى، التي وصفت القدس وما حولها بالأرض المباركة. ويعني إلغاء دماء عشرات الألوف من المسلمين، الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم في سبيل تحرير فلسطين من الاحتلال الروماني أولاً، ومن الاحتلال الصليبي ثانياً، ومن الغزوة الصليبية اليهودية ثالثاً. ويعني أيضاً إلغاء الفتح العمري الإسلامي لهذه الأرض العربية المباركة، وإلغاء جهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين والقائد صلاح الدين والظاهر بيبرس ضد الصليبيين الذين احتلوا فلسطين وحاولوا استيطانها واستعمارها. فالتدويل يعني إلغاء كل ما يتعلق بتاريخ الدولة الإسلامية تجاه فلسطين والقدس، من عمارة وأوقاف ومشاريع ومدارس وعلماء وفقهاء.

وإذا نظرنا إلى بنود القرار الذي صدر عام 1947 بشأن الأماكن المقدسة رأينا، وبشكل جلي، الانتقاص الكامل من حق المسلمين، وفتح الباب على مصراعيه لليهود للتحرك نحو الاستيلاء على المقدسات الإسلامية.

فالقرار لا يوضح ما للمسلمين من أماكن مقدسة، وقصد أن يظل غامضاً، من هذه الناحية، لأن اليهود يفسرونه حسب رؤيتهم، وهذا التفسير يقول إن الهيكل الذي اندثر وأقيم عليه المسجد الأقصى يجب أن يعاد بناؤه، حسب نص هذا القرار (الفقرة التي تقول: إن رأى الحاكم في وقت ضرورة ترميم مكان مقدس، أو بناء موقع ديني) وحسب نص القرار فإن حائط البراق يصبح حائط المبكى. ومن حق اليهود ترميمه، أو بناء مكان ديني جديد خاص باليهود بالقرب منه، يكون هذا الحائط جزءاً من البناء الذي قد يكون الهيكل الثالث، وهذا القرار لم يبين حدود الأماكن المقدسة، وما فيها من معالم، كقبة الصخرة، والمسجد الأقصى، والقباب الأخرى، وكذلك ساحة الحرم والمدارس الدينية الملحقة بالحرم القدسي الشريف.

وحسب نص القرار، فإن أراد اليهود بناء مكان ديني جديد، أو أرادوا ترميم ما يسمى حائط المبكى، فإن لهم الحق في أن يرمموا دون الرجوع إلى الحاكم أو الطوائف الأخرى في حالة عدم تلقي جواب عن طلبهم. ومن الطبيعي أن المسلمين يرفضون، بشكل قاطع، أن يقوم اليهود ببناء معبد لهم على أنقاض معبد إسلامي أو رمز معماري إسلامي، أو ترميم جدار هو في الأصل من حقهم وليس من حق اليهود.

إن قراراً مثل هذا القرار ليس من شأنه أن يوضح ما هي الأماكن الإسلامية المقدسة، ولو أن كاتبي القرار كانوا من ذوي النوايا الحسنة والطيبة لأوضحوا بالاسم ما هي الأماكن الإسلامية المقدسة. ولكن دهاة صناع القرار من صليبيين متصهينين يدركون أن هذه التسميات من شأنها أن تلغي كل المزاعم اليهودية من أن الحرم القدسي الشريف قد أقيم على أنقاض الهيكل المزعوم.

والواضح أن ما دفع الولايات المتحدة لأن تجعل هيئة الأمم تصدر قرارها بشأن تقسيم فلسطين وتدويل القدس، هو العداء للمسلمين وأرض العرب والإسلام. فالتاريخ الإسلامي لفلسطين رخيص في نظرهم حتى إنهم تجاهلوه تماماً. فبأي حق يقسمون فلسطين ويدولون القدس؟ فهذا القرار في منظورنا الإسلامي هو تمهيد لجعل فلسطين ـ كياناً يهودياً ـ يطلقون عليه إسرائيل، وتمهيد لجعل القدس منطقة تخضع لليهود والأميركيين وغيرهم من حلفاء صليبيين. وهذا ما حصل فعلاً؛ لأن قرارات

أميركا والدول الصليبية الاستعمارية المساندة والداعمة في مجملها دعم بالقول والفعل لقيام الكيان الصهيوني وتقويته إلى حد يتفوق فيه على العرب والمسلمين.

ماذا يعني أن تشرف أميركا والاستعمار الغربي على صياغة مثل هذا القرار - قرار تقسيم فلسطين وتدويل القدس - أليس هو تمهيداً لقرار الكونغرس الأميركي بعد خمسة وخمسين عاماً، القاضي بالاعتراف بالقدس كلها عاصمة للكيان الصهيوني؟

فالقرار الذي أقره الكونغرس الأميركي وصادق عليه الرئيس بوش بتاريخ 1/ 10/ 2002، حظي بالأغلبية الساحقة لمجلس الكونغرس الأميركي - النواب - الشيوخ - وحين ننظر لهذا القرار، وكيف اتخذ، وكيف صادق عليه بوش على شاشات التلفاز، ندرك للمرة بعد الألف مدى الحقد الصليبي الأميركي على ديار المسلمين. فعندما صادق بوش على القرار قام أعضاء مجلس الشيوخ والنواب ولم يقعدوا وهم يصفقون بحرارة بالغة، وكأنهم كسبوا نصراً مؤزراً على المسلمين وديار الإسلام.

إن ذلك يعني المباشرة بنقل سفارة الولايات المتحدة من تل الربيع إلى مدينة القدس. ويعني فتح الباب أمام دول الغرب كي يعترفوا بالقدس عاصمة للكيان الصهيوني. ويعني ذلك أيضاً إعطاء الضوء الأخضر للكيان الصهيوني، كي يشرع بهدم المسجد الأقصى وتصفية كل الآثار الإسلامية في مدينة القدس. ومن ثم إقامة الهيكل؛ حتى يكون لليهود والأميركيين ومن لف لفهم.

وهنا لابد من وقفة متأنية عند النصوص القرآنية التي توضح موقف المعادين لله ولدينه ونبيه وأمته الإسلامية، والموقف الإسلامي منهم فيما يخص شؤون المسلمين وأراضيهم ومقدساتهم، فقرار تقسيم فلسطين قرار أميركي غربي وليس قراراً إلهياً منزلاً أو قراراً إسلامياً. وبمعنى آخر هو قرار أعداء الأمة الإسلامية.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ آل عمران 73.

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة 57.

واستناداً إلى الشريعة الإسلامية ونصوصها فقد أجمع علماء الأمة على أن الاعتداء على فلسطين واحتلال أرضها اعتداء على الإسلام وأمته وأرضه. وهذا الاعتداء إن كان على جزء من الأرض، أو كلها هو اعتداء صارخ بكل الوجوه. وقرار التقسيم أجاز لليهود ما ليس من حقهم، وهو اعتداء على جزء من الأرض الإسلامية، يستوجب الجهاد بالمال والأنفس حتى يتحرر.

في عام 1987 اجتمع المجمع الفقهي الإسلامي وانعقد في مكة المكرمة في دورته العاشرة في 24 صفر 1408هـ الموافق 17/ 10/ 1987م وجاء فيه: إن المجلس يقرر جواز صرف بعض أموال الزكاة لهذا الجهاد الإسلامي، وينادي المسلمين أن يبادروا خفافاً وثقالاً للاستنفار لتأييد شعب فلسطين في هذا الجهاد وهذه المعركة التي هي معركة الإسلام في هذا العصر، ووصية المجلس للشعب الفلسطيني المؤمن المجاهد أن يتمسكوا بحبل الله المتين، ويواصلوا جهادهم الإسلامي المبارك، لإعلاء كلمة الله، وحماية المسجد الأقصى المبارك، ويعتصموا بالله هو مولاهم، نعم المولى ونعم النصير[1].

وأصدرت دار الإفتاء المصرية فتاوى تحت عنوان "الصلح مع اليهود في فلسطين والمعاهدات مع الدول الاستعمارية المعادية للعرب والمسلمين المؤيدة لليهود في عدوانهم ما نصه:

المبادئ:

1 ـ هجوم العدو على بلد إسلامي يوجب على أهلها الجهاد ضده بالقوة وهو في هذه الحالة فرض عين.

2 ـ يتعين الجهاد في ثلاثة أحوال: عند التقاء الزحفين أو عند نزول الكفار ببلد، وعند استنفار الإمام القوم للجهاد، حيث يلزمهم النفير.

3 ـ الاستعداد للحروب الدفاعية واجب على كل حكومة إسلامية.

---

(1) سيد عبد العظيم: تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد ص 207 ـ 208.

4 ـ ما فعله اليهود بفلسطين، اعتداء على بلد إسلامي، يوجب على أهله أولاً، رده بالقوة كما يوجبه ذلك ثانياً، على كل مسلم في البلاد الإسلامية.

5 ـ الصلح مع اليهود على أساس رد ما اعتُدي عليه إلى المسلمين جائز، أما إن كان على أساس تثبيت الاعتداء فهو باطل شرعاً.

وقد أجابت الفتوى بقولها: إن اليهود اقتطعوا جزءاً من أرض فلسطين، وأقاموا فيه حكومة لهم، غير إسلامية، وأجلوا عن هذا الجزء أكثر أهله من المسلمين.

وأما ما يجب على المسلمين في حالة العدوان على أي بلد إسلامي فلا خلاف بين المسلمين في أن جهاد العدو بالقوة في هذه الحالة فرض عين على أهلها، وإن كان الصلح مع العدو على إقرار الاعتداء وتثبيته، فإنه يكون صلحاً باطلاً لأنه إقرار لاعتداء باطل وما يترتب على الباطل، هو باطل مثله.

وصدرت هذه الفتوى عام 1956 م أي قبل أن يحتل الجيش الصهيوني القدس كاملة والضفة الغربية وقطاع غزة.

وبعد احتلال القدس ووقوع المسجد الأقصى تحت نير الاحتلال، نظر علماء المسلمين للمسألة بمنظار أكثر دقة وأكثر تصلباً، لأن احتلال القدس بما فيها المسجد الأقصى يعتبر جريمة نكراء بحق المقدسات الإسلامية منذ مطلع البشرية حتى الآن.

من هذه الفتاوى فتوى أصدرها الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في بداية عام 2001 جاء فيها: مما ثبت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة أن الجهاد لتحرير أرض الإسلام ممن يغزوها ويحتلها من أعداء الإسلام، واجب محتم، وفريضة مقدسة، على أهل البلاد المغزوة أولاً ثم على المسلمين من حولهم، إذا عجزوا عن مقاومتهم، حتى يشمل المسلمين كافة. فكيف إذا كانت هذه الأرض الإسلامية المغزوة هي القبلة الأولى للمسلمين، وأرض الإسراء والمعراج وبلد المسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله؟ وكيف إذا كان غزاتها هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؟ وكيف إذا كانت تساندها أقوى دولة في الأرض اليوم، وهي الولايات المتحدة الأميركية، كما يساندها اليهود من أنحاء العالم، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الحرمات، ودمروا البيوت، وأحرقوا المزارع، وعاثوا في

الأرض فساداً؟. هذا الجهاد هو فريضة الفرائض، وأول الواجبات على الأمة الإسلامية في الشرق والغرب[1].

وقد سمعنا أكثر العلماء المسلمين يفتون بوجوب الجهاد على أنه فرض عين، خاصة بعد أن أقدم رئيس وزراء العدو شارون، على تدنيس ساحة الحرم القدسي الشريف.

وباعتبار أن قرار التقسيم يقر باحتلال أرض إسلامية فإن العلماء المسلمين ألحقوا فتاويهم بفتاوى أخرى، تحرم الصلح مع اليهود لأنهم يحتلون هذه الأرض الإسلامية. وقد أقر العلماء في الأزهر برئاسة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية أن الصلح مع اليهود حرام، لأنهم يحتلون القدس وأرضاً إسلامية. تقول الفتوى:

إن الصلح مع «إسرائيل» كما يريده الداعون إليه، لا يجوز شرعاً، لما فيه من إقرار الغصب على الاستمرار في اغتصابه، والاعتراف بحقية يده على ما اغتصبه، وتمكين المعتدي من البقاء على عدوانه. وقد أجمعت الشرائع السماوية والوضعية على حرمة الغصب ووجوب رد المغصوب إلى أهله، وحث صاحب الحق على الدفاع والمطالبة بحقه. فلا يجوز للمسلمين أن يصالحوا هؤلاء اليهود الذين اغتصبوا أرض فلسطين، واعتدوا فيها على أهلها وعلى أموالهم، على أي وجه يمكّن اليهود من البقاء كدولة في أرض هذه البلاد الإسلامية المقدسة. بل يجب عليهم أن يتعاونوا جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم، لرد هذه البلاد إلى أهلها، وصيانة المسجد الأقصى مهبط الوحي، ومصلى الأنبياء الذي بارك الله حوله، وصيانة الآثار والمشاهد الإسلامية، من أيدي هؤلاء الغاصبين.

أما الشيخ المجتهد محمد الحسين كاشف الغطاء إمام الجعفرية في النجف، فقد أفتى حول الصلح مع اليهود وحول الجهاد في سبيل الله لتحرير فلسطين والأقصى، وجاء في فتواه:

(من واجب المسلمين جميعاً في سائر الأقطار، أن يقاطعوا اليهود ومن يحميهم ويساعدهم، ومن يشترِ من اليهود أو يبعْهم، أو يروجْ صنائعهم أو يلبسْ منتوجاتهم، أو يأكلْ من حاصلاتهم، أو يعاملهم بأي معاملة تجارية، أو غيرها فقد حارب الله

---

(1) جريدة المجد الأردنية 2/ 1/ 2001.

ورسوله، وباء بغضب من الله ورسوله)، وقد خان الحق، وطعن في قلب العرب والإسلام، بل خرج من دين الإسلام لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة 51.

وقد أصدرت لجنة الإفتاء في الأزهر فتوى تحرم بيع أراضي فلسطين لليهود، ووجوب مقاطعتهم، وعدم التعامل معهم، وأن كل من يستبيح بيع الأراضي بفلسطين لليهود أو للتعامل معهم بالشراء من متاجرهم أو ترويج بضاعتهم ومنتوجاتهم يكون مرتداً، عن الدين خارجاً عن زمرة المسلمين.

وجاء في الفتوى: تفيد اللجنة بأن من أعظم الجرائم إثماً، وأشد المنكرات مقتاً عند الله أن يتخذ المسلم له أولياء من أعداء دينه، المناوئين له، المعتدين على أهله، أو يمكن لهم بفعله من إيذاء المسلمين، في دينهم والاحتيال على سلب أموالهم وتجريدهم من أرضهم وديارهم، واتخاذ ذلك وسيلة إلى إضعاف أمرهم، وكسر شوكتهم وإزالة دولتهم، وإقامة دولة غير إسلامية، تتسلط عليهم بالحيلة والقهر، ونشر سلطانها. وقد شدد الله النكير على من يتولون أعداء الدين أو يتخذون لهم بطانة من غير المؤمنين[1].

وقد أصدر العلماء المختصون بشؤون الإفتاء والشريعة الإسلامية في الأردن فتوى بتاريخ 19/ 8/ 1999م جاء فيها:

(إن بيع الأملاك المنقولة في الأردن أو تأجيرها لليهود محرم شرعاً، وحذرت من العملاء والسماسرة، الذين يعملون على تسهيل بيع أراضي المسلمين، للمحتلين الغاصبين، الذين ينتهكون ويدنسون مقدسات المسلمين، ويرتكبون المجازر في بيوت الله، ويمنعون المسلمين حتى من أداء الصلاة في المساجد، ويخططون لتدمير المسجد الأقصى، بعد أن نجحوا في تحويل الجزء الأكبر من الحرم الإبراهيمي إلى كنيس يهودي. وأشارت الفتوى إلى أن احتلال فلسطين، بدأ بفتح باب بيع الأراضي لليهود على أيدي السماسرة الذين ليسوا من أهل فلسطين، ما مكن اليهود من إقامة دولة غير شرعية على أرض فلسطين «نشرت الفتوى في صحيفة المجد الأردنية بـ 20/ 8/ 1999م».

---

(1) مختصر فتاوى دار الإفتاء المصرية صفحة 382 تحت عنوان الصلح مع اليهود.

الفصل الخامس
القدس في التراث الإسلامي

أدرك المسلمون أهمية بيت المقدس بالنسبة للعقيدة الإسلامية. فقد ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم وآياته. فعرفوا من خلال مقدمة سورة الإسراء أهمية الربط الإلهي بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وأدركوا أن المسجد الأقصى لا يقل أهمية عن المسجد الحرام؛ فكلاهما مكانان خصهما الله بالقداسة والمباركة، وأدركوا أنهم أحق الناس بحمايتهما من الشرك والوثنية والحقد اليهودي الكبير.

وكانت البدايات أن ذلك التحرك الإسلامي زمن رسول الله ﷺ باتجاه الشمال العربي. ينطلق من الجزيرة ليستكمل دائرة التوحيد بتحرير الأقصى وبلاد الشام ونشر الدعوة الإسلامية في آفاق الدنيا.

توجهت جحافل المحررين نحو الشام ونحو العراق. وبدون تحرير الأقصى ليست هناك أراض أحق بالتحرير. فأول الأمر كان على ديانة التوحيد أن تستكمل الدائرة القدسية ثم تنطلق داعية إلى عبادة الله الواحد في فارس وأقطار العالم القديم.

بدأ التوجه نحو بيت المقدس حينما بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى هرقل ملك الروم، وكان آنذاك في بيت المقدس يحتفل بالنصر على الفرس عام 628 ميلادي، الذي يوافق تماماً أواخر السنة السادسة أو أوائل السنة السابعة للهجرة لأن الهجرة النبوية كانت في 23 أيلول 622م واحتفال هرقل كان في 14 أيلول سنة 628 ميلادي. روى البخاري في كتاب بدء الوحي باب 6 أن رسول الله ﷺ كتب إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام بعد العودة من الحديبية.

ويرى المؤرخون أن الكتاب أرسل في محرم من بداية السنة السابعة للهجرة، وكان أبو سفيان بن حرب قد خرج إلى الشام في تجارة في مدة هدنة الحديبية فصادف وجوده وصول كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، وكان هرقل يومها في القدس إيلياء فطلب هرقل من شرطته أن يبحثوا في الشام عن رجل من قوم النبي ليسأله عن شأنه، فوجدوا أبا سفيان في غزة هاشم حرسها الله، فأتوا به إلى هرقل وسأله عن صفات محمد بن عبد الله، وكان أبو سفيان يومها مشركاً فأجابه بما وقر في قلبه من صفات النبي ﷺ.

وقد جاء في الروايات والحديث الصحيح الذي رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ج/ 5 قال هرقل لأبي سفيان: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أظن أنه منكم.

ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند هذه الأحداث لنرى كيف تسارعت الأيام وكيف لعبت الأطراف في المنطقة دورها.

فالفرس انتصروا على الروم واستولوا على بلاد الشام ومن بينها القدس. وقد فرح اليهود بذلك وأعانوا الفرس عوناً كبيراً، وأخذوا يجرون المذابح بالمسيحيين الذين هم في القدس وفلسطين. ولم يلبث الروم أن انتصروا على الفرس تارة أخرى، أما هرقل فتقول الروايات إن القادة الرومان ضغطوا عليه كثيراً بسبب ميله إلى الدين الجديد. وهذا الضغط أدى بالتالي إلى رفض الشروط الإسلامية الجزية أو الدخول في الإسلام أو الحرب، وقَبِل أن يحارب المسلمين على مضض وكانت نتيجة حربه الخسارة والخروج نهائياً من الأرض العربية.

أما عن التحرك العسكري الإسلامي نحو بيت المقدس، فكما قلنا بدأت الأنظار تتجه إلى تحرير الأقصى منذ حادثة الإسراء والمعراج، وبعد أن عرف المسلمون معنى ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى في آية قرآنية واحدة.

ومنذ السنة الخامسة للهجرة بدأ رسول الله ﷺ يبعث السرايا على الطريق بين المدينة وبلاد الشام. ففي السنة الخامسة كانت غزوة دومة الجندل وهي على بعد 450 ك م شمال

تيماء، وفي السنة السادسة بعث النبيﷺ بعثمان بن عفان على رأس سرية مرة أخرى إلى دومة الجندل، وفي السنة السابعة كانت غزوة خيبر لأن يهودها كانوا يهددون الطريق إلى الشام، وفي السنة الثامنة كانت سرية كعب الغفاري إلى ذات أطلاح من ناحية الشام وهي في منطقة وادي عربة، وفي السنة الثامنة نفسها كانت غزوة ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص، وفي نفس السنة كانت سرية زيد بن حارثة إلى حدود فلسطين، ثم جاءت غزوة مؤته وتبوك، وفي السنة الحادية عشرة كانت سرية أسامة بن زيد وأمره الرسول ﷺ أن يصل إلى دير البلح في جنوب فلسطين، لكن الغزوة توقفت فترة بسبب وفاة الرسول ﷺ ثم تابعت مسيرها بمجيء الخليفة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

وبدءاً من السنة الثانية عشرة بدأت الجيوش الإسلامية تزحف نحو الشام بأمر من الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فعقد لواءً لخالد بن سعيد ثم أتبعه بلواء ليزيد بن أبي سفيان، ثم بلواء لشرحبيل بن حسنة، ثم بجيش على رأسه أبو عبيدة عامر بن الجراح، وخرج عمرو بن العاص. وقد اتجه كل جيش في طريق مختلف. ثم أمر الخليفة خالد بن الوليد بالتوجه إلى الشام وترك الجبهة الفارسية.

وبدأ الصراع المسلح بين المسلمين والروم في عدة معارك؛ بدءاً من معركة دافن شرقي دير البلح، ثم معركة أجنادين قرب الخليل، ثم معركة فحل زمن الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه، ثم معركة اليرموك الحاسمة، وكانت نهاية الرومان أو بداية النهاية لوجودهم في بلاد الشام.

أتم عمرو بن العاص تحرير فلسطين وبقيت قيسارية؛ كونها تستمد العون والمدد من البحر، وحاصر القدس بعد أن تحصن أهلها داخل الأسوار، واستمر الحصار أربعة أشهر، فطلبوا من أبي عبيدة الذي جاء مسانداً لعمرو بن العاص الصلح مثل باقي مدن الشام، وأن يحضر الخليفة نفسه لتوقيع المعاهدة والصلح. وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة بذلك، وبعد مشاورة الصحابة ذهب الخليفة عمر إلى بيت المقدس على راحلة دون حرس أو جنود مرافقين.

وقد اجتمع الخليفة مع قادة المسلمين في الشام في مكان يدعى الجابية. وتقول المصادر إن وفداً من أهل القدس جاء الخليفة وهو في الجابية، ثم لبى الخليفة طلب أهل القدس وكتب العهدة العمرية لأهل بيت المقدس.

وقد جاء فيها: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص).

فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (كذا) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنهم لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد. وعمرو بن العاص. وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

والواقع أن أهل القدس هم الذين طلبوا من الخليفة عدم سكن اليهود معهم في المدينة؛ وذلك بسبب ما عانوه من قتل وذبح من قبل اليهود أيام الغزو الفارسي.

وتوضح العهدة أن الروم مستعمرون وعليهم الخروج من القدس مثلهم مثل اليهود واللصوص كما ورد فيها، وأن أهل البلاد الفلسطينيين هم من تنصروا وحفظوا المسيحية حفظاً هم أحق به؛ لأن المسيح عليه السلام منهم وليس رومانياً.

ويذكر شهود عيان أن العهدة العمرية لا تزال موجودة ومحفوظة في كنيسة الروم الأرثوذكس (كنيسة القيامة) إلى يومنا هذا.

وعندما دخل عمر، رضي الله عنه، القدس خطب في أهلها مستهلاً خطبته: يا أهل إيلياء لكم مالنا وعلينا ما عليكم. وقد دعاه بطريرك القدس صفرونيوس لتفقد كنيسة القيامة فلبى الدعوة وأدركته الصلاة وهو فيها، فالتفت إلى البطريرك وقال له: أين أصلي؟ فقال: مكانك فصل، فقال: ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة فيأتي المسلمون من بعدي ويقولون هنا صلى عمر ويبنون عليه مسجداً. وابتعد عنها رمية حجر ففرش عباءته وصلى، وجاء المسلمون من بعده وبنوا على مصلاه مسجداً، ثم سأل عمر البطريرك عن موضع المسجد الأقصى فدله. فوجده مغموراً بالقمامة ففرش عمر عباءته وأخذ يزيح بها القمامة من مكان المسجد الأقصى ويلقيها في الأودية واقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند حتى طهروه تطهيراً ثم بنى عليه مسجداً.

يستدل من ذلك أن هناك مكاناً يدعى المسجد الأقصى، وكان يعرفه أهل البلاد؛ كونه مكاناً للسجود يؤمه المؤمنون، ولكنه أهمل بسبب وجود كنيسة القيامة التي أصبحت أهم مكان للعبادة بالنسبة للعقيدة المسيحية. ومعلوم أن هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين الذي تنصر في القرن الثالث الميلادي هي التي بنت كنيسة القيامة.

بمعنى أن المسجد الأقصى كان المعبد الأهم بالنسبة للمسيحية الأولى حيث كان السيد المسيح عليه السلام يتعبد فيه قبل أن يدخل الرومان المسيحية بثلاثة قرون؛ أي قبل بناء كنيسة القيامة بكثير.

والواقع أن أحداً من المؤرخين العرب الأوائل مثل الطبري والبلاذري لا يحدثنا عن بناء مسجد في القدس عند تسليمها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، عام 637، على الرغم من أقوال المؤرخين المسيحيين مثل: ثيوفانيس وإلياس النصيبي وميخائيل السوري، تذكر بناء المسجد والتفاصيل الأسطورية المرافقة. ولكن ليس هناك شك في أن بناءً بدائياً شيد في هذا الوقت لأن (أركوف) الذي قدم حاجاً إلى

بيت المقدس حوالي 670م يقدم لنا وصفاً له فيقول: (ولكن في ذلك المكان المشهور حيث كان المعبد قائماً بروعته. وهو واقع في جوار الجدار من جهة الشرق يتردد المسلمون على مسجد رباعي الشكل بنوه بصورة بدائية، بوضع العوارض الكبيرة على بقايا الآثار ويقال إن هذا المكان يتسع لثلاثة آلاف رجل دفعة واحدة ويمكن أن يسمى هذا المسجد بالمسجد الأقصى الأول)[1].

وقد جدد عبد الملك بن مروان المسجد الأقصى الثاني، ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين، ونقش اسمه على القبة من تاريخ البناء سنة 2هـ. وقد بنى عبد الملك هذا المسجد فوق المسجد الأول، ثم أكمل بناءه ابنه الوليد بن عبد الملك.

في عام 141هـ زار الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مدينة القدس. وقد أمر أن يؤخذ من طول المسجد الأقصى ويزاد في عرضه. وبعد أن جاء المهدي أمر بإعادة بناء المسجد بعد أن وقع، وبني هذه المرة بشكل جيد. وفي أواخر سنة 216هـ زار الخليفة المأمون العباسي المسجد الأقصى وهو في طريقه إلى مصر، وأمر بترميم ما يحتاج إلى إصلاح من منشأته. وكانت قد حصلت بعض الزلازل بعد إصلاح المهدي، فأمر المأمون بتوزيع بنائه على أمراء الأطراف وسائر القواد، وقام بالبناء قائده عبد الله بن طاهر بعد سنة 210هـ. وقد قام عدد من الخلفاء العباسيين بزيارة المسجد الأقصى.

وخضعت القدس للحكم الفاطمي سنة 359. وفي عام 407هـ سقطت القبة العظيمة التي على صخرة بيت المقدس ثم أعيد بناؤها في عهد الظاهر علي أبو الحسن. وفي سنة 425 خرب المسجد الأقصى خراباً كبيراً بسبب زلزال فعمره الخليفة الفاطمي الظاهر وضيّقه من الشرق والغرب. وقد ملك القدس أميران من السلاجقة، ولكن الفاطميين حاربوهما واستولوا على القدس حتى جاءت الحملة الصليبية الأولى فانسحب افتخار الدولة الفاطمي مؤمناً على روحه وغادرها إلى مصر، وترك مصير 70 ألف من المسلمين يقتلون ذبحاً في القدس من قِبَل الفرنجة. وبعد أن استتب الوضع

---

(1) الآثار الإسلامية الأولى صفحة 34 كريزويل.

لصلاح الدين استطاع تحرير بيت المقدس وتخليص الأرض المباركة من أيدي الصليبيين كما تقدم.

بدأ الزحف الصليبي على القدس في نيسان 1099 بقيادة ريمون سان جيل وتانكريد وكورتهوز ثم لحق بهم غودفروا بويون أحد قادتهم ووصل الصليبيون في السابع من حزيران إلى تل يطل على مدينة القدس. وبدأ الحصار عسيراً وتوقعته الحامية منذ تاريخ مديد، وأمنت التموين لزمن طويل، بينما كان الصليبيون يبحثون عن الماء. ولكن الصليبيين بدأوا الهجوم الأول في 13 حزيران وأخفق إخفاقاً ذريعاً. وبعد هذه التجربة المرة اتخذ الزعماء الصليبيون حيطتهم وقاموا بأعمال كبرى. وفي ليل 13 - 14 تموز 1099 أعطي الأمر بالهجوم العام على القدس ودام طوال نهار 14 تحت سيل السهام والقذائف المحرقة، وفي 15 تموز نفذ قسم من الصليبيين إلى المدينة ثم هوجمت من عدة جهات، ودخلوا القدس وأجروا فيها مذبحة مروعة، وقتل من المسلمين ما يقارب سبعين ألفاً، منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف[1]. وقد نهب الإفرنج كل محتويات المسجد الأقصى من قناديل فضة وتحف، وكانت بالمئات، وحولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة، وحوّلوا كثيراً من المدارس الإسلامية الفقهية وغيرها إلى مرابط خيول وحانات وأمكنة لنوم الجنود ومخازن. لقد كانت كنيسة القيامة قائمة يتعبد بها المسيحيون العرب، ولم تمس بسوء طوال عهد الأمويين والعباسيين، لكن الصليبيين الذين أتوا مستعمرين للأرض العربية طامعين بخيراتها لم يفهموا بعد الحس الديني، ولا إنسانية الدين، فبمجرد دخولهم القدس حولوا المسجد الأقصى كما قلنا إلى كنيسة وإلى أماكن تستخدم لشؤون جنودهم وخيولهم، وقد أبدى العرب الذين كانوا يدافعون عن المسجد الأقصى والآخرون الذين استحكموا في برج داود الواقع في القسم الغربي من مدينة القدس، مقاومة بالغة الشجاعة والجرأة في وجه الغزاة، وفي

---

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 224 - مجلد 10.

آخر المطاف سلم افتخار الدولة الفاطمي المدينة للصليبيين بشرط أن يتوجه بحراً إلى مصر، وقد تم ذلك. وبعدما تجمع المسلمون في المسجد الأقصى ذبح الصليبيّون ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص.

وتشير بعض المصادر إلى أن اليهود الذين سكنوا القدس وقدموا إليها تسرباً زمن الأمويين والعباسيين كانوا أيضاً ضحية الغزو الصليبي الغربي، وقد اجتمعوا كلهم في كنيس كبير وفيه أبادهم الصليبيون عن بكرة أبيهم، وقد أحرق الصليبيون مبنى الكنيس بمن بحث عن ملجأ فيه.

وقد أنشأ رجال الكنيسة خاصة خمس أبرشيات وتسع أسقفيات وأديرة عديدة، ونالت الكنيسة مكافأة على مساهمتها القوية في الحروب الصليبية. وقد انتقلت إلى الأحبار الكاثوليك الأملاك التي كانت تخص من قَبْلُ رجال الدين المسلمين، وكذلك جزئياً الأملاك التي كانت تخص الكنائس المسيحية بما فيها كنيسة الروم الأرثوذكس.

وفي المسجد الأقصى من الداخل بني قصر للفرسان الهيكليين الصليبيين. وقد حوله الملك بُدوان الأول إلى مكان للسكن، أمّا المبنى المجاور المتجه بواجهته صوب الجانب الجنوبي من المسجد الأقصى فقد كان أيضاً من جامع قبة الصخرة، وقد حوله الصليبيون إلى كنيسة سموها هيكل السيد، وخصصها ملك القدس وبطريرك القدس للهيكليين. وهذا ما يدل على أن المسجد الأقصى عبارة عن مبنى ضخم كبير يعتمد على 280 عموداً ضخماً وكان المعاصرون يشبهونه بجامع قرطبة الكبير، وقد تعرض المسجد الأقصى لتدميرات شديدة.

إن الغزاة الغربيين الجهلاء والأميين كانوا في هذه الحالة على خلاف مع الجغرافيا التاريخية الكنسية، وكانوا يؤمنون بالخرافات التي يبتدعها خيالهم الديني بالذات. أما في الواقع فإن هيكل سليمان القديم الذي محاه الرومان عن وجه الأرض في السبعينيات من القرن الأول الميلادي أثناء الحرب اليهودية كان يقع أبعد قليلاً إلى الشمال، وفيما بعد بنيت هنا هياكل أخرى، ففي القرن الثاني بنى الإمبراطور

الروماني هيكل جوبتر الكابيتولي، وفيما بعد في القرن الرابع حوّل الإمبراطور قسطنطين بعد اعتناقه المسيحية هذا الهيكل الوثني إلى كنيسة مسيحية، وبعد أن فتح العرب فلسطين سنة 637 أعيد بناء هيكل السيد[1].

دام استيلاء الصليبين على المسجد الأقصى ومدينة القدس حوالي مئة سنة إلى أن برز دور جديد، دور للمسلمين بدأه عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي، ونجحت جهودهم في توحيد القوى العربية والإسلامية خاصة أيام صلاح الدين، حين استطاع توحيد مصر والشام ومناطق الجزيرة الفراتية، وراح يضرب الصليبيين في معركة إثر معركة حتى استطاع أخيراً أن يحشد جيشاً قوياً قرب طبريا، وهناك حاصر الصليبيين في تل حطين، وبدأت معركة فاصلة بين الطرفين واستطاع العرب المسلمون كسب المعركة، ولم يبق أمامهم سوى القدس.

مهد صلاح الدين لاسترجاع القدس بتحرير مدن الساحل الشامي وقطع الإمدادات عن الصليبيين في القدس، ثم توجهت جيوش المسلمين وحاصرت القدس، حتى استسلمت وأُخرج الصليبيون منها.

يقول ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ: لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم، وكان قد أرسل إلى مصر الأسطول الذي بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويُمْن النقيبة فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا مركباً غنموه وشانياً أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سرّه من تلك الناحية سار من عسقلان إلى بيت المقدس، وكان فيها البطريرك الأعظم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم، وفيه باليان بن بيرزان صاحب الرملة أيضاً، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وفيه أيضاً من خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك البلاد: عسقلان وغيرها.

---

(1) ميخائيل زوبوروف. الصليبيون في الشرق. دار التقدم ص 160 ـ 161.

ويتابع ابن الأثير: وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه في غاية الحصانة، والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من وجهة الشمال نحو باب عمود، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من ا لغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها.

ثم يقول: ووصل المسلمون الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور فنقبوه.. فلما رأى الفرنج شدة القتال وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك، وتمكَّنَ النقابون من النقب، وأنهم أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم بيت المقدس إلى صلاح الدين. فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها.

وبعد مباحثات مطولة استقر الأمر على الصلح وخاصة أن صلاح الدين خشي أن يعمد الصليبيون إلى قتل الأسرى المسلمين المأسورين داخل القدس، وكان عددهم سبعة آلاف شخص.

وسُلِّمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها. وأول عمل قام به صلاح الدين إزالة الأوساخ المتراكمة عن الصخرة المشرفة، وجاء في كتب التاريخ أنه بدأ نفسه بتنظيفها، وتبعه بقية القادة والجنود، ثم غُسِلت الصخرة وعُطِّرت. وقد شارك بنفسه في نقل الأحجار من المقالع. قال مجير الدين الحنبلي: (وكان يحمل على قربوس سرجه ويخرج الناس لموافقته على حمل الحجر إلى موضع البناء، ويتولى ذلك بنفسه وبجماعة خواص الأمراء، ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء وحواشي العساكر وعوام الناس، فبني (السور) في أقرب مدة ما يتعذر بناؤه في سنين).

وقد حاول الفرنج استعادة بيت المقدس للاستعمار الصليبي عندما قدم ملوك أوروبا وعلى رأسهم ريتشارد ملك بريطانيا وملك فرنسا. لكنهم فشلوا وخسروا معركة فاصلة مع صلاح الدين، وبعد وفاة صلاح الدين ظل أبناؤه يتولونها ويقيمون فيها المدارس الفقهية. وعندما تسلم الكامل ولايتها عقد اتفاقاً مع ملك الفرنجة على أن يسلمه إياها فتسلمها لمدة، ثم استردها الملك الناصر داود ابن أخي الكامل.. وقد بلغ عدد السنين التي دخلت القدس فيها تحت سيطرة الفرنجة99 سنة. ثم دخلت القدس في حوزة المماليك في سنة 650هـ - 1253 إفرنجي. وقد اهتموا بها فأقاموا المدارس وأجروا تعميرات على قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وغدت القدس في زمن المماليك مركزاً من أهم المراكز العلمية ثم جاء حكم الترك للبلاد العربية ليستمر أربعة قرون، وخلالها بدأ التسرب اليهودي إلى فلسطين من جديد حتى سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى. ودخول الإنجليز إلى البلاد العربية ووضعها تحت الانتداب.

الخاتمة

وتبقى القدس مركز الصراع الكوني القادم، الصراع بين قوى الظلام والصهيونية، وقوى الحق والنور، قوى العروبة والإسلام والإنسانية.

لم تشهد مدينة في العالم العربي والإسلامي ما شهدته القدس عبر التاريخ. فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف عام والقدس تتعرض للغزو وتتصدى للغزاة. تسيل الدماء وتهدم الأسوار ويهجّر الإنسان. وفي كل غزوة تتحطم الجيوش في القدس وحول القدس. ويظل الصراع دموياً محتدماً ما وجد غزاة طامعون.

والصهيونية ومنذ حركاتها الأولى في منتصف القرن التاسع عشر، ومروراً بالحركة الصهيونية السياسية المنظمة بعد مؤتمر بال 1897 شكلت للعالم الغربي الصليبي رأس حربة موجهة للأمة العربية والإسلامية، واندمجت الرؤية الصهيونية بالرؤية الغربية، وشكلت تحالفاً استعمارياً لا تنفك عراه، كلاهما نبتتا من منبت واحد. وكلاهما تتبنيان فلسفة واحدة وتوجهاً أيديولوجياً واحداً. وعندما زرع الاستعمار الكيان الصهيوني كان يدرك أن الأمة العربية لابد يوماً أن تنهض، وأن الأمة الإسلامية لابد يوماً أن تصحو، لذلك يجب أن يكون هناك في قلب الأمة العربية وقلب أرضها كيان ذو عقيدة مختلفة مناقضة، وذو أفكار مختلفة، وذو توجُّه مختلف، ليشق الأمة وأرضها، ويشغلها عن التقدم الحضاري والوحدة العربية والإسلامية التي ينشدها كل عربي وكل مسلم.

والقدس التي هي رمز أساسي من رموز وحدة الأمة وتاريخها وحضارتها يجب أن تكون في أيدي الصهيونية حسب المنظور الغربي الصهيوني المتحالف؛ لتطعن الأمة في القلب والصميم، ولتشق الأمة شقاً قاسياً.

على مدى التاريخ كانت القدس نقطة الوسط بين المشرق العربي ومغربه، وكانت نقطة التحول التاريخي للأمة. في فلسطين اندحر الاستعمار الروماني البغيض، وفيها انكسر الغزاة الإفرنج إلى غير رجعة، وعلى بطاحها انطحن المغول والتتار. لقد كانت مركز السلام الكوني ومركز الصراع الكوني، وستبقى كذلك؛ لأنها المقدسة الوحيدة التي تئن لها الجراح العربية والإسلامية، ولأنها الوحيدة التي كلما تذكرها العربي والمسلم كاد يسقط مقهوراً حزناً وألماً لحالها الذي هي عليه.

لقد ضحت الأمة من أجل القدس بأبنائها وأموالها. دافعت عن الأقصى بالصدور، بالحجارة، بالعصي وبكل سلاح. والصدامات الدموية تتجدد يوماً بعد يوم إلى ما شاء الله.

في شهر آب عام 1929 خرج عشرات الآلاف من المسلمين العرب متصدين للصهاينة الذين أرادوا الاستيلاء على حائط البراق. 123 يهودياً يُقْتَلون، 91 من العرب يستشهدون، 339 يهودياً يجرحون، و 181 من العرب يصابون.

وشملت الثورة القدس ونابلس والخليل. وينحاز الاستعمار البريطاني البغيض إلى جانب الصهاينة، فيعتقل المئات من العرب، وينفذ حكم الإعدام بعطا الزير، وفؤاد حجازي، ومحمد جمجوم، ويُعذَب آخرون. قوات بريطانيا لم تستطع أن توقف المد الجهادي، فاستعانت بقوات إضافية من مصر، وجاءتها على وجه السرعة لتنفذ سياستها الرامية إلى قمع العرب وقتلهم. ومن أجل القدس جاءها العرب والمسلمون عام 1931، وعقدوا مؤتمراً عظيماً حضره المسلمون من باكستان والهند وإيران وتركيا. حضره محمد إقبال الفيلسوف الإسلامي المعروف، ومحمد حسين آل كاشف الغطاء، كبير مجتهدي الشيعة، وقد أمَّ المسلمين جميعاً في المسجد الأقصى، ومحمد رشيد رضا، وضياء طباطبائي رئيس وزراء إيران آنذاك، وعبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي، والزعيم شوكت علي الهندي، وحضره شكري القوتلي، ومحمد علي علوبة، وسعيد الجزائري ورياض الصلح، وغيرهم كثيرون،

حتى بلغ عددهم 145 عضواً، وراح المد الجهادي يشتعل من أجل القدس وفلسطين. قامت الثورة الكبرى عام 1935 حتى عام 1939، استشهد فيها القسام البطل العربي المجاهد، وقضى فيها الكثيرون شهداء في سبيلها وسبيل الحق، ومن أجلها قام إضراب الشهور الستة. . واستشهد عبد القادر الحسيني وكذا المجاهدون الذين جادوا بأرواحهم في سبيل تراب القدس المقدس.

ولأن القدس مركز الصراع كانت المؤامرة على فلسطين دولية الطابع. وكان الغدر البريطاني سافراً، وكانت اللاأخلاقية اليهودية في أوْجِها. وكانت النظرة العربية السياسية متخلفة جاهلة، وكانت الخلافات العربية على أشدها، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المعركة ضد الصهاينة معركة عربية، وكانت البطولات عربية.

ومن أجل القدس ظل الشعب العربي يقدم التضحيات تلو التضحيات.

منذ عام 1948 عام النكبة احتل الصهاينة الجهات الغربية من القدس وراحوا يقيمون أحدث المستوطنات وأوسعها. وظلوا يعملون حسب منظورهم حتى أتت حرب 1967، فكانت النكسة، ووقعت القدس أسيرة حزينة بيد قوات الصهيونية الغازية. كان احتلال القدس بالنسبة للغرب الصليبي بلسماً شافياً؛ لأن سقوطها يعني انتصار الصليبية من جديد. فالجنرال اللنبي يدخل القدس ويعلنها على الملأ. . ها قد عدنا. . والجنرال غورو يدخل دمشق ويقف بجانب قبر صلاح الدين، محرر القدس من الصليبيين ويقول ها قد عدنا يا صلاح الدين.

سقوط القدس يعني بالنسبة للصهيونية غير اليهودية تحقيقاً لنبوءات العهد القديم وللصهيونية اليهودية يعني عودة الهجمة العبرانية من جديد، وانتصار يوشع على أهل فلسطين. تسقط القدس، ويعم الحزن في العالمين: العربي والإسلامي، لقد سقطت شقيقة مكة، وسقط المسجد الأقصى شقيق المسجد الحرام. ويعلنها بن غوريون ودايان وإشكول وحاخامات الأساطير التوراتية. ها هي القدس بين أيدينا ولن نخرج منها.

ومنذ 1967 قامت قيامة تهويد المدينة. استولى اليهود على كل بيت أهلُه مرحلون أو غائبون، ومُنع الغائبون من العودة إلى بيوتهم. آلاف البيوت السكنية الجاهزة أقيمت هنا وهناك، وعشرات الألوف من المستوطنين اليهود يوطّنون فيها. وأخذوا يهدمون الآثار الإسلامية ويزيلونها من الوجود، ومئات المدارس الإسلامية الفقهية أزيلت عن أرض القدس، وجرفت الجبال المحيطة وسويت أرضها لتقوم عليها المستوطنات الكبرى. وبات العرب قلة قليلة في المدينة.

وحتى يزول المسجد الأقصى أقدموا على حرقه عام 1968، وتكررت محاولات نسفه حتى بلغت العشرات، وراحت الجرافات والحفارات تقيم حول الأقصى وأسواره الحفريات الكبيرة التي تصل إلى أعماق الأرض بحثاً عن سراب الهيكل المزعوم. يحفرون الأنفاق تحت المسجد حتى يتهاوى ويقيموا مكانه رمز استعمارهم الهيكل الثالث، ويقيموا القدس الكبرى، ويقدموا هدية القدس مجسمة مصغرة ومحذوفاً منها المسجد الأقصى، ومقاماً عليها بناء الهيكل اليهودي المزعوم.

يرتكبون أبشع المجازر بحق المسلمين، وفي كل مجزرة يذهب عشرات الأبرياء ضحايا الرصاص اليهودي. وكل ذلك من أجل القضاء على الرابطة الوثيقة بين المسلمين وقبلتهم الأولى، والقضاء على هذا الرمز الإسلامي العظيم.

ومن أجل عروبة القدس وإسلامها قدم الشعب الفلسطيني أبناءه شهداء وجرحى ومجاهدين، واليوم، وبعد أن بلغ السيل الزبى تعلو وتعلو صرخة القدس لتصل مسامع المسلمين والعرب جميعاً. ويغلي المرجل لحظة بعد لحظة، والبركان الذي تموج حممه تحت الأرض يوشك على الإقلاع. فلن تبقى القدس أسيرة الصهاينة. إن القرآن الكريم يستصرخ كل حرٍ أبي أن يأخذ مكانه في صفوف المجاهدين حتى يتم إنقاذ المسجد الأقصى وتحريره من دنس الغزاة.

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم .

2 ـ صحيح البخاري ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة 1399هـ ـ 1979 إفرنجي .

3 ـ صحيح مسلم .

4 ـ سنن الستة .

5 ـ السيوطي : الدر المنثور في التفسير المأثور المجلد ـ دار الكتب العلمية بيروت 1990 .

6 ـ سعيد حوى من جند الله نقلاً عن المنهج للدكتور الشهيد فتحي الشقاقي دون تاريخ .

7 ـ محمد سعيد رمضان البوطي ، فقه السيرة ـ دمشق ـ بيروت دار الفكر 1990 .

8 ـ أحمد حجازي السقا ، نقد التوراة ، أسفار موسى الخمسة ـ مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة 1976 .

9 ـ تاريخ الطبري .

10 ـ ابن الأثير الكامل في التاريخ ـ دار صادر بيروت 1982 .

11 ـ محمد حسن شاب ، بيت المقدس والمسجد الأقصى ـ دار القلم دمشق 1994 .

12 ـ احمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ ـ دار الاعتدال دمشق .

13 ـ روجيه غارودي : فلسطين أرض الرسالات السماوية ـ دار طلاس دمشق 1991 .

14 ـ شريف محمد قاسم ، الإسلام والمسيحية في الميزانية ـ مؤسسة الوفاء بيروت 1988 .

15 ـ الآثار الإسلامية الأولى كريزويل ـ دار قتيبة دمشق 1984 ـ 1404هـ .

16 ـ ول . ديوراوات قصة الحضارة ، الجزء الثالث .

17 ـ ت : مفيد عرنوق ، اللآليء ، نصوص من الكنعانية ـ دار النهار بيروت .

18 ـ التوراة . العهد القديم . منشورات دار الكتاب المقدس ـ دمشق 1980 .

19 ـ الإنجيل العهد الجديد منشورات دار الكتاب المقدس ـ دمشق 1980 .

20 ـ قاموس الكتاب المقدس ، منشورات دار الكتاب المقدس ـ دمشق 1980 .

21 ـ كاثلين كانون. الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة ـ دار الجليل دمشق 1987.

22 ـ م. ريجسكي. ترجمة آحو يوسف أنبياء التوراة والنبوءات دار الينابيع دمشق 1993.

23 ـ مصطفى مراد الدباغ. بلادنا فلسطين الجزء العاشر القسم الأول رابطة الجامعين في الخليل 1974.

24 ـ النفوذ الصهيوني في السياسة الفرنسية، كتاب رسالة الجهاد. مالطا 1988.

25 ـ يوميات هرتزل ـ مركز الأبحاث الفلسطينية بيروت 1968.

26 ـ ناحوم غولدمان. إسرائيل إلى أين؟ ـ منشورات فلسطينية المحتلة 1978.

27 ـ ميخائيل زوبوروف. الصليبيون في الشرق ـ دار التقدم. موسكو.

28 ـ الفكرة الصهيونية، النصوص الأساسية ـ بيروت. مركز الأبحاث الفلسطينية 1968.

29 ـ الصانداي تايمظ 15/ 6/ 1969.

30 ـ جيروزاليم بوست 10/ 8/ 1967.

31 ـ جريدة الحياة مقال لـ محمد عثمان 4/ 2/ 1994.

32 ـ مجلة رسالة الجهاد الليبي. العدد 85 ـ 1985.

صدر للمؤلف

1 ـ من الجرح يبتدئ البرق، مجموعة شعرية بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب 1977 دمشق.

2 ـ الفكرة الصهيونية والأدب العنصري، دراسة، دار الأمام البخاري دمشق 1978 .

3 ـ الأغنية الشعبية الفلسطينية . دراسة . دار الجليل دمشق ط1 عام 1978 ط2، 1986 .

4 ـ مسافر زادي معي . مجموعة شعرية . ابلتعاون مع اتحاد العرب 1985 دمشق .

5 ـ الميثولوجيا الكنعانية والاعتصاب التوراتي . دراسة . دار الجليل دمشق 1986 .

6 ـ المعتقدات الشعبية في التراث العربي بالاشتراك مع محمد توفيق السهلي . دراسة . دار الجليل دمشق 1987 .

7 ـ أغاني وألعاب الأطفال في التراث الشعبي . دراسة . دار الجليل . دمشق 1987 .

8 ـ العرس الفلسطيني . دراسة . دار المبتدأ ـ لبنان 1996 .

9 ـ منهج الجهاد القرآني . مؤسسة مي للطباعة والنشر ـ بيروت . دارسة ط1، 1989، ط2، 1992 .

10 ـ الإنسان في ميزان القرآن . دراسة . جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا ط1، 1990، ط2، 1992 .

11 ـ العقائد الوثنية في الديانة اليهوديةز دراسة . دار قتيبة . دمشق 1990 .

12 ـ التربية الصهيونية . من عنصرية التوراة إلى دموية الاحتلال . دار قتيبة . دراسة 1991 .

13 ـ بروتوكولات صهيون من التنظير إلى التدمير . دراسة . دار قتيبة ط1، 1991 .

14 ـ موقف الإسلام من السحر والخرافة . دراسة . دار حطين بدمشق 1994 .

15 ـ زحف العنصرية ومواجهة الإسلام . دراسة . دار قتيبة ط1، 1995 .

16 ـ مولد محمد مفتاح التاريخ الإسلامي، فادي برس لندن 1996 دراسة .

17 ـ الأماكن الإسلامية المقدسة حق المسلمين الضائع دراسة مؤسسة ذي قار لندن 1996 .

18 ـ عز الدين القسام شيخ المجاهدين . دراسة مبسطة . دار الوسيم دمشق 1994 .

19 ـ البيت الفلسطيني . دراسة مبسطة . دار الوسيم دمشق 1994 .

20 ـ القرآن وحوار العقل . دراسة . جمعية الدعوة الإسلامية . 1997 .

21 ـ حقوق الإنسان بين الفلسفة والأديان . جمعية الدعوة الإسلامية . دراسة 1997 .

22 ـ القرآن والتوراة . أين يتفقان وأين يفترقان ، ثلاثة أجزاء ، دار قتيبة ، ص 1999 ـ طبعة 2/ 2001 .

23 ـ العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل ، جزءان ، دار قتيبة ، 2000 ـ 2001 .

24 ـ عبدة الشيطان وحركات انحرافية أخرى ، دار قتيبة ، دمشق 2001 .

25 ـ القدس في ظل الدولة الإسلامية ، القيادة الشعبية الإسلامية العالمية ، طرابلس ـ ليبيا 2001 .

26 ـ القدس ومكانتها في القرآن الكريم والسنة النبيوية ، القيادة الشعبية الإسلامية العالمية ، طرابلس ـ ليبيا 2001 .

27 ـ القدس بين مشروعية الجهاد والخضوع لأعداء الإسلام ، القيادة الشعبية الإسلامية العالمية ، طرابلس ـ ليبيا 2001 .

28 ـ صدام الحضارات حتمية قدرية أم لوثة بشرية ، دار قتيبة 2002 ط1 .

29 ـ ختم النبوة وآفاق المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ـ ليبيا ، 2000 .

30 ـ العمليات الاستشهادية ـ دار قتيبة ـ دمشق 2002 .

الفهرس